

السنة الثانية (ذوالقعدة سنة ١٣٥٤ - يناير سنة ١٩٣٦) الجزء الثالث

صحيفة دار العلوم

مجلد الأدب واللغة والتربية والاجتماع
العدد ١٢٣٤

نصدرها: جماع دار العلوم

كل ثلاثة أشهر

قررت وزارة المعارف ومجالس المديريات «صحيفة دار العلوم» في جميع مدارسها

رئيس التحرير

محمد علي مصطفى

المدير

ابوالفتح الفقي

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعي بيومي

المدرس بدان العلوم

المراسلات الخاصة بالتحرير

ترسل إلى مساعد التحرير

محمد مهدي علام

المفتش بوزارة المعارف

الاشتراك السنوي

٢٠ قرشا

لغير الطلبة

١٢

للطلبة ومدرسي المدارس الأولية

٦ شلنات انجليزية

٥ قروش

في القطر المصري

خارج القطر

ثمان العدد

إِنْ بَاحِثًا مَدَقَّقًا لَوَازَرَدَ أَنْ يَعْرِفَ أَيْنَ تَمُوتُ
اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَإِنْ نَحْيَا الْوَجَدَ هَا تَمُوتُ فِي كُلِّ مَكَارٍ
وَنَحْيَا فِي دَاخِلِ الْعُلُوفِ

الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

من مكتب التحرير

في كل عدد من أعداد الصحيفة، تقف حائرين إزاء حجمه؛ فكمية المواد، والرغبة في خدمة القراء إلى أقصى حد تميل بنا إلى تضخيمه، والاعتبارات المالية تدعونا إلى الاعتدال في عدد صفحاته. ويظهر أن الاعتبار الأول هو الذي رجح دائماً، وإنا بترجيحه لمغضبون؛ لأن هذه «الصحيفة» لم تكن في يوم من الأيام تجارية تبحث وراء المال. وما دمنّا نشعر بأننا نؤدى لأمتنا الكريمة عامة، وللطبقة الممتازة من متعلميها خاصة، ما علينا من واجبات ثقافية لحسبنا هذا قناعة بل رجحاً عظيماً.



وإننا بهذا الصدد نسدى أجل الشكر لحضرات الكتاب الأجلاء الذين يوالون ترويض الصحيفة بكتاباتهم وبحوثهم، معترفين عما يؤخر نشره منها، لأن نشر جميع ما يصل إلينا دفعة واحدة أمر ليس في إمكاننا.



على أن ابتهاجنا بنجاح الصحيفة وتقدمها قد شابه في هذا العدد حزننا العميق على فقد زميل كريم من زملائنا في التحرير هو المرحوم الأستاذ طه أحمد إبراهيم المدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية، والمحرر بصحيفة دار العلوم.

لقد كان المرحوم طه شخصية من شخصيات الأدب العربي، في مصر. وقد عرفه قراء الصحيفة من آثار قلمه، فإنه على الرغم من أن

المرض كان يصارعه في خلال العامين الماضيين ، لم ينقطع عن عمله في الجامعة أو في الصحيفة إلا في فترات لم يكن يقوى فيها على النهوض .
ولقد كان الفقيد الكريم رضى الخلق ، سمح اللقاء ، كثير التواضع ، فكان لا بد لك أن تسمعه أو تقرأه حتى تنقف على مبلغ علمه ، وقوة حجته . عرفناه زميلاً في طلب العلم في « دار العلوم » فكان مثال الطالب الذكي الحذب على درسه ، وطالما سمعنا موسيقاه الجميلة يعزفها شعرا خلايا . ثم عرفه تلاميذه في المدارس على إثر تخرجه فكان لهم الأستاذ الضليع والأب الشفيق ، والصديق الناصح . وسمت به نفسه إلى الاستزادة من العلم فرحل إلى فرنسا وهناك أقام بضعة أعوام ، حصل في نهايتها على شهادة في العلوم السياسية . ثم عاد إلى مصر فاشتغل بالتدريس في وزارة المعارف حقبة من الزمن ، ثم اختارته الجامعة المصرية مدرساً للأدب العربي في كلية الآداب .

وهناك يحدثك تلاميذه عنه وعن أثره في نفوسهم .

ففي ذمة الله هذا العالم الأديب ، وإن أسرة « الصحيفة » لتتعاها إلى قرائها وإلى عالم الأدب بقلوب مفعوجة ونفوس ملتاعة . وإننا لنقدم عزاءنا لشركائنا في الفجيعة وهم أسرة الفقيد . ألهمهم الله وإيانا الصبر الجميل .

اتجاهات الأدب وأهم حواضره

في العصر العباسي^(١)

بـعلم محمد البسيبي

المدرس بدار العلوم

٣

اشتمل المقال الثاني على أهم الحواضر الأدبية في القسم الشرقي من الدولة العباسية، ونريد الآن أن نعرض لأشهر الحواضر في القسم الغربي منها، وبذلك يتم موضوعنا، فيتم به ما أردنا من تتبع الحركات الأدبية شرقاً وغرباً طوال العصر العباسي، وعقد الصلات الوثيقة بين الظواهر السياسية والأدبية.

وبعد فإن أشهر الحواضر الأدبية في غربي العراق ما يأتي :-

١ - مدينة (حلب) عاصمة الدولة الحمدانية التي قامت بحلب والموصل (من عام ٣١٧ هـ إلى عام ٣٩٤ هـ) وحسبك في بيان مكانة هذه الحاضرة أن يكون من أمرائها (سيف الدولة بن حمدان التغلبي). ذلك الأمير الذي لم تشغله أعباء الملك وأهوال الحروب عن أمر الأدب ورعاية العلماء؛ فجمع حوله أفئدة العلماء والشعراء، بما أسبغ عليهم من نعم، وما تجمل به من أدب، وما عرف به من نقد الشعر، والإجازة عليه، حتى قيل إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من الشعراء، ولا غرو فقد نشأ في بيئة عربية خالصة، وأخذ عن فحول العلماء كابن خالويه النحوي، وطالت مخالطته لهم، فازداد بالعلم والأدب بصراً ومعرفة.

(١) راجع المقالين الأول والثاني في المحدثين الأول والثاني من السنة الثانية من

من أجل ذلك كثرت جمهرة الأدباء والعلماء الخافين من حوله : فتزاحوا على بابه ، وتنافسوا ، بل تحاسدوا في القرب منه ، والحظوة عنده ، وما حصل بين المتنبي وابن خالويه ذائعٌ مستفيضٌ .

كان (سيف الدولة) نفسه شاعراً حسن الشعر ، فمن شعره هذه المقطوعة الجيدة في وصف مجلس الشراب وقوس قزح : -

وساق صبيح للصباح دعوته فقام وفي أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنهم فمن بين منقض علينا ومنقض
وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً على الجو دُكناً والحواشي على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأصفر على أخضر في أحمر تحت مبيض
كأذيال خوذ أقبلت في غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض
ولقد أعجب (الثعالبي) في اليتيمة بهذه الأبيات فوصفها بأنها ومن التشبيهات الملوكة التي لا يكاد يحضر مثلها السوقه ، على أن من الإنصاف أن نقول إن بعض الرواة ينسبها إلى (ابن الرومي)

وما يدل على اهتمامه بالنقد ما رواه صاحب اليتيمة من أنه استشهد « أبا الطيب المتنبي » قصيدته التي أولها :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
فلما بلغ (المتنبي) قوله : -

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمتي هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم
قال (سيف الدولة) قد انتقدنا عليك هذين البيتين كما انتقد على « امرئ القيس » بيتاه : -

كأنى لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل لخلي : كرى كرة بعد إجمال
وبيتاك لا يلتم شطراهما كما ليس يلتم شطرا هذين البيتين وكان ينبغي
لامرئ القيس أن يقول :

كأنني لم أركب جوادا ولم أفل لخلي كرى كرة بعد إجفال
ولم أسبأ الزق الروى للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خالخال
ولك أن تقول : —

وقفت وما في الموت شك لواقف ووجهك وضاح وثرعك باسم
تمر بك الأبطال كلئى هزيمة كأنك في جفن الردى وهو تأم
فقال (أبو الطيب) : أيد الله مولانا ؛ وإن صح أن الذى استدرك على
امرى القيس هذا كان أعلم بالشعر منه فقد أخطأ ، امرؤ القيس ، وأخطأت أنا ،
ومولانا يعلم أن الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك ؛ لأن البزاز يعرفه جملة ،
والحائك يعرف جملة وتفاريقه . . . وإنما قرن امرؤ القيس لذة الركوب للصيد
بلذة النساء ، وقرن السباحة فى شراء الخمر للأضياف بالشجاعة فى منازلة الأعداء ،
وأنا لما ذكرت الموت فى أول البيت أتبعته بذكر الردى وهو الموت ليجانسه ،
ولما كان وجه الجريح المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً ، وعينه من أن تكون
بأكية قالت (ووجهك وضاح وثرعك باسم) لاجمع بين الأضداد فى المعنى وإن
لم يتسع اللفظ لجميعها ، فأعجب « سيف الدولة » بقوله ، ووصله بخمسين ديناراً
من دنائير الصلات (١) .

ومهما تكن قيمة هذا النقد فإنه دليل على شدة عناية « سيف الدولة »
بالأدب وأهله ، كما أن إعجابه برد « أبى الطيب » دليل على نبالة قصده ، ورجاحة
عقله ، وسعة حلمه ، وأنه أربحى النفس ، لا تصرفه عظمة الملك عن الحقيقة .
وعلى الجملة كانت (حاب) أيام سيف الدولة مهبط الأدباء ، وقبلة العلماء ،
فكان ينزلها من الشعراء أبو الطيب المتنبي ، وأبو فراس الحمداني ، وأبو الفرج
البيهقي ، وكشاجم ، والخالديان : أبو بكر وأبو عثمان ، ومن العلماء أبو عبد الله
الحسن بن خالويه النحوى ، وأبو الفتح عثمان بن جنى صاحب (الخصائص)

(١) كان لسيف الدولة دنائير أعداها للصلوات ، فى كل منها عشرة مثاقيل وعليها اسمه
وصورته (يتيمة الدهر الجزء الأول)

في فقه اللغة . إلى غير أولئك من شعراء حلب والشام والموصل ، وفي (يتيمة الدهر) مختارات من أجود الشعر لهؤلاء الشعراء وغيرهم من شعراء (سيف الدولة) ، فحسبنا من شأن (حلب) ما تقدم .

٣ — ومن تلك الحواضر مدينة (القاهرة) التي حَسَتْ على الأدب حنوا شديدا ، وأصبحت على عهد الفواطم كعبة العلماء ، ومقصد الأدباء ، تهوى إليها جموعهم من أطراف البلاد المصرية وغيرها ؛ وهم ما بين عالم وطالب علم فتوسع لهم القاهرة صدرها ، وتغدق عليهم برها ، وقد زاد في مجدها وأعلى من ذكرها ، وجود (الجامع الأزهر الشريف) الذي أسس مع القاهرة لعهد الفواطم (عام ٣٥٩ هـ) فما لبث أن ضم بين جوانبه أفواجا من أئمة الفقه والأدب ، على اختلاف أجناسهم وبلدانهم ، وغدا عاملا من أهم العوامل على نشر العلوم اللسانية والدينية ، وأصبح ملاذاً رحبا للأدباء العربية ورجالها الذين نزحوا إلى مصر من الشرق والغرب ؛ وساعد على نباهة شأن (القاهرة) ما وجد فيها من (مكتبات) علمية حافلة عامة كمكتبة (الحاكم بأمر الله الفاطمي) وما انبث فيها من مدارس كثيرة غنية بالعلماء ، موظاة الأكتاف للطلاب .

ويطول بنا المقال إذا حاولنا استقصاء ما للقاهرة من آثار خوالد في جنبات العلم والأدب ، ولكن لا بد لنا أن نعرض دُرُرا سيرة من كلام شعرائها في ذلك العهد ، أولئك الشعراء الذين نشثوا في أرض مصر ، أو نزلوا بها وتكلموا في معاهدها ، واتخذوها مستقرا ومقاما ، فجاء شعرهم على كثرة رائع اللفظ ، حسن الديباجة ، رقيق الحواشي ، وانطبعت فيه صورة مصر والنيل السعيد .

وإننا لنكتفي في هذا المقام بالشعراء : تميم بن المعز المتوفى عام ٣٧٤ هـ ، وابن قلاؤب اللخمي المصري المتوفى عام ٥٦٥ هـ وابن النيه المتوفى عام ٦١٩ هـ وابن مطروح المتوفى عام ٦٤٩ هـ والبهاء زهير المتوفى عام ٦٥٦ هـ وكلهم (ما عدا الأول) نشثوا قريبا من سقوط بغداد ، أي في زمن اضمحلال الأدب بوجه عام ، ومع ذلك ترى في شعرهم رقة وانسجاما ، وتعرف فيه الجزالة والقوة والبراعة ، وتلك صفات لا يكاد يخلو منها في ذلك العهد شاعر مصري

فمن قول تميم بن المعز يصف فوارة ، وفيه من دقة الوصف ما فيه : —

وقاذفة بالماء في وسط بركة قد التحفت ظلامن الأيك سيججا
إذا انبعثت بالماء سلتة مُنْصَلا وعاد عليها ذلك النصل هودجا
تحاول إدراك النجوم بقذفها كأن لها قلبا على الجو مُخرجا
ومن شعر (ابن قلاقس) الملقب بالقاضي الأعز يصف غروب الشمس
فوق نهر النيل : —

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربة واعجب لما بعدها من حمرة الشفق
غابت وأبدت شعاعا منه يخلقها كأنما احترقت بالماء في الغرق !
وللهلال ؛ فهل وافى لينقذها في إثرها زورقا قد صيغ من ورق ؟
ومظهر الإبداع والروعة في بيته الثاني ، أما تشبيه الهلال بزورق من فضة
فقد سبق به (ابن المعتز) .

ومن كلام (ابن النيه) في الرثاء : —

لا تصلح الأرواح إلا إذا سرى إلى الأجساد هذا الفساد
أرغمت يا موت أنوف القنا ودست أعتاق السيوف الحداد
وفي البيت الأول معنى فاسق عجيب .

ومن قوله تلك القصيدة المشهورة التي يُتغنى بها الآن ومطلعها : —
أفديه إن حفظ الهوى أوضيعا ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا ؟
ومنه في الوصف والغزل الرقيق : —

من سحر عينيك الأمان الأمان قتلت رب السيف والطيلسان
أسمر كالرمح له مقلة لو لم تكن كحلاء كانت سنان
يزداد ، إن أشكُ له ، قسوة ولو شكوت الحب للصخر لان
ساق سها رضوان عن حفظه فقر من جملة حور الجنان
بدر ، وكأس الراح شمس الضحا لله ما أسعد هذا القران

ومن كلام (ابن مطروح) في الغزل :

وما أنس لا أنس المليحة إذ بدت دُجى ، فأضاء الأفق من كل موضع
 فحدثت نفسى أنها الشمس أشرقت وأنى قد أوتيت آية (يوشع)
 وأما شعر (البهاء زهير) فشائع مأثور ، على أننا نروى له المقطوعة الآتية ،
 وقد قالها في الحنين إلى مصر وهو بعيد عنها في بلاد الشام :

سقى واديا بين العريش فبرقة من الغيث هطال الشايب هتان
 وحيا النسيم الرطب عني إذا سرى هنالك أوطانا إذا قيل : أوطان
 بلاد متى ما جتتها جئت جنة لعينك منها كلما شئت رضوان
 تمثل لي الأشواق أن ترأبها وحباءها مسك يفوح وعقيان
 فيا ساكني مصر ترأكم علمتم بأنى مالى عنكم الدهر سلوان ؟
 وما فى فؤادى موضع لسواكم ومن أين فيه ؟ وهو بالشوق ملان
 وهذه المقطوعة وحدها كافية في الدلالة على رقة طبع (البهاء) وسلامة ذوقه
 وجزالة لفظه ، ومثانة شعره .

(٣) ومن حواضر الأدب مدينة (قوص) في صعيد مصر ؛ روى (ياقوت الحموى) في معجم البلدان أنها كانت كثيرة الأسواق ، ومحط الرحال ، وملتقى الحجاج ؛ إذ كانوا يسافرون منها إلى (القصير) ثم إلى الحجاز ، وإليها يعودون من الحج ، وكانت أعظم مدن الصعيد وقفاً ، تنزل بها القوافل الواردة من بحر الهند والحبشة واليمن والحجاز ، وفيها كثير من الفنادق ، وبها كثير من أرباب الصناعات والفنون والتجار والعلماء ، بدأت في ذلك العمران في نهاية القرن الرابع الهجرى ، وكان بهاست مدارس (كما كان بإسنا مدرستان وبالأقصر مدرسة) وصارت بتأثيرها من المدارس ومن نزل بها من العلماء متبع العلم ومستتراد الأدباء ، وعرفت مدارسها على وجه خاص بدراسة الحديث الشريف ، وفيها تخرج كثير من الأدباء كالبهاء زهير وابن مطروح ، وقد دامت لها هذه المنزلة دهرًا طويلاً ، وكان من أجلاء شيوخها الإمام الكبير (تقي الدين محمد بن الشيخ

محّب الدين القشيري) الذي انتهت إليه رياسة العلم في زمنه، وأصبح مقدماً في معرفة علل الحديث، منفرداً بهذا العلم، بارعاً في العلوم النقليّة والعقليّة، وهو صاحب كتاب (الإمام) في الحديث، وشرح كتاب (العمدة) لابن رشيّق القيرواني، وشرح (العنوان) في أصول الفقه، وله مع ذلك شعر حسن، ولما مات (عام ٥٧٠ هـ) رثاه (الشريف محمد بن محمد بن عيسى القوصي) بقصيدة منها:

سيطول بعدك في الطلول وقوفي أرؤى الثرى من دمي المذروف

لو كان يقبل فيك حتفك فدية لفديت من علمائنا بألوف

(٤) وأما بلاد الأندلس فقد تعددت خواضر الأدب فيها بتعدد ممالكها، وكثرة أمرائها، الذين يسمون بملوك الطوائف، أولئك الذين غلبوا على البلاد وأظهروا أمرهم فيها بعد ضعف الدولة المروانية الثانية؛ وما أشبه تلك الدويلات بتلك الممالك التي انسلخت من الدولة العباسية في الشرق والغرب؛ بتدخل الأتراك في شؤونها واستبدادهم بخلفائها، منذ عهد المعتصم، فقد كانت قرطبة من أجل مراكز الأدب، ثم انضم إليها (بطلينوس) في عهد دولة (بني الألفطس) و (طليطلة) في عهد دولة (إسماعيل بن ذي النون) و (سرقسطه) في عهد دولة (بني هود) و (أشبيلية) في عهد (آل عمّاد) و (بلنسية) في عهد (لمنصور المعافري).

وكما كان التنافس شديداً في الشرق بين الممالك الناشئة، كان على أشده بين أمراء ملوك الطوائف، فلا عجب أن صارت بلاد الأندلس كلها وقتاً ما حاضرة ضخمة للعلم والأدب، ولا غرو أن ينبغ فيها أولئك العلماء الأجلاء، ذوو الأثر الخالد، والصيت الذائع في الشرق والغرب.

فمنهم الإمام (علي بن أحمد بن حزم الظاهري) الفيلسوف المتوفى عام ٤٥٦ هـ وهو صاحب كتاب (الفصل في الملل والأهواء والنحل) وغيره من المؤلفات القيمة. والإمام اللغوي البارع (أبو الحسن علي بن إسماعيل) المعروف (بأبن سيدة) المتوفى (عام ٤٥٨ هـ) وحسبه أن يكون صاحب (المختصر) في فقه اللغة، وهو أمتع كتاب في هذا الباب.

والامام الفيلسوف (القاضي أبو الوليد محمد بن احمد بن رشد) القرطبي شيخ فلاسفة الأندلس، المتوفى عام (٥٣٩٥ هـ) وهو علم من أعلام الفلسفة؛ بل هو وارث (أرسطو) وشارح فلسفته. وله من المؤلفات كتاب (فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال)، وكتاب (تهافت التهافت) في الرد على كتاب (تهافت الفلاسفة) للغزالي.

والامام النحوى الجليل (أبو عبد الله محمد جمال الدين الطائى الشافعى الجياني) المتوفى بدمشق عام (٥٦٧٢ هـ)، وقد نزح إلى المشرق بعد أن تلقى العلم (بجيان) على (أبي علي الشلوين وثابت ابن حيان) واستوطن دمشق، وكان إماما في النحو والصرف والقراءات وعللها، وهو صاحب الألفية والكافية والتسهيل ولامية الأفعال. وهي من المراجع الموثوق بها في علمي النحو والصرف ولا بأس أن أورد هنا بعض ما قيل فيه من المرائي، تبياناً لمكانته فحسب؛ وسيرى القارىء فيه لونا من التكلف لا يخلو من طرافة. قال (شرف الدين الحصنى) في رثائه:

ياشتات الأسماء والأفعال بعد موت بن مالك المفضل
وانحراف الحروف من بعد ضبط منه في الانفصال والاتصال
مصدرا كان للعلوم بإذن الله (م) من غير شبهة ومحال
ألم قد عراه أسكن منه حركات كانت بغير اعتلال
صرفوه يا معظم ما فعلوه وهو عدل معروف بالجمال
يا لسان الأعراب يا جامع الأعراب (م) يا مفهما لكل مقال
يا فريد الزمان في النظم والنثر (م) وفي نقل مستندات العوالى
كم علوم بثنتها في أناس علموا ما بثت عند الزوال
وهذه الآيات من قصيدة كلها على هذا النحو ومع ذلك يقول (الصلاح الصفدى) (١): ما رأيت مرثية في نحوى أحسن من هذه!!

وبعد فإن استقصاء أعلام الأدب في الأندلس يحتاج إلى وقت طويل ، وبحث خاص ، وحسبنا الآن من شمس المشرق ذلك القبس المتألق ، وعلى الجملة كانت الأندلس تفيض بالعلم والعلماء ، وقد نزع كثير منهم بعد اضطهادهم إلى الغرب هنالك إلى القيروان ومصر والشام واتخذوها مستقرا ومقاما . فساعدوا على صون اللغة وضبطها .

ولقد كان للتنافس بين الشرق والغرب من جهة ، وبين ملوك الطوائف من جهة أخرى أكبر الأثر في تلك النهضة العلمية ، التي انتجت هذه الثروة العلمية الأدبية الضخمة . ولقد كانت الأندلس سببا في نشر الثقافة ببلاد أوروبا ، فقد قصد أهل أوروبا مدارس قرطبة وأشبيلية وطليطلة ، وتلقوا العلوم على علماءها ، ونقلوا إلى اللاتينية الفلسفة اليونانية ومؤلفات ابن سينا والرازي والمجسطي ، لبطليموس في الرياضة السماوية وقد كثرت مكتبات الأندلس الحافلة ومدارسها المختلفة في القرن الخامس . وقد حققوا أنه كان بالأندلس سبعون مكتبة عامة بها مواضع خاصة للنقل والمطالعة والترجمة ، ولقد أحرق أهل إسبانيا معظم هذه المكتبات ؛ والذي يرى في مكتبة (الاسكوريال) الآن بالأندلس إنما هو صياغة من ذلك الخضم الهائل ، أبقى عليها الأسبانيون ونقلوها إلى مكتبتهم لما أفاقوا من غشيتهم ، وثابوا إلى رشدهم ، وهذأت فيهم سورة القمع ، وأشبعوا شهوة الانتقام . وسيدكر المنصفون من علماء الغرب كيف أشرفت عليهم شمس المعارف من هاتيك البلاد . ويحسن في هذا المقام أن أثبت عبارات نقلها الأساتذة الأجلاء مؤلفو (أدبيات اللغة العربية) عن مجلة المقتطف (المجلد الثالث رقم ٧) ونصها : —

« ليقبل لنا أهل أسبانيا أين الثمانون ألف كتاب التي أمر كرديناهم (شميز) بحرقها في ساحات (غرناطة) بُعيد استظهارهم عليها فأحرقوها وهم لا يعلمون ما يعملون ، حتى أفنوا على ما قال مؤرخهم (ربلس) ألف ألف وخمسة آلاف مجلد !! كلها خطتها أقلام العرب ! وليتهم يخبروننا كم من كتاب لعبت به نيرانهم بعد ذلك ؟ حتى لم يبقوا من معارف العرب ولم يذكروا ؛ وما يقولون عن السفن الثلاث التي ظفروا بها مشحونة بالمجلدات العربية الضخمة وطالبة ديار سلطان .

مرا كش فسلبوها وألقوا كتبها في قصر (الاسكوريال) سنة ١٦٧١ م (١٠٨٢هـ) حتى لعبت بها النيران فأكلت ثلاثة أرباعها ولم يستخلصوا منها إلا الربع الأخير حينما استفاقوا من غفاتهم، وعللوا كبر جهالتهم، فقوضوا إلى ميخائيل القصيري الطرايلسي الماروني ترتيبها وكتابة أسمائها، فكتب لهم ١٨٥١ كتابا منها، فعلى ما في هذه الكتب - وما بقي في إفريقية والمشرق - قصر أهل هذه الأيام معارف العرب، وحتى هذه لم يستوعبوا جميع ما فيها .
واليك ما نقله أوائك الأسانذة الأجلاء عن مجلة المقتطف (المجلد الثالث

وجه ٩١، ٩٢) :-

في القرون الوسطى قصد أهل أوروبا مدارس الأندلسيين، وكانت على غاية الاتقان، وقرأوا العلم فيها ثم تزودوه منها إلى بلادهم؛ ففي سنة ٨٧٣ م أمر (هرموت) رئيس دير (ماري غالن) جماعة من رهبانه بدرس اللغة العربية لتحصيل معارفها، وكان الرهبان البندكتيون يطلبون العلوم العربية بشوق لا مزيد عليه، وأشهر من تعلم العلم من العرب البابا (سلفستر الثاني) . . . دبت قدمه في أرض الأندلس فترفع في مدارس أشيلية وقرطبة وصرف إلى العلوم رغبته، فلما ساغها هنثا عاد إلى دياره وما زال يسمو على أقرانه حتى تنصب (بابا) فشاذا للعلم مدرستين الأولى في إيطاليا والثانية في (ريمز)، وأدخل إلى أوروبا معارف العرب والأرقام الهندية التي نقلها عنهم، ثم ثارت الحمية في أهل إيطاليا وفرنسا وجرمانيا وانجلترا؛ فطلبوا الأندلس من كل فج عميق، وتناولوا المعارف من أهلها قال (موتكلا) في تاريخ العلوم الرياضية (ولم يقم من الأفرنج عالم بالرياضيات إلا كان علمه من العرب مدة قرون عديدة) فمن جملة من نقل عنهم المعارف من أهل إيطاليا (دوكريمونا)، قرأ علم الهيئة والطب، والفلسفة (بطليطة)، وترجم عنهم (المجسطي)، وكتب الرازي والشيخ الرئيس إلى اللاتينية، و(ليوندراليزي) نقل عنهم الحساب والجبر، و(أرنولد الفيلاونوف) نقل عنهم الهيئة والطبيعات والطب . . .

ثم ينقل الأساتذة الأجلاء أصحاب (أدبيات اللغة العربية) عن جريدة مدرسة
الدبرج الكلية هذه العبارة :

« انا لمدينون للعرب كثيرا ، ولو قال غيرنا خلاف ذلك ؛ فأنهم الحلقة التي
وصلت مَدِينَة أوربا قديما بمدنيتها حديثا ، وبنجاحهم وسمو همتهم ، تحرك أهل
أوربا إلى إحراز المعارف ، واستفاقوا من نومهم العميق في العصور المظلمة ، ونحن
لهم مدينون أيضا ، بترقية العلوم الطبيعية ، والفنون الصادقة النافعة ، وكثير من
المصنوعات والمخترعات التي نفعت أوربا كثيرا علما ومدنية .. »

بقي أن ألم إلمامة سريعة بحاضرتين من حواضر الأدب العربي ، كان لهما من
وفرة الأدباء شأن لا يستهان به ، أعنى بهما (القيروان) و (صقلية) ؛
أما القيروان فقد نبه ذكرها بكثير من الشعراء :
فمنهم (ابن شرف القيرواني) المتوفى سنة ٤٦٠ هـ بالمرية من بلاد الأندلس ،
وهو الذي يقول (وكان مغرما بالمحسنات البديعة) :

إن ترمك الغربة في معشر قد أجمع الناس على بغضهم
فدارهم مادمت في دارهم وأرضهم مادمت في أرضهم
ويقول في وصف (عود) :

سقى الله أرضا أنبتت عودك الذي زكت منه اغصان وطابت مغارس
تغنى عليه الطير والعود أخضر وغنت عليه الغيد والعود يابس
ومنهم (أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري) المتوفى سنة ٤٥٣ هـ الذي كانت داره
ممتدى شباب القيروان ، ينشدهم شعره ويتلقون عنه أدبه ، وهو صاحب (زهر
الآداب) الذي يعد من أمتع كتب الأدب ؛ لحسن تبويبه وجمال تقسيمه ، وما
أودعه من جيد المنظوم والمثثور .

ومنهم (أبو الحسن الحصري) المتوفى سنة ٤٨٨ هـ ، كان أدبيا شاعرا عالما
بالقراءات ، وله تلك القصيدة الذائعة الصيت ، الرقيقة اللفظ والمعنى ، وهي

التي مطلعها : —

يا ليل الصب منى غده أطلوع الساعة موعده
رقت الستار فأرقه أنسف للبين يردده
فبكاه النجم ورق له بما يراه ويرصده

يا من حجدت عيناه دمي وعلى خديه توره
خداك قد اعترفا بدمي فعلام جفونك تجده ؟
ولروعتها ورقها عني بها الشعراء معارضة واقتباساً ، فمن عارضها المرحوم ،
اسماعيل صبرى باشا بقصيدة منها : —

أقرب من دنف غده فالليل تمرد أسوده
والتفت تحت عجاجته يرض في الحى تؤيده
وأمية الشعراء المرحوم شوقي بك بقصيدة منها : —

مضناك جفاه مرقد وبكاه ورحم عوده
حيران القلب معذبه مقروح الجفن مسهده
ومنه (الحسن بن رشيق القيرواني) وهو أديب فاضل ، وشاعر مجيد ،
ومؤلف بارع ، حسبه أن يكون من مؤلفاته كتاب (العمدة) في صناعة الشعر
ونقده . نشأ بالقيروان ، وظل بها حتى خربت ، فارتحل إلى صقلية ، ومات بها
سنة ٤٥٦ هـ ، ومن جيد شعره :

في الناس من لا يرتجى نفعه إلا إذا مس بأضرار
كالعود لا تظمع في طيبه إلا إذا أحرق بالنار

وقوله : —

ومن حسنات الدهر عندي ليلة من العمر لم تترك لأيامها ذنباً
خلوناها تنفى القذى عن عيوننا بلؤلؤة مملوءة ذهباً سكناً
وملنا لتقيل الثغور ولثما كمثل جنوح الطير يلتقط الحبا
وأما (صقلية) فقد كانت حاضرتها (سرقوسة) حافلة بالشعراء الذين امتازوا

بدقة الوصف وبديع الخيال ، ساعدهم على ذلك ما امتازت به جزيرتهم من جمال الطبيعة ، وما فيها من مناظر خلابة ، ومشاهد رائعة جذابة ، ومن شعرائها : — الشاعر المبدع (عبد الجبار بن حمديس الصقلي) نشأ بصقلية وثقف فيها ، وظل بها ، حتى سقطت في يد الزماندين سنة ٤٧١ هـ فهجها إلى الأندلس ، واتخذ أشيلية دارا ، أيام صاحبها المعتمد بن عباد ، ثم رحل إلى إفريقية ومدح الأمير يحيى بن تميم بن المعز الفاطمي ، ثم قصد جزيرة (ميريقة) وعاش فيها حتى أدركه الموت ، سنة ٥٢٧ هـ ومن كلامه :

وليلة حالكة الإزار مدت جناحا كسواد القار
تحجب عنا غرة النهار عقرت فيها الهم بالعُقار
بجسم نور فيه روح نار في مجلس ضم بني الفخار
كمالة تضحك عن أقار تراحت بأنجم درارى

ومن شعره في الحين إلى صقيلة : —

ذكرت صقيلة والأسى يجدد في النفس تذكاريها
فان كنت أخرجت من جنة فاني أحدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكاء حسبت دموعي أنهارها

ومنه في تعزية آل (عباد) أصحاب أشيلية عن ملكهم لما نكبه ملك المغرب يوسف بن تاشفين ، وكانوا غرة في جبين الزمان :

أتأس من يوم يناقض أمسه وشبه الدرارى في البروج تدور؟
ولما رحلت بالندى في أكفكم وقفن رضوى منكم وثبير
رفعت لساني بالقيامة : قد دنت فهتدى الجبال الراسيات تسير
ومن كلامه :

قم هاتها من كف ذات الوشاح فقد نعى الليل بشير الصباح
من قبل أن ترشف شمس النضحي ريق الغواذى من ثغور الأفاح

وكان بصقلية كثير من العلماء؛ منهم على بن جعفر السعدى المعروف بابن
القطاع، ذو التصانيف الممتعة فى النحو، مثل كتاب (الأفعال) الذى يعد من
أحسن الكتب وأنفسها، وكان شاعرا رقيق الشعر، منسجم العبارة ومن كلامه :

ارفق بصب أقى ذليلا قد مزج اليأس بالرجاء
أنهكه فى الهوى التجنى فصار فى رقة الهواء

ومن كلامه أيضا : —

فلا تفدّن العمر فى طلب الصبا ولا تشقىن يوما بسعدى ولا نعم
ولا تسدين أطلال مئة باللوى ولا تسجمن ماء الشؤن على رسم
فان قضارى المرء إدراك حاجة وتبقى مذمات الأحاديث والأشتم
ومن أدباء صقلية وعلمائها الأعلام حجة الدين (محمد بن ظفر الصقلى)
صاحب كتاب ينبوع فى تفسير القرآن الكريم، وشارح مقامات الحريرى،
ومؤلف كتاب (سلوان المطاع فى عدوان الاتباع) ألفه لبعض قادة الجيش
بصقلية، وقد تقلبت به الأحوال حتى أقام بمدينة (حماة) بالشام، ومات بها سنة
٥٦٥ هـ، وله شعر رقيق منه : —

حملتك فى قلبى فهل أنت عالم بأنك محمول وأنت مقسم ؟
ألا إن شخصا فى قوادى محله وأشتاقه ، شخص على كريم

محمود البسيضى

حول إعجاز القرآن^(١)

٣

دقة الألفاظ وانسجامها

بذلهم السباعى يبرمى

الاستاذ بدار العلوم

أما وقد كشفنا فى مقالنا الفائت عن ناحية من نواحي إعجاز القرآن الكريم ، هى « وضوح المعانى وائتلافها » ، فلنكشف فى هذا المقال عن ناحية أخرى ؛ هى « دقة الألفاظ وانسجامها » ، قاصدين بالدقة إحكام الاستعمال ، وبالانسجام قصدا عاما يشمل ما بين اللفظ واللفظ كما يشمل ما بين اللفظ والمعنى ؛ فللفظ فى تركيبه تعاشق وانسجام إلى الألفاظ ، كما له هذا إلى المعانى الجزئية له والعامه للتركيب . فأما الدقة فقد وضحت فى المفردات من صروف وأسماء وأفعال كما وضحت فى التراكيب . وأما الانسجام فقد كثرت له فى النوعين الأمثال . وهذا بعض ما يمكن فى ذلك أن يقال .

أولا - الدقة

(١) فى الحروف

من دقة القرآن فى استعمال الحروف مخالفته بين (فى) و(على) مخالفة يستدعيها السياق ؛ من ذلك قوله تعالى « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » ، مختارا (على) للهدى ؛ لأن صاحب الحق قوى ذواستعلاء ، ومختارا (فى) للضلال ؛ لأن صاحبه فاشل ضعيف ، لا يزال منغمسا فى حيرته . مترديا فى هوته ؛ ولذلك قال سبحانه فى آية أخرى « تالله إنك لفى ضلالك القديم » .

(١) راجع المقالين الأول والثانى فى العددین الأول والثانى من السنة الثانية من « صحيفة دار العلوم » .

ومن أدق ما يلاحظ في استعمال (على) أن العلو فيها قد يكون في حال الضلال كما رأيت في حال الهداية ، ولكن على شرط أن يكون مضعفا لا مقويا ، كما في قوله تعالى : « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم ؟ » فان من ركب وجهه يزداد ضلالا كمن ركب رأسه ؛ ذاك لا يبصر وهذا لا يعقل . ولذا أتى في الآية بكلمة « مكب » ، لتزيد الإضعاف قوة .

ولم تعدم (في) أن يكون لها استعمال مناظر لهذا الاستعمال في (على) ؛ فتأتى معاكسة للأصل الذي كررناه ، وذلك كما في قوله تعالى « ولقد كررنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ، فالظاهر كان أن يقال : على البر والبحر ، ولكن لما كانت الآية للنبوة ، وكان في الحمل مظنة هلاك كانت (في) أدل على ذلك من (على) ؛ لأنها أكثر أشعارا بإحاطة الخوف منها .

ومن تلك الدقة في الاستعمال أيضا مخالفته بين في واللام في المدخول عليه من مستحقي الزكاة الثمانية في قوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله ، فقد أدخل على الأربعة الأولى اللام ، وخالف غنص الأربعة الثانية بني ، كي يشعر بتلك المخالفة أن الاستحقاق في الأخيرين أقوى ، وأنهم بالزكاة أولى ، إذ هي معهم لنفع عام ؛ في حين هي مع الأولين لاتعدو النفع الخاص . وهنا دقيقة زائدة تلك أنه كرر (في) تذكيرا قرن بين الرقاب والغارمين ، كما قرن بين سبيل الله وابن السبيل زيادة في التوصية بهذين ، وجمعا بين النظائر .

ومنها أيضا استخدام (عن) بدلا من (في) حيث يقول : « الذين هم عن صلاتهم ساهون » ، رحمة بعباده ؛ وتسيلا ، إذ لا يخلو (مصل من سهو في صلاته) ولو عكس لما بقي لمصل صلاه ، ولحق عليه الويل المهديد به قبل الآية هؤلاء ؛ فالحيدة عن (في) إلى (عن) فصرت هذا العذاب على تارك الصلاة دون الساهين فيها ، ومن هنا نفهم الحكمة في قول ابن عباس رضي الله عنهما « الحمد لله الذي قال : « عن صلاتهم ساهون » ، ولم يقل : في صلاتهم .

ومنها وهي كثيرة قوله تعالى « فابعثوا أحدم بورقكم هذه إلى المدينة الميأتكم

يرزق منه وليتلف ولا يشعرون بكم أحدا ، فقد حول العطف من الفاء إلى الواو .
حيث انقطع الترتيب الذي من أجله جاءت الفاء .

(٢) في الأسماء

ومن دقته في استعمال الأسماء ، العدول عن الصيغ العادية إلى صيغ المبالغة
حيث يتطلب المعنى هذا العدول ، كقوله تعالى : « الحى القيوم » ، وقوله : « علام
الغيوب » ، وقوله : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » ، وهو كثير جداً وليس
في حاجة إلى بيان وجه العدول ، ولا إلى زيادة في الاستشهاد
ومنها التفرقة بين المترادفين وتخصيص كل واحد منهما بموضع دون نظيره ،
كاستعمال السبيل للخير ، والطريق للشر ، لاضافة الأول دون الثاني إلى الله ، مثال
الأول قوله تعالى : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصرية » ، ومثال الثاني قوله
تعالى : « إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً » ، ولذلك كان إذا استعمل الطريق في
الخير قرنه بما يفهم ذلك ، كقوله تعالى : « يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم »
« وإذا استعجل في الشر لم يك هذا إلا على سبيل التناظر » ، كقوله تعالى : « ولا تتبعوا
السبل فتفرق بكم عن سبيله » ، وهنا لطيفة - وإن لم تكن من مبحثنا بل من مبحث
الإفراد والتثنية والجمع وهو ذو مكانة في القرآن - هي إفراد السبيل مضافاً إليه
سبجائه ، وجمعه قبل ذلك إشعاراً بأن الحق واحد والباطل متعدد . ومن هذا النوع
أيضاً استخدام السنة للشدة والجذب ، والعام للرخاء والخصب ، قال تعالى : « ولقد
أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون » ، وقال : « ثم يأتي
من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » ، وذلك لما جرت عليه العرب
في استخدام السنة دون العام في الجذب ، وإن كانت استخدمتها في غير الجذب أيضاً .

(٣) في الأفعال

ومن دقته في استعمال الأفعال ، التفرقة بين الماضي والمضارع في بناء الجمل ؛ فمع
أن الجملة الفعلية للتجدد والحدوث ، فإنه يريد من ذلك في الماضي مطلق الحدوث ، وفي
المضارع تجديد الحصول ؛ انظر قوله تعالى على لسان إبراهيم : « الذي خلقني فهو يهدين » ،

والذي هو يطعمني ويسقيني ، وإذا مرضت فهو يشفيني ، كيف أتى في الخلق بالماضي .
 لأنه مفروغ منه ، ثم أتى فيما بعده من الهداية والاطعام والسق والشفاء بالمضارع .
 لأنه متكرر . وفي هذه الآية من نواحي البلاغة غير هذا ، استخدام ضمير
 الفصل مع الأفعال المسندة إلى الله إذا كانت مظنة اشتراك ؛ كما في يهديني ويطعمني ،
 ويشفيني ، وتركه إذا لم تك كذلك ، كما في (خلقني) ، وقد يقال : ولم أذن تركه مع
 (يشفيني) وهو مظنة اشتراك ؟ فنقول : إنه تركه معه اكتفاء به مع يطعمني ، لأن
 كليهما بمثابة فعل واحد هو يغذي ؛ وفيها غير هذين قيد الشفاء بحال المرض ، وترك
 مامعه من الأفعال لأنه لا يطلب إلا في تلك الحال وهي عادية تطلب في كل حال .
 ومنها كما في الأسماء التفرقة بين المترادفين ، كالخشية والخوف ؛ فقد خص
 الأول بالخوف ينشأ من عظمة المخوف ، وجعل الثاني له يأتي من ضعف الخائف ؛
 ولذلك يعبر عن الخوف من الله بالخشية ؛ قال سبحانه وهو شاهد للآتين :
 • يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب • وإذا استعمل الخوف مع الله مكان
 الخشية فلا بد أن تجد في التركيب ما يكمل هذا النقص كقوله : (من فوقهم) في
 الآية : • يخافون ربهم من فوقهم • . وكالحجى والأتیان ، حيث يكون الأول للذوات
 والثاني للأحداث قال تعالى : • ولمن جاء به حمل بعير • ، وقال : • أتى أمر الله • .
 • والمجد في المكروه والإمداد في المحبوب ، قال : • ونمد له من العذاب مداً • ، وقال :
 • وأمددناهم بفأكة • . وكالسقى لما لا كلفة فيه ، والاسقاء لما فيه كلفة ، قال تعالى :
 • وسقاهم ربهم شرابا طهورا • ، وقال : • وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم
 ماء غدقاً • . وكالعمل لما فيه امتداد ، والفعل لما فيه عجلة ، قال تعالى : • يعملون له
 ما يشاء • ، وقال : • كيف فعل ربك بعاد • . وكالتام لازالة نقص في الجوهر ،
 والتكال لازالته في العرض ، وقد اجتمعا في قوله تعالى : • اليوم أكملت لكم
 دينكم وأتممت عليكم نعمتي • . وكالاعطاء في المندوب ، والإيتاء في الواجب ؛ ولذا
 كان الأول مع الصدقة ، كما في قوله : • فأما من أعطى واتقى • . وكان الثاني مع
 الزكاة ، كما في قوله : • وآتوا الزكاة • ، وهكذا .

(٤) في التراكيب

لعل من أظهر ما يذكر عن الدقة في التراكيب بالقرآن الكريم ، مفاضلته بين الجمل من حيث الاسمية الموضوعية للثبوت والاستمرار ، والفعلية الموضوعية للتجدد والحدوث ، في الاستعمال ، فقد بلغ في ذلك أسى بيان . قال تعالى : . ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، فأتى في إسناد هؤلاء الناس وهم المنافقون للإيمان إلى أنفسهم بالفعلية ، وفي سلبه (سبحانه) له عنهم بالاسمية لأنهم كاذبون في قولهم ؛ وما كان ليجعلهم يعبرون عن إيمانهم بالاسمية إلا مكابرة ومجاراة إذا قرعوا بالسؤال ، كما في قوله : . وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، ولذلك رد عليهم سبحانه هذا الزعم بجملة اسمية مؤكدة أنها أقوى من مؤكدات جملتهم حيث يقول : . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ، . وعن هؤلاء المنافقين يقول جل شأنه : . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ؛ الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ، فيجعل قولهم للمؤمنين بالفعلية ؛ لأنه عن غير عقيدة ، ويجعله لشياطينهم بالاسمية الموكدة ؛ لأنه يقينهم واعتقادهم ، وكذلك يجعله في استهزائهم بالمؤمنين لأنه كذلك ، ثم لا يترك الآية حتى يستهزئ بهم بالاسمية كما استهزؤا ، ولكنه يأتي بها خلوا من التأكيد ، لأن كلامه (سبحانه) ليس محل شك وارتباب . وقال في هذا المعرض أيضا : . وإذا جاءكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ، فجعل إسنادهم للإيمان إلى أنفسهم بالفعلية وكذلك نسبة الكفر إليهم وهم داخلون ، لأن الأول عن غير حقيقة ، والثاني غير مشكوك فيه من المخاطبين أما خروجهم بالكفر فقد جعله بالاسمية ؛ إذ يجوز على المخاطبين أن يتوقعوا خروجهم مؤمنين . وقال عن إخوة يوسف : . قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ؟ أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ، فأتى بالاسمية فيما هو محل اتهام لهم من أيهم ، وبالفعلية فيما عداه .

على هذا جرى القرآن ؛ ولذلك كان إذا أراد الاختصاص حول الكلام إلى الاسمية ، كما في قوله تعالى : . وأنه هو أضحكك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا ، وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نقطة إذا تني ، وها هو ذا قد فعل في استخدام

ضمير الفصل ما لمعنا اليه آتفا ، من ذكره مع الفعل حين مظنة الاشتراك ، وتركه إذا زالت تلك المظنة ؛ على أنه قد يقال : وهل في الإيمانية والإحياء مظنة اشتراك حتى يترك الضمير ؟ فنقول : إن تلك المظنة تتحقق فيهما على سبيل المجاز ، بالقتل والعفو عن مستحقه ، بخلافها في الخلق والإيجاد .

وكان القرآن اذا استدعى المقام بلوغ الغاية ليست بعدها في قوة الجملة غاية ، يأتي بها اسمية غير فعلية المسند ، ولكن مع اشتماله على الحدث عن طريق الصفات ؛ انظر قوله تعالى : « أفرايتم ما تمنون ، أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ! » كيف أتى باسناد الخلق اليهم فعلا ، واليه سبحانه اسما في معنى الفعل ؛ وكذلك فعل في الآيات بعد ، سائفا من الحاجة على سبيل الموازنات ، ومعقبا كل موازنة منها بوجوه التفضيل ما يدحض الخصم ويفحم اللدود ؛ ولذلك ختمها بقوله : « فسبح باسم ربك العظيم » إشارة إلى أنه سبحانه لا يستحق التسيخ سواه .

ولفضل الجملة الاسمية على الفعلية قالوا في قوله تعالى : « هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين ، اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال سلام قوم منكرون » : إن سلام الخليل أو كد من سلام الملائكة ؛ لأنه مرفوع على الابتداء ، وسلامهم منصوب على تقدير الفعل . وليس معنى قولهم أننا لو رفعنا السلامين يكون الكلام أبلغ ، كلا ، فإن لكل سلام بحاله موطن من البلاغة ، إذ أن ابراهيم لما كان حيث هبط عليه الملائكة وجلا خائفا يقول (قوم منكرون) ، ناسب أن يستشعر الحدث في لحظة الخوف مطرحا الدوام جانبا ، وهذا استدعى الاتيان بالسلام منصوبا بالفعل ، لأنه أدل على الحدث من الاسم ، أمّا هم فلم يتصور ابراهيم أنهم خائقون ، أتى بسلامه مرفوعا على الابتداء ، للدلالة على أن السلام ثابت لهم ، وأنهم ليسوا في حاجة منه إلى تجديد ؛ هذا وفي الآية شيء زائد يحسن الإلمام به ، وهو أنها لما كان فيها تحية وردّها ، وكانت التحية مندوبة وردّها واجبا ، استنبط أن المصادر المرفوعة في القرآن للوجوب ، والمنصوبة للندب ؛ فمن الأول قوله تعالى : « الطلاق مرتان : فامسك بمعروف أو تسريح بإحسان » ومن الثاني قوله « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » . ولهذا اختلف في الوصية للزوجات ، أو اجبة هي أو مندوبة ؟ لأن قوله تعالى : « وصية لأزواجهم ، قرىء بالرفع والنصب

ثانياً - الانسجام

(١) انسجام اللفظ مع المعنى

كل ما تقدم في دقة الاستعمال ، صالح أن يكون أمثلة لانسجام اللفظ مع المعنى الخاص به ؛ ولكننا هنا نقصد انسجامه مع المعنى الكلي للسياق ، فترى التركيب كله سيكون جزلاً حيث يكون المعنى فخماً ، وتراه رقيقاً حيث يكون المعنى عذياً ، ولكل مواطن ؛ فمن مواطن الأول مقامات الأوامر والنواهي ، والتذكير بالميعاد ، وضرب المثالات بمن خالف وعصى للنعطات ؛ ومن مواطن الثاني مقامات الترغيب والتبشير والملاطفة والاستعطاف ؛ وأمثلة النوعين كثيرة في القرآن

قال تعالى في موطن الجزالة : « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون ؛ وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ، ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » وقال : « ويوم نُسِّرَ الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم تغادر منهم أحداً ، وعرضوا على ربك صفاً : لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ، بل زعمتم أن إن نجعل لكم موعداً . ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ! ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » . وقال في موطن الرقة : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ؛ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلاً من عفور رحيم ، وقال : « ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، إذ نادى ربه نداء خفياً ، قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ، ولم أكن بدعائك رب شقياً ، وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتى عاقراً فهب لي من لدنك ولياً ، يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً ، ومن السور التي تهول جزالة وفخامة سورتها العاديات والقارعة كما أن من السور التي تذوب رقة وعذوبة سورتها الضحى والشرح -

(٢) انسجام اللفظ مع اللفظ

لم يقف الانسجام من القرآن عند حد ائتلاف الألفاظ بالمعاني ، بل تعداه الى ائتلاف اللفظ باللفظ ؛ فكان يقرن الغريب بالغريب ، والمتداول بالمتداول ؛ رعاية للنسابة وحسن الجوار ؛ فمن أمثلة الأول قوله تعالى : « قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين » ، لأنه وقد أتى بالتاء القرية في القسم بالنظر إلى الباء والواو ، أتى بالفعل (تفتأ) وهو أغرب من (تزال) ، وأتى بكلمة (الحرض) وهي أغرب من العاجز ؛ ليتم الائتلاف اللفظي . ومن الثاني قوله تعالى : « ولا تركزوا إلى الذين ظللوا فتمسكم النار » ، فإنه لما كان الركون إلى الظالم فيه ميل دون مشاركة ، أتى بالمس الذي هو دون الاحراق ، وكلاهما من المتداول . ومعظم القرآن من هذا السهل المتداول الذي ما كان يخرج عليه جملة إلا اذا استدعى المعنى الكلي هذا الخروج ، كما كان لا يخرج عليه ببعض الألفاظ إلا إذا كان غرضه الايتان بلفظة بارزة تنزل من كلمات التركيب منزلة الواسطة من حبات العقد ، إبراز المعناها في تلك الصورة بعينها ، مثال ذلك : (حصحص) في قوله تعالى : « الآن حصحص الحق » ، و (كبكب) في قوله : « فكبكبا فيها هم والعاون » ، و (ضيزى) في قوله : « تلك اذن قسمة ضيزى » .

ومن انسجام اللفظ مع اللفظ في القرآن ، أن يأتي بالجل متلاصقة ذات تساوي في الزنة ، وصلة في المعاني ، مع الصلاحية للانفصال ، كقوله تعالى : « يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل ، ويخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي » ، وكقوله : « الذي خلقني فهو يهدين ، والذي هو يطعمني ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين » ، والذي يميتني ثم يحيين ، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين » ، وكذلك كان يأتي بالمفردات ، كقوله تعالى : « مسلمات مؤمنات قانتات ثابتات عابدات ساجدات ثبات وأبكارا » ، وكقوله : « التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله » .

(٣) موسيقية اللفظ

ولقد جاء القرآن الكريم لهذا الانسجام البالغ موسيقى الألفاظ ، حتى لنرى الحروف في الكلمات ، والكلمات في الجمل ، والجمل في الآيات ، يتحدر بعضها وراء

بعض حين النطق تحدر الماء المنهمر من الخزون إلى السهول ؛ ومن ثم سهل حفظه وترداده على الأحداث ؛ وإن من أنفع الأدلة على موسيقيته ، بحجى كثير من آياته على موازين الشعر مع أن الشعر غير مقصود فيه ؛ إنما جاء كذلك من قوة انسجامه وشدة تعاشعه ، كألحان الموسيقى لا تزال يوازن بعضها بعضا حتى تكون كلا منسجم الوقع حسن الرنين ؛ وبهذا تسنى لكثير من رجال العروض أن يودعوا ضوابط البحور أياتا من الشعر في كل بيت شطر من آى القرآن الكريم على تفاعيل البحر الذى من أجله سبق ، مختلفين فى اختيار الآيات لكثرتها فى القرآن .

فللطويل ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وللهديد ، تلك آيات الكتاب

الحكيم . . .

وللبسيط ، فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ، ، وللوافر ، إذا مروا بهم يتغامزون ، ، وللکامل ، إن الذين يبايعونك إنما ، وللهزج ، وقالوا حنبنا الله ، ، وللرجز ، اذهب إلى فرعون إنه طغى ، ، وللرمل ، ولقد راودته عن نفسه ، ، ولل السريع ، يأيها الناس اتقوا ربكم ، ، وللنسر ح هو الذى أنزل السكينة فى ، ، وللخفيف ، ربنا صرف عنا عذاب جهنم ، ، وللضارع ، ألم يأتكم نذير ، ، وللمقتضب ، كلما أضاء لهم ، ، وللجث ، وهو العلى العظيم ، ، وللمتقارب ، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء ، ، وللمتدارك ، إنا أعطيناك الكوثر ، ، وللمخلع البسيط ، وقودها الناس والحجاره ،

ولم يك اقتصار هؤلاء على الأَشْطَار ناشئا عن عدم وجود البيت كاملا فى القرآن ، بل لأن حاجتهم فى الضبط تقضى بحجى العجز وحده ، لأنهم يودعون الصدر تفاعيل البيت ، ولو أرادوا لفعّلوا ، فمن الآيات الموازنة لأوزان البحور قوله تعالى على وزن الوافر : ، ويخزّم وينصر كم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، وقوله على وزن الرمل ، وجفان كالجواب وقدر راسيات ، وهكذا وجماع القول أنه قد اجتمع لآى القرآن الكريم من المزايا فى المعانى والألفاظ ما علا به سائر الكلام علوا استأثر فيه بمعجزة الإعجاز ؟

السباعى يرمى

أثر الجوارى في الأدب^(١)

بقلم عبد اللطيف المغربي

المدرس بمعهد التربية للبنات

٢

ترامى بنا القول في مقالنا الذهاب، إلى الغاية السامية التي بلغتها الجوارى بالنهضة الغنائية في أزهى عصور الاسلام . ونريد اليوم أن نطلع على قراء هذه الصحيفة الكرام من مطلع آخر، وضاء الأنوار، مختلف الثمار، بهيج الألوان، عذب المنهل، عبق الأريج، رقرق الأنداء، متجاوب الأصداء؛ ذلك هو أثر الجوارى في الأدب العربي.

ولم يكن بدعا أن يكون لمن حميد الأثر في الأدب، كما كان لمن حميده في الغناء؛ فالأدب والغناء غصنا دوحه فتيه، وكلاهما متمم للآخر مقوم له . ومتى رأيت نهضة غنائية، فالتبس أن يكون من أمتن دعائمها وأغزر مواردها؛ وأصدق طيوفها وأقوى أرواحها (الأدب) . سنن متبع، وعرف مألوف، وثمره طبعية . ومن حاول فصل الغناء عن الأدب فهو كمن يحاول أن يحول بين الزهرة وشذاها، أو النفس ومناها . فالمغنى في إيقاعه ونظم ألقانه، شاعر في أفق الأدب العالي، حر القافية والروى، ينظم ما أراد من شجون النفس وأهوائها وخليجاتها وأمانتها، في نسق من الألحان كأسلوب البيان، بعيد التأثير، شديد الأسر، روحى المدخل، سحرى المأخذ، يفوق أسلوب الشعر المقفى الموزون روعة وانسجاماً، ويفرعه حسناً وسجراً . ولهذا قالوا إن الموسيقى ضرب من التأثير لم تقو الطبيعة على استخراجه بالبيان، فاستخرجته بالألحان .

(١) راجع المقال الأول في العدد الثاني من السنة الثانية لصحيفة دار العلوم

فالموسيقى أروع من الشعر ، والمعنى في لحنه أشجى من الشاعر في شعره .
وحسبك بياناً لهذا أن الشعر يظل خامداً حائراً لا يجد سبيله إلى الآذان
والقلوب ، حتى ترفعه الموسيقى على أجنحتها الرقيقة ، وترقصه بايقاعها الحسن
المطرب ؛ فإذا هو إلى كل أذن مقرب ، وإلى كل قلب محب

وقد يكون المعنى شاعراً بالمعنى الاصطلاحي ، يقرض الشعر ، لما بين الفين من
نسب وارتباط ؛ ولهذا صار كثير من المغنين والقيان شعراء وشواعر ، ولا
غرو أن يحكم رجل الفن البار به كل الصلات التي تلاممه وتغذيه وتسمو به في
عالم الابداع والاجادة . وأحقها بالتقدمة (الشعر) قرصاً ورواية . ونحن إذا
عمدنا لأثر الجوارى في الأدب لم نكن نعني به قرضهن الشعر فحسب كأول
بادرة تعلق بالذهن من هذا العنوان ، بل نرمي إلى نواح عدة كانت النفس جياشة
بالرغبة في كل منها بمقال خاص . ولكننا آثرنا أن نصرب حولها نطقاً من
الاختصار . ونسوقها قرية المنال سهلة الإبراد ، لتكون بالفائدة أمجل ، وإلى النفس
أحب .

كان من أثر الجوارى في الأدب ، قرضهن الشعر في أغراضه المختلفة ، من مدح ،
وهجاء ، ورتاء ، وغزل ، وعتاب ، ووصف . لأن إعدادهن لتلك الحياة العربية
الرائعة الفخمة ، به في كثير منهن ملكة قرض الشعر ، لحسن استعدادهن الفطري ،
وكثرة ما روين من الأشعار الكثيرة في الأغراض المختلفة .

فظهرت منهن شواعر نوابغ نذكر لك شيئاً من ثمار قرائنهن
هذه فضل الشاعرة لما دخلت على المتوكل قال لها : أشاعرة أنت ؟ قالت : كذا
زعم الذي باعني واشتراني . فضحك . وقال : أنشدينا شيئاً من شعرك . فقالت :

استقبل الملك إمام الهدى عام ثلاث وثلاثين
خلافة أفضت إلى جعفر وهو ابن سبع بعد عشرين
إنا لنرجو يا إمام الهدى أن تملك الناس ثمانين

لا قدس الله أمراً لم يقل عند دعائي لك : آمينا
وهو شعر فاتر لم يبلغ حد الجودة ، ويشبه في بعض نواحيه شعر المتون .
واستحسان المتوكل له لم يكن ثمرة جودة ، بل لأنه قيل في مدحه وأراد
تشجيعها .

وهذه محبوبة جارية المتوكل الآمنة الوفية ، تصدف عن زهرة الدنيا بعد
قتله وتقيم على الحداد ، وفاء لسيدها وزهدا في الدنيا بعده . وتتشد في رثائه حين
أكرهت على الغناء في مجلس أعدائه قولها :

أى عيش يطيب لى لا أرى فيه جعفرا
كل من كان ذا هيا (م) م وحزن فقد برا
غير محبوبة التى لوترى الموت يشتري
لاشترته بملكها كل هذا لتقبرا
إن موت الكتيب أص (م) ملح من أن يعمرأ

وترى في هذا الشعر لوناً صادقا من العاطفة والنبيل يرفعه عن سابقه بعض
الشيء . ونكتني بهذا القدر من أنواع الشعر العامة ، فان في استيفائها حرجا .
ومن تأثيرهن في الأدب ، ذلك النوع الحسن من المحاورات والاجازات
الشعرية ، مما تدفع إليه الحاجة الطارئة ، والضرورة الحافزة . وفي الحق أن هذا باب
جليل من أبواب الأدب ، برزت فيه الجوارى وفقن فيه أحيانا كثيرا من صنديد
الشعر ورجالاته .

وإننا لمسمعوك شيئا من هذا القليل يثير إعجابك وطربك .

كان محمد بن عيسى الجعفرى يهوى جارية ، فقال لصديق له : لقد شغلتنى هذه
عن صنعى وكل أمرى ، وقد وجدت مس السلوان على كبدى ، فاذهب بنا حتى
أكشفها بذلك فاستريح . فلما جاءها قال لها محمد بن عيسى : أتغنين ؟
وكنتم أحبك فسلوت عنكم عليكم في دياركم السلام
فقال : لا ، ولكنى أغنى :

تحمل أهلها عنها فبانوا على آثار من ذهب العقاب
فاستحيا وأطرق ساعة ثم قال : أتغنين ؟

وأخضع بالعقبى إذا كنت مذنباً وإن أذنبت كنت الذى أتصل
قالت : نعم ، وأغنى أحسن منه :

فإن تقبلوا بالود نقبل بمثله وننزلكم منا بأقرب منزل
فقطاعاً فى بيتين ، وتواصلان فى بيتين . وهى محاورة بديعة إلى أبعد غاية ، تريك
حسن التمثل بالشعر ووضعها فى مناسباته الطريفة ، على حين أنها وليدة الفجاءة
والبدية ، وتشير من ناحية أخرى إلى ما كان عليه هؤلاء الجوارى من مقدرة
فائقة . وبعد هذه تلو عليك صورة من صور الإجازات الشعرية وهى كثيرة .
قال بكر بن حماد الباهلى : لما انتهى إلى خبر عنان ، جارية الناطق ، وأنها
ذكرت لهرون الرشيد ، وأنها أشعر الناس ؛ خرجت معترضا لها . فما راغى إلا
الناطق مولاها . فقال لى . هل لك فيما سنح من طعام وشراب ، وبجالة عنان ؟
فقلت ما بعد عنان مطلب . ومضينا حتى أتينا منزله . ثم دخل فقال : هذا بكر
شاعر باهلة يريد مجالستك اليوم . فقلت لا ، والله إنى لكسلاته . فحمل عليها
السوط وقال لى ادخل . ودمعها يتحدر كالجمان . فقلت أجزى

هذى عنان أسبلت دمعها كالدر إذ ينسل من خيطه
فقلت :

فليت من يضربها ظلماً تجف كفاه على سوطه
ثم أنشدتها :

فما زال يشكو الحب حتى حسبته تنفس فى أحشائه فتكلم
فقلت :

ويكى فأبكى رحمة لبيكاته إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما
فقلت لها : فما عندك فى إجازة هذا البيت ؟
بديع حسن بديع صد جعلت خدى له ملاذاً

فأطرقت ساعة ثم قالت :

فعاتبه فغفوه فأوعده فكان ماذا ؟

وأنت إذا قدرت الزمن الذى قلت فيه هذه الإجازة ، أصبحت فى غنى عن التعليق عليها والاعجاب بقدرة (عنان) والثناء عليها فى موقف كهذا قد يعجز أنبع الشعراء .

ومن تأثير الجوارى فى الأدب أيضا أنهم أصبح منبعا خصباً للروايات الموضوعية التى تموج بها كتب الأدب ، وتشعرك لأول وهلة بكذبها واتحاليها ؛ ونسوق إليك صورة من هذه الروايات توضح ما نقول :

قالوا إن الهادى كان له جارية تسمى « غدير » وقعت من نفسه موقعا حسنا وكان يخشى أن تصير إلى أخيه هرون من بعده . فأخذ عليها أغلظ الأيمان ألا تكون له ، فلما مات الهادى صارت إلى هرون ، ونالت عنده مكانة حسنة . وفى بعض الليالى رأت وهى نائمة الهادى . فقامت مذعورة وجلة ؛ فقال لها هرون : ما بالك ؟ قالت رأيت الهادى الآن ينشدنى :

أخلفت عهدى بعدما جاورت سكان المقابر
وصحبت غادرة أخى صدق الذى سماك غادر
لا يهنك إلا لف الجدي ولا تدركك الدوائر
ولحقني قبل الصبا حوصرت حيث غدوت صائر

ثم ولى غنى . فقال لها هرون : هذه أحلام الشيطان . قالت : كلا والله يا أمير المؤمنين . ثم اضطربت بين يديه وماتت لساعتها ! ونحن بلا ريب نحكم بزيغ هذه الرواية واتحاليها ؛ إذ ليس من المعقول أن يورد الميت عتابه فى صورة شعرية وهو فى عالم آخر بعيد عن الزخرف والصناعة ، وأن يحفظ الحى النائم هذا الشعر وهو أكثر مما ذكرت ، ويؤديه على هذه الصورة لا يخرم منه حرفا ؛ على حين أننا نرى فى المنام صورة معنوية ، وإذا استيقظنا لا يمكننا فى كثير من الأحيان ربط أجزائها ولا الإلمام بكنهها . وقد أرادوا بعد ذلك أن يثموا القصة ويربطوا نتيجتها بما تضمنه الشعر ؛ فذكروا أنها اضطربت وقضت لساعتها بين

يدى هرون! والوضع في الرواية حول الجوارى أفاد الأدب بلا مراء ثروة ضخمة.

ولكن أغبط ما يؤلمنا من هذه الروايات، تلك الصور الملحة في الإسفاف والتي طوقوا بها سير كثير من خلفاء الاسلام، فصوروهم في مواقف يغضب لها الأئمة العيوف إذا نسبت إلى رجل من أوساط الناس؛ فكيف بها إذا نسبت إلى خلفاء الاسلام؟ وإن من يقرأ ما يرويه كتاب الأغاني من هذه الروايات الذميمة المنسوبة إلى هرون الرشيد، ذلك الامام الذي كان أحفظ الناس لثراث آباءه وأجداده، من الشمم والآباء وبعد الهمة والترفع عن الدنيا لدهش؛ فجزى الله أمثال هؤلاء الوضاعين بما صنعوا ما يستحقون من جزاء.

ومن تأثيرهن في الأدب أيضا إثارة ميول الشعراء نحوهن، حتى أقبلوا عليهن بأشعارهم المختلفة، من غزل وعتاب واستعطاف وغيرها. ومن الشعراء الذين لهم صيت ذائع في هذا الباب، الأحوص في العصر الاسلامي، وأبو العتاهية، وأبو نواس، والعباس بن الأحنف في العصر العباسي، وغير هؤلاء كثير يضيق المقام عن سرد أسمائهم. ولا ريب أن هؤلاء الشعراء أهدوا إلى الأدب العربي بتأثير عاطفة الميل إلى الجوارى كثيرا من الثمار الأدبية التي يزهى بها الأدب ويفخر؛ وتجسد صوراً صادقة لمواقف هؤلاء الشعراء في كتاب الأغاني وبعض كتب الأدب، فلا داعي إلى إيراد شيء منها.

ومن ألوان تأثيرهن في الأدب نشر الفكاهة والمجون في الجوارى، وأخذهن بطرق خاصة في الملابس والعادات، وكتابتهن على الأقصة والأكام والقلائس والعصائب ومشاد الطرر والذوائب والمناويل - ما يؤثر من الأشعار العذبة الرقيقة المثيرة للاحساس والشعور.

ونذكر لك شيئا من عفيف ما كان يكتب:

كتبت جارية على رداء لها

أراهم يأمرؤن بقطع وصلى مريم في أحبتهم بذاك
فأن هم طاوعوك فطاوعهم وإن عاصوك فاعصى من عصاك

وكتبت نشوان جارية زلزل على عصابتها
عين مسهدة في مائها غرقت ياليتها ذهبت لولم تكن خلقت
لم تذهب النفس إلا عند لحظتها ولا يكت بدم إلا لما أرق
وكتبت جارية على منديل

أنا مبعوث إليك أنيس مولاتي لديك
صنعتني يديها فامسح بي شفيتك

إلى آخر ذلك مما يطول بنا استقراؤه، ويشير الشعور والوجدان، وينمى
الذوق، ويصور كثيرا من الملح والفكاهات المستعذبة.

وبعد أن أوردنا ما سبق نرجو أن نكون قد وفقنا إلى جمع شتات هذا
الموضوع، وقدمناه باقة حسناء منتظمة الأواهير إلى قراء هذه الصحيفة الكرام.
بعد طول الجهد والعناء في ضم الأشياء إلى الأشياء، والنظائر إلى النظائر؛ فجاء
هذا البحث ذا وحدة مؤلفة الأجزاء؛ وقد كانت عناصره من قبل متشورة في
كتب الأدب على غير نظام، وعلنا بذلك أيضا نكون قد رفعنا ستار النسيان عن
جهة مهمة من جهات الأدب القوي الخصب، لم تعورها أقلام الكتاب باستيفاء
واستقصاء؛ فأخرجناها للناس باسمه وضاءه.

عبد اللطيف المغربي

الأدب ... ما هو؟

بقلم أحمدر السائب

المدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية

١

قد يكون من الغريب ، بعد هذا التاريخ الأدبي الطويل ، وفي هذه النهضة الأدبية الحديثة ، أن نعرض للتعريف بالأدب أو نحتاج إلى تحديده من جديد بعد ما قال فيه السابقون ما قالوا ، وناقش حوله المعاصرون منذ عهد قريب . حقا قد يبدو ذلك غريبا أول الأمر ، ويحمل الناس على التبرم بالباحثين ، فيسألون أنفسهم : ما ذا يعنينا من هذه التعاريف ما دمنا نقرأ النظم والنثر ، ونظفر منهما بهذه اللذة العقلية والشعورية ؟ أليست هذه الحدود أنواعا من عبث العلماء أولا ، ومن تعقيبهم الأدباء ثانياً تعقبا يبدل على فراغ وفضول ؟

أجل ، لست أنكر أن الأدب هو الشعر والنثر ، ولست أنكر أن أكثر الناس يكتفون بهذا القدر من تعريف الأدب وتصوره ، ولكن هذا نفسه هو الذي يدعوني إلى القول في تحديد الأدب وبيان طبيعته وما يفرقه من العلم ويصله بالفن ، وبالفن الرفيع خاصة ، فلقد انقضت فيما أعلم هذه الفترة التي كان الناس يكتفون فيها بالثقافة العامة ، ويقنعون بتصور الأشياء تصورا إجماليا ، وولدت عندهم الحاجة إلى الرقي ميلا إلى التعمق في فهم الأمور وبحسبها ليصلوا إلى تعرف طبيعتها وخواصها ، وما عسى أن يصلها بالحياة الاجتماعية مؤثرة أو متأثرة .

هذا شيء ، وشيء آخر يحتملني على هذا التحديد الأدبي أو محاولته ، ذلك أن كلا من الأدباء المنشئين والنقاد كثيرا ما يختلفون حول نص من النصوص :

أهو أدب حقا؟ وفي أى نوع من الأنواع أو درجة من درجات الأدب يمكننا أن نضعه؟ وأخيرا ما المقاييس النقدية التى تحكم فى نقد هذا النص وبيان قيمته؟... وأمر ثالث يحملنا على تقريب هذه الصورة الأدبية إلى الأذهان، فلو سألت شخصا عن تعريف الأدب، وأجابه بأنه ماثور الشعر والنثر، ثم سألته: لم أثر هذا الشعر وذاك النثر... اضطرب، وأتى بكلام عام، غير محدود، وغير خاضع لنظام على مفهوم... وعلى أية حال فاقى أشعر بحاجة هؤلاء الناشئين من الأدباء والنقاد إلى إيضاح طبيعة الأدب وعناصره، وسأحاول فى هذا البحث أن أقرب إلى الأذهان ماذا يراد بكلمة (أدب)، معتمدا فى ذلك على أهم ما قاله السابقون والمحدثون، ثم على تحليل النص الأدبى وتفهم روحه وخواصه، غير أنى أرجو من القراء أن يصبروا على قليلا إذا شعروا بالاطالة، فلعل الموضوع نفسه يستحق منهم صبرا طويلا.

— ١ —

ما الأدب؟

(١) سأترك الكلام فى اشتقاق الكلمة وأصلها الأول، وأتناولها من قريب؛ فقد كانت تدل فى القرن الهجرى الأول على معنيين اثنين: أحدهما خلقى، والثانى تعليمى. ويستدل المؤرخون على هذا المعنى الخلقى بالآثر المشهور: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى»، إذ المراد أنه نشأ نشأة فاضلة تقوم على الصدق، والحلم، والصبر وغيرها من الفضائل الخلقية؛ ومن ذلك ما سمي ابن المقفع كتابه «الأدب الصغير»، و«الأدب الكبير»، لاشتمالها على هذه الأصول والنظريات التى يصبح من تمسك بها أدبيا، أى فاضلا ذا خلق كريم.

ولكن هذا المعنى الخلقى لا يلائم تماما المعنى الذى نريد من كلمة أدب، حين نطلقها فى باب الفن أو النقد، بل ربما كان يناقضه، فليس من شك بين المتأدين أن أهاجى جرير والفرزدق أدب، وأن خربيات وغزليات أبى نواس أدب، وأن ذلك النوع المكشوف من الآثار الغزلية أدب... ولكنه مع ذلك مرفوض.

فى باب الأخلاق الفاضلة لا ينطوى تحت المعنى الخلقى الذى أشرنا إليه ، فلنترك ذلك ، إذا ، ولنبحث فى غيره .

(٢) وأما المعنى الثانى فقد مرت عليه أطوار شتى فى تاريخ الآداب العربى انتهت به إلى هذا التعريف الذى ذكره العلامة ابن خلدون فى مقدمته ، حيث قال فى خصل تحت عنوان علم (الآداب) مانصه : « ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا : الآداب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل فن بطرف .. »

ومن الواضح أن هذا ليس تعريفاً للآداب بمعنى هذه النصوص التى ندرسها وننشئها شعراً ونثراً ، وإنما هو فى الواقع تعريف لما يسمى التآدب أو تحصيل الثقافة العامة اللازمة لإنشاء الآداب ، ولفهمه ، ونقده ، وأما الآداب بمعناه المراد هنا فليس تعريف ابن خلدون منه فى شيء ، وإن كان يتشبه به بعض المحدثين .

(٣) ويقول اميرس Emerson الكاتب الأمريكى المعروف : « الآداب سجل لخير الأفكار ، وهذا التعريف أو الوصف جامع غير مانع كما يقول المناطقة ، فإنه يتناول الآداب وغيره ، أليست المسائل العلمية ، من هندسة وكيمياء ، معدودة من خير الأفكار ؟ ومع ذلك فلم يقل أحد إن الهندسة أو الكيمياء أدب ، على أن هذا التعريف لم يشر إلى هذا العنصر اللفظى ، وكيف يجب أن يكون ... فلنترك ذلك أيضاً .

(٤) ويقول بروك Brooke : « الآداب هو أفكار الأذكاء وعواطفهم مدونة بأسلوب يلذ القارىء » ، وهذا التعريف خير من سابقه ، لأنه أشار إلى جمال الأسلوب الأدبى ، ولكنه لا يزال مبهماً ؛ فهل يقبل الآداب جميع الأفكار والعواطف ، حتى الأفكار الهندسية والطبية ، وحتى العواطف الشخصية ، والآلية ، والوضعية ؟ أما الأفكار العلمية فلن تتراءى فى الآداب وتحتل مكاناً ما وإن كانت تمسه من بعيد . وأما العواطف التى أشرنا إليها فهى موضع كلام كثير ، على أنها ليست من موضوع الآداب الرفيع على كل حال .

(٥) وهناك إجابة للاستاذ Sainte - Blave الكاتب والناقد الفرنسى المشهور عن سؤال يتصل بسؤالنا اتصالاً مباشراً : « ما الآديب ؟ » قال : « الآديب (٣ - صحيفة دار العلوم)

هو الكاتب الذى يغنى العقل الانسانى، ويزيد ثروته، ويعينه على التقدم، وهو الذى يستكشف الحقائق الادبية، ويزيل ما حولها من الشك والغموض، ويتقد إلى أعماق قلب الانسان فيستخرج منه العواطف الخالدة في حين يظن الناس أن ليس هناك ما يكشف في هذه المنطقة. وهو الذى يبرز أفكاره وحقائقه في صورة دقيقة صحيحة جميلة معقولة، وهو الذى يخاطب الناس بأسلوب هو أسلوبه الخاص ولكنه أسلوب جميع القراء، أسلوب قديم وحديث معا، صالح لكل زمان ومكان.

وإن نحن أردنا استخلاص تعريف للأدب من كلام الأستاذ سانت ييف هذا، كان التعريف: «الأدب هو الأسلوب الصحيح الجميل الذى يصور الحقائق الادبية، والعواطف الانسانية». وعندي أن هذا التعريف يعد مناسباً وإن كان أقرب إلى تمثيل الأدب في أسمى درجاته حتى ليعده بعض النقاد مانعاً غير جامع. وهناك كلام كثير لعلماء العرب ونقاد الغرب في هذا الموضوع: لا يعدو أن يكون وصفاً للأدب لا يمكن الاعتماد عليه في بحثنا كثيراً. إلا أننا نشعر أن ما أورده من مقتبسا من آثار الكتاب يكفى لإثبات حقيقة علمية هي صعوبة تعريف الأشياء في دقة وكمال، لاختلاف الناس في تصورها. وفيما يطلبون منها تحقيقه، متصلاً بأعمالهم ومذاهبهم العلمية والفنية. على أننا مع ذلك رأينا تعريفين للأدب يقف عندهما المحدثون من النقاد: أحدهما أن الأدب ماثور الشعر والنثر، والثاني هو ما استخلصناه من كلام الأستاذ سانت ييف السابق الذكر.

— ٢ —

ولكنى لن أقف بالقارىء عند هذه الحدود التى انتهى إليها السابقون والمعاصرون من أبحاثهم الخاصة، وصارت بذلك ملكاً لهم، وهم أقدر على فهمها وتصورها إذ كانت بذلك نتيجة تجاربهم ودراساتهم؛ بل لا يعنينى في الواقع ذكر هذه الرموز اللفظية التى تكون ما يسمى بالتعاريف، بقدر ما يعنينى فهم طبيعة الأدب، وأسلوب تكوينه، وصلته بالنفس الانسانية... فتنى يسمى النص أدباً؟ لا يمكننا أن نعد المحادثة ولا الأخبار العادية أو الصحافة أدباً.

وسبب ذلك أننا نقرأ وهامم تنصرف عنها ولا نعود إليها ثانياً ، إذ أن النص الأدبي يمتاز بتردد الناس على قراءته واعتباره متعة نفسية يحرض القارئ على الرجوع إليها كثيراً لتغذي فكره وشعوره ، ومعنى ذلك أن الأدب يمتاز بصفة الخلود . ولكن المسألة لا تزال في حاجة إلى الإيضاح ، أليست كتب الهندسة والجبر والفلسفة تحتوى حقائق خالدة لا تبليها الأيام ؟ أليس يجد الانسان فيها دائماً مادة يستعين بها في شتونه الحيوية كلما أراد ؟ هذا حق لا شك فيه . . . ومع ذلك فلم يقل أحد إن كتب الهندسة والجبر من الأدب في شيء . . . فكيف الخلاص ؟

حقاً إن هذه الكتب تحوى حقائق خالدة ، ولكن الكتب نفسها ليست خالدة بهذا المعنى السابق الذى وصفنا به الأدب ، فمن الممكن أن تؤخذ هذه النظريات والمسائل العلمية الخالصة وتدوّن في صور أخرى وأساليب عدة ينصرف إليها الناس مستغنين بها عن الكتب الأولى التى كثيراً ما تبلى وتنسى ، وهنا نرى أن الحقائق في ذاتها خالدة ولكن الكتب تموت ، فمن منا اليوم يقرأ (إقليدس) في الهندسة مثلاً ليمتع نفسه أو حتى ليدرس النظريات الهندسية دراسة علمية ؟ ولكن كم منا اليوم من لا يزال ، وسيبقى دائماً ، يقرأ أمراً القيس ، وزهيرا ، وجريرا وأبا نواس ، والمتنبى والمعري ؟ والمتعلمون عامة يظفرون بكتب في الجغرافيا والتاريخ والهندسة والطبيعة تنسخ ما قبلها من الكتب وتقضى عليها ما دامت الموضوعات واحدة والحقائق هي بعينها . وإذا ، فليس من الكتب الأدبية ذلك النوع المعرض للنسيان والنسخ بعد حين . والذى نفهمه من ذلك أن هناك ميزة أخرى تكسب ديوان الشعر ، أو القصيدة ، أو الرسالة أو الكتاب صفة الخلود التى نتحدث بها . . . تلك أن يكون الكتاب نفسه ذا قيمة خالدة ، فهناك فرق بين الحقيقة الخالدة التى هي موضوع الكتاب العلمى ، وبين القيمة الخالدة التى هي خاصة الكتب الأدبية .

ما هذه القيمة الخالدة التى تتصل بالكتاب الأدبي وتمنحه ميزة الخلود ؟ يقولون إنها شخصية الأديب ، فالنص الأدبي يمتاز بأنه يصور ذوق الشاعر

أو الكاتب، ومزاجه، وفكره، وروحه، وخلقه، وخواصه المعنوية التي تفرقه من سواه، ولا يمكن أن تجتمع في شخص آخر هذه النسب والقوى؛ وبذلك نرى لكل أديب طابعاً يمتاز به آثاره ولا يمكن الاستغناء بشعر شاعر عن شعر زميله حتى في الموضوع الواحد رثاء أو وصفاً أو عتاباً فكل له ذوقه، وأسلوبه، وطعمه الذي يبعث في نفس القارئ آثاراً يمتازة لا غنى له عنها بسواها.

هذه الشخصية إذا (Personality) هي التي تفرق الأدب من العلم وتكسبه صفة الخلود، ولكننا نعود فنقول: ألسنا نظفر في الآثار العلمية بشخصيات متباينة، حين نقرأ كتب الفلسفة والقانون والطبيعة والكيمياء، تميز بطريقتي التفكير، والتعبير، وأسلوب البرهنة والاثبات؟ لا نذكر ذلك ولكننا نجد الشخصية الأدبية تمتاز بأمرين لا يتوافران في هذه الشخصية العلمية، أما أحدهما فهو جمال التعبير الأدبي ولذته، وأما الثاني فهو أن الشخصية الأدبية تكون قوية واضحة، وتكون عامة تصور نواحي النفس التي أشرنا إلى بعضها قبلاً، في حين أن الشخصية العلمية تقف عند الفكر، ودقته، وأسلوبه المنطقي في أغلب الأحيان. ونتيجة ذلك أن الأدب أدل على شخصية كاتبه من العلم...

كيف تكون القصيدة من الشعر أدل على الشاعر من المقالة العلمية على العالم؟ إذا استطعنا الإجابة عن هذا السؤال ظفرنا بهذا العنصر الذي يكسب الأدب ميزته الخالدة ويميزه من سواه... وذلك سهل يسير، فإذا وازنا بين هذه المقالة العلمية التي لا تحسبها أدباً، وبين القصيدة من الشعر ذات القيمة الخالدة، وجدنا في القصيدة شيئاً لا نجد في المقالة العلمية، هو العاطفة Emotion، فالقصيدة تقوم على العاطفة والمقالة تقوم على العقل، وهنا نظفر بهذا السر الذي نبحت عنه منذ حين، فهو الخاصة التي تنشأ عن العاطفة وتكسب الكلام ميزته الأدبية، وقدرته على الخلود وتضعه في مكان بعيد عن العلم، وإذا بنا نرى كتباً علمية تغذي العقل وتسرعه وتضعه في مكان بعيد عن العلم، وإذا بنا نرى كتباً أدبية لم تنته عند هذه النقطة؛ فلا زلنا في حاجة إلى أن نسأل: لماذا كانت هذه العاطفة سبب خلود الأدب؟ وهنا نجدنا أمام إجابة من نوع التناقض الوهمي، فمن الغريب أن

العاطفة تخلد الآدب لأنها هي ذاتها ليست خالدة، وإنما تزول بسرعة ولا تبقى طويلا، فأنا أقرأ البحث العلمى فى الهندسة والمناطق وأعياه بعقلى وأترك مصادره وقلبا أعود إليه بعد ما أُنْصِفَتْ إلى معارفى السابقة واتحد معها وصار جزءا من فكرى لا يكاد يزول، ولكنى أقرأ - مثلا - مرثية المعرى المشهورة :-

غير مجدٍ فى مِيتى واعتقادى نوح بكٍ ولا ترثم شادٍ
فتشير فى نفسى عاطفة الأسى والحزن على هذا الكون تحطمه الأقدار وتذهب
بكائناته إلى غير عودة، وهذه العاطفة تشتد وتقوى حين قراءة القصيدة وعقبها،
ثم تأخذ فى القصور فالذهاب حتى تزول بعد مدة ما، ثم تدعونى الدواعى الفنية
أو الحوادث الاجتماعية إلى إثارة هذه العاطفة فى نفسى لوفاة صديق فأعود إلى
مرثية المعرى ذاتها فأقرأها لأظفر بهذه اللذة النفسية عنها، ثم تحبب العاطفة فأعود
إلى ميعتها عند أبى العلاء فى نفس هذه القصيدة، وهكذا دواليك... وهذا هو
معنى أن زوال العاطفة سبب فى خلود الآدب وتردد الإنسان على قراءته مرة بعد
أخرى. ويجب أن يلاحظ أننى لا أستغنى عن مرثية المعرى بمرثية البحرى أو
المتنبى أو أبى تمام أو ابن الرومى فكل له طعمه الخاص، ومذهبه الأدبى، وذوقه،
أو بعبارة مختصرة: كل له شخصيته الأدبية التى لأجدها عند الآخر، وفوق
ذلك فقد لا أستغنى عن المعرى بالمعرى نفسه إذا ما كانت له فى كل مرثية خواص
فنية وأسلوب ممتاز، وذلك كثير الحدوث.

أف يكون من الغريب بعد ذلك أن نعد العاطفة أهم العناصر الأدبية ما دامت
تميز الآدب من العلم أولا، وتبعث فيه روح الخلد ثانيا. وتدل على شخصية الأديب
ثالثا؟.

أو يكون من الغريب أن نعرف الآدب بأنه الكلام الجميل الذى يدل على
شخصية صاحبه، أو الكلام الجميل القائم على تصوير العاطفة، أو الكلام الذى
يمتاز بهذه القيمة الخالدة؟

- ٣ -

وبعد فليس من سداد الرأى فى شىء أن نبالغ فى قيمة العاطفة ونهمل الحقيقة (Fact) وقيمتها الأدبية ، فالمفروض أن العاطفة هى العنصر أو الركن الأدبى الأول ، ولكنها لا تستطيع الحياة دون أن تتركز على حقيقة من الحقائق الفلسفية أو الاجتماعية التى تعد الهيكل العظمى للأدب وسنده المتين ، وإلا فما الذى يحملنا على السخط حين نقرأ للمعرى قوله :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهةً وحقّ لسكان البسيطة أن يبكوا
تخطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك
غير هذه الحقيقة الواقعة وهى أننا الأعيب فى يد الأيام تعبت بنا ما شاءت
وتفقدنا الحياة فلا نعود إليها ثانياً ؟

فالعاطفة السخط أو الحسرة على الخلق ، إنما قويت وحيّت لما ساعدتها حقيقة حيوية لا شك فيها ، فكانت الأصل الذى كسته العاطفة ثوباً سخاها متبرماً بدا لنا فى أسلوب موسيقى جميل ، فأثار فى نفوسنا سخطاً يشبه ما فى نفس أبى العلاء ؛ وهكذا تعاون الحقائق على خدمة الأدب والفن حتى لا يكون أحدهما فارغاً سخيفاً . وهنا نجد فارقاً بين الأدب وبين فن آخر يتصل به اتصالاً قوياً هو الموسيقى ، فالموسيقى الخالصة تتجه إلى العواطف مباشرة بهذه الألحان والأنغام فتثيرها ، ولكن الأدب يتجه إلى عواطفنا عن طريق العقل ، فيشبه النقش والتصوير والرسم من حيث أنها تجمع بين المعانى فى الحقيقة ، والخواص الفنية المؤثرة الجميلة ، وسأترك ذلك على أن أعود إليه فى بحث خاص حين أدرس الأدب وصلته بسائر الفنون الرفيعة ، وإنما أشرت هنا إلى ذلك ، لأصل منه إلى عنصر أدبى ثالث غير العاطفة والحقيقة ، وهو الخيال Imagination فإن الأدب يمتاز بقدرته على عرض الأشياء بأشكالها وألوانها كما يفعل الرسم والتصوير ، وهو هذه الميزة يستطيع أن يثير العاطفة ، ويلهبها فى نفوس القراء . وأشير عليك أن تدرس قصيدة البحترى فى رثاء المتوكل :

مَحَلٌّ عَلَى (القاطول) أَخْلَقَ دَائِرَةً وَعَادَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ جِيْشًا تَغَاوِرُهُ
التي يقول فيها :

وَلَمْ أَنْسَ وَخْشَ الْقَصْرِ إِذْ رِيحُ سَرْبِهِ وَإِذْ ذُعِرَتْ أَطْلَاؤُهُ وَجَاذَرُهُ
وَإِذْ صَبَحَ فِيهِ بِالرَّحِيلِ فَهَتَّكَتْ عَلَى عَجَلٍ أَسْتَارُهُ وَسَتَاتِرُهُ
فإنك تجد هذا الشاعر يسلك في رثائه مسلكا بديعا فلا يأمرنا بالحزن أمرا ،
ولا يزعم هذه المزاعم التهويلية بتعظيم الخطب والجالجلة الفارغة ، وإنما يأخذ
يبدنا أو بعبارة أدق يأخذ بأبصارنا فيعرض علينا صورا حسية أليمة من
خراب القصر ، وتشئت ذويه ، ومن مهانة الخلافة ، وغدر الابن بأبيه ، إلى غير
ذلك مما نراه ، فنغضب نحن لهذه المشاهد كما غضب لما رآها ، وهذا هو ما نسميه
الخيال ، وهو عنصر يعد لغة العاطفة وأصدق وسيلة لتصويرها بالنسبة للأديب
ولا يثارتها في نفوس القراء .

كذلك المعرى عرض علينا مهزلة الحياة وجدالمات في داليتها المشهورة
بصور متتابعة من عمل الخيال هي أصوات ، وأجسام ، وقبور ، ونجوم ، وغيرها
حتى أبكى الناس جميعا .

وأخيرا ، كيف أنقل صورة نفسى إلى غيرى ؟ في نفسى الحقيقة ، تسيطر
عليها عاطفة ، يصورها خيال . . . فأنا للآن أديب صامت لا يعرفنى الناس
ولا أوثر فيمن حولى ، فلا بد إذا من وسيلة تصل بينى وبين غيرى بنقل هذه
العناصر النفسية وإذاعتها . . . تلك هي العبارة Diction أو (نظم الكلام) كما يقول
عبد القادر الجرجاني . والعبارة كما ترى وسيلة لا غاية ، ولكنها لا تقل في قيمتها
عن سائر العناصر الأدبية ، لأن القدرة على إثارة العواطف — هذه القدرة
التي هي وظيفة الأدب — تتوقف إلى درجة بعيدة على جمال العبارة . وتأليفها
تأليفا يجعلها مرآة صافية أمانة لما في نفس الأديب ، فكثيرا ما تعق العبارة
كأنها مليئا بالأفكار ، جياشا بالعواطف ، وكثيرا ما تكتسب المعانى العادية
روعة أسلوبية تجعلها في درجة رفيعة من درجات الأدب السامى . ولعلك لم تنس
ما أورده في العدد السابق من خلاف حول اللفظ والمعنى ، وكيف أن أحيانا

رائعة الأسلوب، عادية الأفكار، قد فازت بنصيب كبير من التقدير والإعجاب، وإن لم ينفرد اللفظ بالجمال الفني كما أثبتنا ذلك في موضعه.

وبخلاصة هذا أننا نستطيع أن نحلل النص الأدبي إلى هذه العناصر الأربعة:

(١) العاطفة، وهى أهم العناصر وخصوصا فى أدب القوة الذى يمثله الشعر الغنائى تمثيلا واضحا، وقد تكون العاطفة فى درجة الحقائق فى مثل الخطابة والأبحاث النقدية والقصصية.

(٢) الخيال، وهو فى أكثر الأحيان يكون اللغة اللازمة لاثارة العاطفة كما رأيت فى مرثية البحترى، وكما هو الشأن فى فن الوصف.

(٣) الفكرة أو الحقيقة، وهى تعد عماد العاطفة وعونها على الخلود والسمو، وقد أصبح الأدب اللفظى الذى يخلو من الحقائق سخفا وعبثا لا يليق بالعقلاء غير أن الحقائق لا تذكر هنا جافة وإلا كانت الكتابة علما، بل تتوارى فى العاطفة وتقف خلفها شيئا ثانويا.

(٤) العبارة، وهى وسيلة لا تقل فى درجتها عن الغايات، بل يعدها بعض النقاد أهم الجميع إذ هى المعرض الأخير لسائر العناصر الأدبية.

— ٤ —

للأدب معنى عام بجانب هذا المعنى الخاص الذى ذكرنا فى هذه الصفحات، وبه يتناول جميع المعارف والعلوم التى تغذى النفس الانسانية وتقوى فيها مظاهر العقل، والوجدان، والارادة، وما أشبه هذا المعنى بما ذكره العلامة ابن خلدون فى تعريف الأدب وقد ذكرناه فى صدر هذا البحث. فحين يقول الناس: العلوم الأدبية أو الدراسة الأدبية العامة. إنما يقصدون بذلك كل ما من شأنه التثقيف النفسى المتصل بخدمة الحياة من ناحيتها الروحية. فالفلسفة أدب بهذا المعنى العام، والتاريخ أدب كذلك، ومثلهما الجغرافيا، والقانون، والدين، والفنون الرفيعة، وعلى هذا الأساس كان القسم الأدبى بالمدارس الثانوية والعالية منذ عهد قريب، وعليه قامت كلية الآداب بالجامعة المصرية وجمعت فى تكوينها بين هذه الأقسام المتشابهة فى دراستها، التى تنتهى إلى غاية واحدة من

تنظيم التفكير الانساني للوصول إلى الحقائق عن طريق الفلسفة ، ومن دراسة المظاهر العقلية والعاطفية في التعبير فهي الآدب بمعناه الخاص ، ومن آثار العقل والشعور في الحياة الاجتماعية فهي التاريخ ، ومن الصلة بين الانسان والطبيعة عن طريق الجغرافيا ، وهكذا نجد الدراسة القانونية تنظيما لحياة الانسان الاجتماعية ولصلاته مع بني جنسه ، والدين ينظم الصلة بين الخالق والمخلوق . ويقابلها كلية العلوم التي تعنى بالدراسة الخاصة بجسم الحياة الانسانية وما يقومها تلحق بها كلية الطب والزراعة والاقتصاد فهي متعاونة على حفظ كيان الانسان من حيث تنمية جسمه وحفظه من الآفات وتوفير أسباب الراحة والرفاهية ، وبذلك تنتهي الحياة إلى هاتين الشعبتين الآداب والعلوم ، ومن الآداب ما نسميه الفنون الجميلة ، وكان العرب يسمونها الآداب الرفيعة ، فهذا هو المعنى العام لكلمة الآدب ، ونجد في دائرة المعارف الاسلامية كلاما تاريخيا بهذا المعنى .

ألسنت قد خدعتك أيها القارىء الكريم حين زعمت لك أنى قادم بك على تعريف الآدب وتحديدده ، فإذا بى ذاهب إلى التعريف بالآدب وذكر طبيعته وعناصره ؟ وأن هذا من ذاك ؟ ولكنى سأثلك هذه المرة : أ كنت تستطيع الاطمئنان إلى هذه الحدود الكثيرة التي تسمعها أو كنت تقدر على وضع حد للآدب من ابتكارك دون أن تسلك هذه السبيل التي قطعها أنت الآن في شيء من الحيلة كثير ؟ !

على أنى معترف أنا جميعا قد وصلنا إلى نتائج إلا تكن يقينية يحسن السكوت عليها ، فهي على الأقل نتائج تحملنا على الكلام والبحث في بعض النقط والجوانب الأخرى التي تتم ما أشرنا إليه هنا ، وإذ قد طال المطاف فأرجو أن يكون ذلك في العدد التالى .

أحمد الشايب

المتنبى عند سيف الدولة

بقلم علي النجدي ناصف

مفتش المعارف بملوى

اتصل المتنبى بسيف الدولة سنة ٢٢٧، ورحل عنه مغاضباً سنة ٢٤٦، فهو قد أقام عنده نحو عشر سنين. وتعد هذه المدة على رغم ما شابهها من الحسد والكيد - أهنأ أيام الشاعر، وأحفلها بالخير والاقبال، وأغناها بأكرم شعره وأبقاه على الأيام.

ففي هذه المدة فارقت الحاجة والبؤس إلى غير رجعة، واختصه بالعطف وحسن الرعاية أمير كريم، فانقطع إليه، واستغنى بمدحه عن مدح غيره، حتى أضيف كلاهما إلى صاحبه إضافة الاختصاص والاستثارة، فقليل: سيف الدولة ممدوح المتنبى، والمتنبى شاعر سيف الدولة. (١)

وكان للشاعر من سخاء الأمير وشجاعته وكثرة حروبه وسائر مزاياه حافز إلى قول الشعر، وعون أيما عون على الاجادة والابداع، فبعد صيته، وأقبلت الدنيا عليه، فأصاب من النعمة والثراء حظاً غير قليل. أما الحسد والكيد فقد تعقباه هنا وهناك، حتى كانت مصيبتيه منهنما قسمة بين أهم مراحل حياته. وإنما يقع التفاضل بين حالته بحسب ما وراء الحسد والكيد من أسباب السعادة والشقاء.

ولا شك أن المتنبى مدين في هذه الخطوة المباركة لأبي العشائر بن حمدان. فهو قد اغتنم قدوم سيف الدولة على أنطاكية، فقدم إليه المتنبى، وأثنى عليه، وعرفه منزله من الشعر (٢). نعم لقد كان متوقفاً أن يتصل المتنبى بسيف

(١) أبو الطيب المتنبى الكوفي: ٩٣

(٢) الصبح المتنبى: ١: ٤٦

للدولة ؛ وكان كذلك ممكنا أن يتبوأ عنده المنزلة الممتازة التى كانت له ، بغير وساطة
أبى العشائر ، فالمتنبى كان شاعرا عبقرى ، وأديبا جليلا ، بدأ نجمه يومئذ فى
الصعود ، وأخذ صيته يسير فى البلاد ، وسيف الدولة كان نجمة الشعراء والأدباء ،
بل مقصد كل ذى إحسان فى علم أوفى ، لكن أبى العشائر على الأقل اختصر له
الوقت ، وأمسك عليه الجهد ، وأخذ ينده اجتذابا إلى الموضع الذى يرشحه له
قبوغة وفضله .

وعرف المتنبى لأبى العشائر هذا الصنيع ، وقدره حق قدره ، فكان يحبه ،
ويحفظ له أخلص الود وأصدق ، حتى فى أهول المواقف ، وأشدّها إثارة للسخط
والغضب ، وأدعاها إلى القطيعة وفصم أوثق الروابط .
روى العكبرى أن جماعة ترصدوا المتنبى ذات ليلة وهموا بقتله على باب
سيف الدولة ، بعد قصيدته العتائية ، التى مطلعها :

واخر قلباه بمن قلبه شيم ومن بجسمى وحالى عنده سقم
ولما أعياهم أمره ، واستئثسوا من الفتك به ، انتسبوا إلى أبى العشائر وقالوا :
نحن غلماناه . فقال أبو الطيب :

ومنتسب عندى إلى من أحبه وللبل حولى من يديه حفيف
فهيج من شوقى ، وما من مذلة حنت ، ولكن الكريم ألوف
وكل وداد لا يدوم على الأذى دوام ودادى للحسين ، ضعيف
فان يكن الفعل الذى ساء واحدا فأفعاله اللأى سررن ألوف
ونفسى له ، نفسى الغداء لنفسه ولكن بعض المالكين عتيف (١)

ويظهر أن المتنبى خشى أن يكون مثله فى نظر سيف الدولة كمثل سائر الشعراء
الذين يترا كضون إليه ، ويتدافعون على يابه فى غير تصون ولا احتشام ، على
حين أن ليس فيهم من يجاريه فى مبدانه ، أو ينازعه السبق إلى غاية الاحسان

لذلك تقدم إليه قبل مدحه يشترط ألا ينشده قائما ، وألا يكلف تقيل الأرض بين يديه (١)

ورأى سيف الدولة أنه تجاه اشتراط غريب ، تمليه شخصية غريبة ، لا نعلم أن له عهدا بمثلها . أو قريب منها بين الشعراء ، شخصية واثقة معتدة . بل طامحة مدلة ، تبغى الكرامة في أسلوب يرفع صاحبها من بعض الوجوه إلى مراتب الأنداد والنزلاء . ثم نظر من ناحية أخرى ، فإذا هذه الشخصية لا تبغى الاعتداء على حق مشروع ، ولا مجاوزة حد معقول ، وإذا الذي يقدم صاحبها ، ويثني عليه أبو العشائر ، وهو ابن عمه ، ونائبه في بعض ملكه ، وأديب يعالج الشعر . ويستطيع المفاضلة بين الشعراء عن علم وتجربة ، إذا فلا عليه أن يقبل الشرطين بل لا مفر له من قبولهما ، ولوريثهما يستجلي حقيقة هذا الشاعر ، ويهيئ له فرصة يحاول فيها أن يثبت جدارته بما يشترط ، واستحقاقه للتقدم والامتياز .

قبل سيف الدولة شرطي المتنبى ، ونزل على أحكامهما ، ولكن في ترقب وانتظار . ولذا قالوا : إنه حين سمع شعره حكم له بالفضل ، وعدماطلبه استحقاقا (٢) . وخلا المتنبى إلى نفسه ينظم أولى قصائده في سيف الدولة ، وقد شغل الناس به ، واتجهت أنظارهم إليه ، يرتقبون ما يطلع به عليهم في شوق واهتمام . ولم يكن خافيا على أحد أن حظوته الموعودة كانت إذ ذاك رهنا بيا كورة شعره في الأمير ، فإما نجاح يبلغه مأمله ، ويرفع رأسه ، ويكتب خصمه ، وإما عثار يذهب بالرغائب ويشمت الحساد ، ويسلم إلى مذمة المنافسين . مقام صعب ولا شك ، سعى إليه

(١) زاد في خزنة الأدب للبغدادى : ٢ : ٣٠٦ . وأن يمدحه على الوحدة ، وقد أغفلنا إثباته بموضعه ، لأن الروايات مستفيضة بأن المتنبى كان ينشده في غير الوحدة . راجع طبقات الأدباء : ٣٧٢ ، ٣٧٣ والبيان : ٢ : ٢٣٠ ، وأبو الطيب المتنبى وأخباره .

١٣ ، والصبح المتنبى : ١ : ٦٦ - ٧٢

(٢) خزنة الأدب : ٢ : ٣٠٦

المتنبى طوعا واختيارا، تحذوه نفس طموح. وتوازره مواهب صادقة، فمضى في ثقة واطمئنان وثبات.

وأحسب أن لو أخذته رهية الموقف، وبدت في هذه القصيدة دلائل التهمب والحذر لكان جديرا أن ينفسح له مجال العذر. لكنك تقرأ القصيدة، ثم تقرؤها فلا تلح فيها سمة تبدل عليها. ولا ترى لها لونا من تلك الصبغة تخالف به سائر قصائده في سيف الدولة. ودونك مطلعها، فاستمع له، ثم حدثني عما ينم عليه: وفاؤكما كالربيع، أشجاء طاسمه بأن تسعدا والدمع أشجاء ساجمه

ألا تراه معى قد جرى في البيت على طبعه. وأرسلة غير متعمل ولا محتفل. فخرج كما تهيأ له: شطراه متداخلان، ومعناه غامض، ولو شاء لكان له معدى عنه، وفي سواه بدل منه، ثم انظر إليه في هذه القصيدة كيف أبى إلا أن يناجز شعراء سيف الدولة، ويرميهم بالقصور عن وصفه والعي في مدحه حيث يقول: فأبصرت بدرا لم ير البدر مثله وخاطبت بحرا لا يرى العبر عاثمه غضبت له لما رأيت صفاته بلا واصف، والشعر تهذى طامطمه

واستمع له بعد هذا وذلك يرد على ابن خالويه، وقد راجعه كلمة في مطلع هذه القصيدة. فقد روى العكبري أن ابن خالويه كان حاضرا لإنشائها، فقال حين سمع المطلع: يا أبا الطيب، تقول: أشجاء - وهو شجاء - يظنه فعلا، فقال له: اسكت؛ ليس هذا من علمك، إنما هو اسم لا فعل (١).

أرأيت إلى أى حد كان المتنبى قويا صارما، بل غليظا جافيا في خطاب رجل له خطر جليل، ومثزلة شامية عند سيف الدولة؟

وبعد، فقد كانت صلة الشاعر بأميره وثيقة محكمة، تقوم على أسس من الصداقة، وحسن التقدير، واطراح الكلفة، فكان سيف الدولة يؤثره على شعرائه، (٢) ويسير بمن يحفظ شعره (٣) وكانت هباته وعطاياه تتوالى عليه أنواعا

(١) شرح التبيان ٢: ١٣٠ بتصرف

(٢) الصبح المنبى ١: ٥٨

(٣) التبيان ٢: ٢٩

منوعة : بين ثياب وأموال ، وإمام وعبيد ، وجياد وأسلحة ، وزاد ؛ فأقطعه قرية من قرى حلب تسمى سُبُعين^(١) ، وضبعة بالمعرة تسمى صفا^(٢) .

روى الثعالبي : أن المتنبي لما أنشد سيف الدولة قصيدته التي أولها :

أجاب دمعى ، وما الداعى سوى طلل دعا ، فلباه قبل الركب والابل
ناوله نسختها وخرج ، فنظر فيها سيف الدولة ، فلما انتهى إلى قوله :

يأيها المحسن المشكور من جهتي والشكر من قبل الاحسان لا قبلي

أقل ، أنل ، إقطع ، احمل ، عل ، سل ، أعد زد ، هش ، بش ، تفضل ، أدن ، سر ، صل

وقع تحت (أقل) : قد أقلناك ، وتحت (أنل) : يحمل إليه من الدراهم كذا ،

وتحت (اقطع) : قد أقطعناك الضيعة الفلانية ، ضيعة بيان حلب ، وتحت (احمل) :

يقاد إليه الفرس الفلاني ، وتحت (عل) : قد فعلنا ، وتحت (سل) : قد فعلنا فاسل ،

وتحت (أعد) : قد أعدناك إلى حالك من حسن رأينا ، وتحت (زد) : يزداد كذا ،

وتحت (تفضل) : قد فعلنا ، وتحت (أدن) : قد أدنيناك ، وتحت (سر) : قد

سررناك . قال ابن جنى : فبلغني عن المتنبي أنه قال : إنما أردت سر من التورية ،

فأنمر له بجمالية ، وتحت (صل) : قد فعلنا . وكان بحضرة سيف الدولة شيخ

ظريف ، يقال له المعقل ، حسد المتنبي على ما أعطاه سيف الدولة ، فقال : يامولاي ،

هلا قلت له لما قال : هش بش : هه هه هه (يحكي الضحك) فضحك سيف الدولة

وقال له : ولك أيضاً ماتحب . وأمر له بصلة^(٣) .

وأهدى إليه سيف الدولة ثياب ديباج ، ورحا ، وفرسا . ومهراً . فقال له :

ثياب كريم ما يصون حسانها إذا نشرت كان الهبات صوانها

تربنا صناع الروم فينا ملوكها وتجلو علينا نقشها وقيانها

ولم يكفها تصويرها الخيل وحدها فصورت الأشياء إلا زمانها

وما ادخرتها قدرة في مصور سوى أنها ما أنطقت حيوانها

(١) القاموس : مادة سبع

(٢) معجم البلدان

(٣) أبو الطيب المتنبي وأخباره : ١٣ ، والتبيان : ٢ : ٧٢ .

وسرام يستغوى الفوارس قدما
وَيَذْكُرُهَا بِكَرَاتِهَا وَطَعَانِهَا
ردينية نمت ، فكاد نباتها
يَرْكَبُ فِيهَا زَجْجَهَا وَسَنَانِهَا
وَأُمُّ عَتِيقٍ خَالَهُ دُونَ عَمِّهِ
رَأَى خَلْقَهَا مِنْ أَعْجَبَتِهِ ، فَعَانِهَا
إِذَا سَايَرْتَهُ بَايَتَهُ وَبَانِهَا
وَشَاتَتْهُ فِي عَيْنِ الْبَصِيرِ وَزَانِهَا
وَقَالَ يَمْدَحُهُ وَيُودِعُهُ إِلَى إِقْطَاعِهِ :

أَيَا رَامِيَا يَصُمِي فُؤَادَ مَرَامِهِ
تَرَبَّى عِدَادَهُ رِيَشَهَا اسْهَامِهِ
أَسِيرٌ إِلَى إِقْطَاعِهِ ، فِي ثِيَابِهِ ،
عَلَى طَرَفِهِ ، مِنْ دَارِهِ ، بِحَسَامِهِ
وَمَا مَطَرُ تَنِيهِ مِنَ الْبَيْضِ وَالْقَنَّا
وَرُومُ الْعِيدَى هَاطَلَاتُ غَمَامِهِ
قَى يَهَبِ الْأَقَايِمِ بِالْمَالِ وَالْقُرَى
وَمِنْ فِيهِ مِنْ فِرْسَانِهِ وَكِرَامِهِ
وَيَجْعَلُ مَا خَوَّلَتْهُ مِنْ نَوَالِهِ
جَزَاءً لِمَا خَوَّلَتْهُ مِنْ كَلَامِهِ
وَقَالَ يَصِفُ مَنَزَلَتَهُ وَحَظْوَتَهُ عِنْدَهُ :

بَلَغْتَ بِسَيْفِ الدَّوْلَةِ النُّورَ رَتَبَةً
أَثَرْتُ بِهَا مَا بَيْنَ غَرْبٍ وَمَشْرِقٍ
إِذَا شَاءَ أَنْ يَلْهُو بِلُحْيَةٍ أَحْمَقٍ
أَرَاهُ غِبَارِي ، ثُمَّ قَالَ لَهُ الْحَقُّ
وَمَا كَدَ الْحَسَادِ شَيْئاً قَصْدَتَهُ
وَلَكِنَّهُ مِنْ يَزْحَمِ الْبَحْرِ يَفْرَقُ
فَلِذَلِكَ لَانَ عَيْشُهُ ، وَكَثُرَ ذِكْرُ النِّعْمَةِ وَالثَّرَاءِ فِي شِعْرِهِ . كَقَوْلِهِ :

أَنَا مِنْكَ بَيْنَ فَضَائِلٍ وَمَكَارِمٍ
وَمِنْ ارْتِيَا حُكَّ فِي غَمَامٍ دَائِمٍ
وَمِنْ احْتِقَارِكَ كُلِّ مَا تَحْبُوبُهُ
فِيمَا أَلَا حَظَّهُ ، بَعْنَى حَالِمٍ
وَقَوْلِهِ :

نَادَيْتُ بِمَجْدِكَ فِي شِعْرِي وَقَدْ صَدَرَا
يَا غَيْرَ مُتَحَلٍّ فِي غَيْرٍ مُتَحَلٍّ
بِالشَّرْقِ وَالْغَرْبِ أَقْوَامَ نَجْبِهِمْ
فَطَالَعَاكُمْ ، وَكُونَا أَبْلَغَ الرُّسُلِ
وَعَرَفَاهُمْ بِأَنِّي فِي مَكَارِمِهِ
أَقْلَبُ الطَّرْفَ بَيْنَ الْخَيْلِ وَالْخَوْلِ
وَقَوْلِهِ :

تَرَكْتُ السَّرِيَّ خَلْفِي لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ
وَأَنْعَلْتُ أَفْرَاسِي بِنِعْمِكَ عَسْجَدَا
وَقِيدْتُ نَفْسِي فِي هَوَاكَ مَحَبَّةً
وَمِنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قِيداً تَقِيدَا

ذلك كان شأن الأمير ، أما الشاعر ففي غير موطن من شعره تصريح بحبه إياه وإخلاصه له ، كقوله ، وقد أراد الانصراف من عنده ليلا :

يقاتلني عليك الليل جدا ومنصرفي له أمضى السلاح
لأنى - كلما فارقت طرفي - بعيد بين جفني والصباح
وقوله :

أحبك يا شمس الزمان وبدره وإن لامني فيك السها والفراق
وذاك لأن الفضل عندك باهر وليس لأن العيش عندك بارد
فان قليل الحب بالعقل صالح وإن كثير الحب بالجهل فاسد
وقوله :

إذا كان مدح ، فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعراً ميم ؟
لحب ابن عبد الله أولى ؛ فإنه به يبدأ الذكر الجليل ويختم .
وقد تفوق المتنبي في مدح سيف الدولة ماشاء ، وشاء له الحب الصادق والطبع
الكريم ، فخرج شعره فيه أبلغ أشعاره ، وأكثرها تداولاً ، وأحفظها بأسباب
الخلود .

ومن دلائل التسهيل بينهما ، واطراح التكلفة والتزمت في صداقتهما - هذه
الدعابة البادية في قوله :

تعجبت المدام وقد حساها فلم يسكر ، وجاد فما أفاقا
أقام الشعر ينتظر العطايا فلما فاقت الأمطاراً فاقا
وزنا قيمة الدهماء منه ووفينا القيان به الصداقا
وحاشا لارتياحك أن يبارى وللكرم الذي لك أن يباقي
ولكننا نداعب منك قرماً تراجع القروم له حقاقا

وتلك الفكاهة المتمثلة في قوله على لسان سيف الدولة ، يخاطب رجلاً أنفذه
إليه أبياناً يشكو فيها الفقر ، ويزعم أنه رآها في النوم :

قد سمعنا ما قلت في الأحلام وأنتناك بدرة في المنام
وانتبهنا كما انتبهت بلا شيء ، وكان النوال قدر الكلام

كنت فيما كتبه نائم العيش، فهل كنت نائم الأقدام؟
أيها المشتكى إذا رقد الإعدام لا رقدة مع الإعدام
وكان سيف الدولة ينقد شعره، فيتقبل المتنبى نقده، أو يتلطف في الرد عليه
مع فرط ثقته بنفسه، وشدة إيمانه واستكباره، وسيف الدولة في الحالين راض
عنه، ومعجب به، وربما كان سروره في الأخيرة أعظم وإعجابه أشد. حدث
العكبرى أن المتنبى قال: «مارد على أحد شيئاً فقبلته، إلا سيف الدولة، فاني أنشدته:
«ومن جيف القتلى، فقال لي: مه، قل: «من جثث القتلى، فقبلت، وقلت كما
قال لي (١)».

وروى أيضاً أن المتنبى لما أنشد البيتين:

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى، وهو نائم
تمر بك الأبطال كللى هزيمة ووجهك وضاح، وثغرك باسم
أنكر عليه سيف الدولة تطبيق عجزى البيتين على صدريهما، وقال له: ينبغي
أن تطبق عجز الأول على الثانى، وعجز الثانى على الأول، ثم قال له: وأنت في
هذا مثل امرئ القيس في قوله:

كلاني لم أركب جواداً للذة ولم أبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى، ولم أقل لخلي: كرى كرة بعد إجحاف
قال: ووجه الكلام في البيتين على ما قال أهل العلم بالشعر، أن يكون عجز
الأول على الثانى والثانى على الأول، ليستقيم الكلام، فيكون ركوب الخيل مع
الأمر بالخيال للكر، وسبب الخمر مع تبطن الكاعب. فقال أبو الطيب: أدام الله
عز مولانا، إن صح أن الذى استدرك هذا على امرئ القيس أعلم منه بالشعر،
فقد أخطأ امرؤ القيس، وأخطأت أنا، ومولاي يعرف أن البزاز لا يعرف الثوب
معرفة الحائك، لأن البزاز يعرف جملة، والحائك يعرف جملة وتفصيله، لأنه

(١) البيان: ٢: ٢٦٧ والبيت الذى يتحدث عنه المتنبى هو:

وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جثث القتلى عليها تمام

(٤ - صحيفة دار العلوم)

أخرجه من الغزاة إلى الثوية . وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد ، وقرن السباحة في شراء الخمر للضياف بالشجاعة في منازل الأعداء : وأنا لما ذكرت الموت في أول البيت ، أتبعته بذكر الردى ليجانبه . ولما كان وجه المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً ، وعينه من أن تكون باكية - قلت : ووجهك وضاح ، لأجمع بين الأضداد في المعنى ، فأعجب سيف الدولة ، ووصله بخمسمائة دينار (١)

وكان سيف الدولة يرى فيه شاعر المجد والخلود ، لذلك كان لا يطيق غيابه أيام الحفل ، وفي مواقف البطولة والظفر . روى أنه جلس يوماً لرسول ملك الروم ، ولم يستطع المتنبى أن يصل إليه لشدة الزحام ، فعاتبه سيف الدولة على تأخره ، فقال :

ظلم لذا اليوم وصف قبل رؤيته لا يصدق الوصف حتى يصدق النظر
تراجم الجيش حتى لم أجد سبياً إلى بساطك .لى سمع ، ولا بصر
فكنت أشهد مختصراً وأغيبه معاني ، وعياني كله خبر
اليوم يرفع ملك الروم ناظره لأن عقولك عنه عنده ظفر (٢)
ولذلك أيضاً سلمه سيف الدولة إلى الرواض فعلموه الفروسية (٣) ،
والطراد (٤) ، والمثاقفة (٥) ، ليشهد وقائعه . ويرى بعينه مبلغ شجاعته وحسن
بلائه في الحروب ، فيصفه من هذه الناحية عن رؤية وعلم ، لا عن سماع
وتخيل . ولعل المتنبى قد أدرك معنى سيف الدولة من ذلك ، وأراد تذكيره به
والإشارة إلى أنه حققه حين يقول في عتابه :

قد ذرته وسيوف الهند مغمدة وقد نظرت إليه ، والسيوف دم
فكان أحسن خلق الله كلهم وكان أحسن مافي الأحسن الشيم

(١) التيان : ٢ : ٢٧٠

(٢) التيان : ١ : ٢٩٨

(٣) حذق أمر الخيل

(٤) حمل الأفران بعضهم على بعصر

(٥) الملاعبة بالسلاح

ويظهر أن تسليم المتنبى إلى الرواض والمثقفين قد أضر به، وجادف هوى في نفسه؛ لذلك كان يلذ له بعض الأحيان أن يخرج في زى الفارس الكمي، يتأهب للنزال والظعن.

حكى ابن جني، قال: حدثني أبو علي الحسين بن أحمد الضنوبري، قال: خرجت من حلب أريد سيف الدولة، فلما برزت من السور إذا أنا بفارس مثلم، قد هوى نحوي برمح طويل، وسدده إلى صدري، فكدت أطرح نفسي عن الدابة فرقا. فلما قرب مني ثنى السنان، وحسر لثامه، فإذا المتنبى، وأنشدني: نثرنا رؤوسا بالأحيدب منهم كما نثرت فوق العروس الدراهم (١) ثم قال لي: كيف ترى هذا القول؟ أحسن هو؟ فقلت له: ويحك، قد قتلتني يا رجل. قال ابن جني: فحكيت أنا هذه الحكاية بمدينة السلام لأبي الطيب، فعرفها وضحك لها (٢).

وقد ذكر المتنبى في شعره أن سيف الدولة علمه استعمال السيف، واستصحبه في بعض الحروب، فساهم في أعمالها، وصبر معه على شدائدها. قال:

وقد طرقت فتاة الحى مرتديا بصاحب غير عزهاة (٣) ولا غزل
فبات بين تراقينا ندفعه وليس يعلم بالشكوى ولا القبل
ثم اغتدى وبهمن وذعها (٤) أثر على ذؤابته والجفن والحلل (٥)
لا أكسب الذكرا إلا من مضاربه أو من سنان أصم الكعب معتدل
جاد الأمير به لي في مواهبه فزانها، وكشاني الدرغ في الحلل
ومن علي بن عبد الله معرقى بحمله. من كعبد الله، أو كعلي؟

(١) البيت للمتنبى من قصيدة في سيف الدولة، مطلعها: على قدر أهل العزم تأتي

العزائم... وتأتي على قدر الكرام المكارم

(٢) أبو الطيب المتنبى وأخباره: ١٤

(٣) لا يطرب للهو.

(٤) أثر طيبها

(٥) الجلود المنقوشة بالذهب وغيرها تغشى بها أغصان السيوف

وقال:

ورعن بنا قلب الفرات كأنما يخر عليه بالرجال سيول
 يطارد فيه موجه كل سايح سواء عليه غمرة ومسيل
 تراه كأن الماء مر بجسمه وأقبل رأس وحدد وثليل (١)
 وفي بطن هنريط وسمين للظبا وصم القنا بمن أبدن بديل
 طلعن عليها طلعة يعرفونها لها غرر ما تنقضى وحجول
 تمل الحصون الشم طول نزالنا فتلقى إلينا أهلها وتزول
 وقال:

وما حمدتك في هول ثبت له حتى بلوتك، والأبطال تمتصع (٢)
 وما كان لمثل هذه الصداقة القوية أن تعمر طويلا بين الأمير وشاعره ،
 دون أن تؤتى نتائجها الحتمية في نفوس من يتأثرون بها ، ويرون من الخير
 ألا يصبروا على بقائها ، فتفشى الحسد والغيط شعراء سيف الدولة ومن إليهم ،
 وسامت ظنون الشاعر بهم ، حتى كان فيما يقال لا يطمئن لغير أبي الفرج البغاء
 من بينهم (٣) . وكان القوم يجهرون بالحسد ، ويجأرون بالشكوى إلى سيف
 الدولة ، أن أنزلهم من منازلهم ، ورفع المتنبي عليهم ، ولكن ذلك لم يغن عنهم
 من الحية والحرمان شيئا .

روى البيهقي أن سيف الدولة كان يميل إلى أبي العباس النامي الشاعر ميلا
 شديدا ، إلى أن جاءه المتنبي ، فقال عنه إليه ، فغاض ذلك أبا العباس . فلما كان
 ذات يوم خلا به وعاتبه ، وقال : الأمير لم يفضل علي ابن عيدان السقاء ؟
 فأمسك سيف الدولة عن جوابه ، فليج وألح وطالبه بالجواب ، فقال : لأنك
 لا تحسن أن تقول كقوله :

يعود من كل فتح غير مفتخر وقد أغد إليه غير محتفل

(١) عنق

(٢) الامتصاع شدة القراع بالسيوف

(٣) الصبح المتنبي : ١ : ٧٣ . بتصرف

فنهض من بين يديه مغضبا (١)، وروى أيضاً أن السرى الرفاء حين قصد سيف الدولة أنشده بديها:

إني رأيتك جالسا في مجلس... قعد الملوك به لديك وقاموا
فكأنك الدهر المحيط لديهم وكأنهم من حولك الأيام
ثم أنشده بعد ذلك ما كان قال فيه من الشعر: وبعد ثلاثة أيام أنشده
المتنبى قصيدة قافية، فأمر له بفرس وجارية، وأول القصيدة:
أيدري الربع أى دم أراقا؟ وأى قلوب هذا الركب شاقا؟
ولما وصل إلى قوله:

وخصر تثبت الأبصار فيه كأن عليه من حدق نطاقا
قال السرى: هذا والله معنى ما قدر عليه المتقدمون، ثم إنه حم في الحال،
وتحامل إلى منزله ومات بعد ثلاثة أيام (٢).

وموعدنا العدد القادم لاتمام الحديث إن شاء الله تعالى.

على النجدي ناصف

(١) المصدر نفسه ٥٨: ١

(٢) المصدر نفسه ٥٦: ١ - ٩٧ باختصار.

من وهي الألم

تحت رواق الليل !

لشاعر الريف محمود حسن اسماعيل

الطالب بدار العلوم

قَزَعَتْ لِلظَّلَامِ رُوحِي كَمَا يَفْزَعُ أَعْشَى لَوْمَضَةٍ مِنْ ضِيَاءِ
 فَبَسْتُ الْخِيَالَ حَتَّى إِذَا مَا ضَجَّ فِي خَاطِرِي مِنَ الْبُرْحَاءِ
 هَرَبْتُ أَدْمَعِي إِلَى سَاحَةِ اللَّيْلِ - لَ تَهَاوَى فِي الدُّجَيَّةِ الظُّلُمَاءِ
 مَا لَهَا فِي السَّنَا مَلَاذٌ وَلَا فِي فَجَّةِ النُّورِ خَفَقَةٌ مِنْ رَجَاءِ
 سَاقِهَا فِي الظَّلَامِ حَادٍ مِنَ النِّهَمِ - بَلَا رَيْثَةٍ وَلَا إِبْطَاءِ
 مُسْتَحْتِجٌ الْخَطِيءُ، أَحْدُوبٌ عَلَى الْقَلْبِ بِزَجِيَّةٍ فِي رَحَابِ الْقَضَاءِ
 فِي مُعْبَابِ الدَّجَى يَهِيمُ بِمَسْرَا هُ فَتُضْوِيهِ غَيْبَةُ الْمِينَاءِ
 لَيْتَ مَلَأَحِي الضَّلُولَ هَدَيْتُهُ بَارِقَاتِ الْهَدَى لَشَطِّ الْفَنَاءِ
 طَالَ فِي اللَّيْلِ سَبْحُهُ وَهُوَ حَيْرًا نُ شَجَّتُهُ مُضَاضَةُ الْإِعْيَاءِ
 وَطَحَتْ بِالْشَّرَاعِ هَبَاتِ رِيحٍ عَاصِفَاتٍ مِنْ زَعَزَعِ نَكْبَاءِ
 إِيهِ يَا لَيْلٍ قَدْ لِي مِنْ حَوَاشِيكَ حِجَابًا وَنَاجِيًا فِي خَفَاءِ
 لَا تَدْعِ شَجْوَى الْكَتِيبِ وَلَا تَكْ شِفْ دَمْعِي لِأَعْيُنِ الرُّقْبَاءِ
 وَدَعِ النَّسْمَةَ الْعَلِيلَةَ تَحْسُو مِنْ فَمِ الزَّهْرِ بَلْسَمًا لِلشِّفَاءِ
 وَدَعِ الْكَوْنَ هَاجِعًا، وَدَعِ الْنَا سَ نَشَاوَى فِي غَمْرَةِ النِّجْمَاءِ
 خَلَّنِي لِلدَّمْعِ وَحْدَى أَنْجِيهَا وَحِيدًا فِي الْعُزْلَةِ السَّوْدَاءِ
 أَنَا مِنْ كَأْسِهَا شَرِبْتُ صَدِيئًا خَمْرَةً سُنْسِلَتُ مِنَ الْبِأْسَاءِ
 عُصِرَتْ مِنْ مَطَارِفِ الْأَلَمِ الدَّاءِ وَيَ بِقَلْبِي وَعُتِّقْتُ فِي دِمَائِي

تَخَذَتْ جَامَهَا المَاجِرَ والسَّاقِ هَمًّا يَوْجُ فِي أَحْشَائِي
 هِيَ أَشْهَى إِلَى عَيُونِي مِنَ الثُّرَى رَ ، وَأَبْهَى مِنْ لَحْمَةِ الْأَنْدَامِ
 هَاتِ يَا لَيْلٍ قَطْرَهَا فَهَنِي حَيْرِي كَتَمْتُ بَرَجَهَا مِنَ الْكَبِيرِيَامِ
 سَبَقْتُ مُطْلِعَ الْبَدَى لَكَ... دَعَا تَهَاوَى لِلشَّجَرَةِ الْفَيْحَامِ
 رَبِّمَا أَطْلَعْتَ بِظِلِّكَ فَجْرًا شَعِشَعَتْ مِنْهُ هَالَةٌ فِي السَّمَاءِ
 رَبِّمَا رَوَتْ الْأَزَاهِرَ فِي الْمَرْجِ جَ فَمَاسَتْ فِي الرِّبْوَةِ الْغَنَامِ
 رَبِّمَا فَجَّرْتَ بِقَلْبِكَ نَبْعًا وَرَدَّهُ مُنِيَّةُ الْقُلُوبِ الظَّمَامِ
 هَمْسُهَا فِي الْجَفُونَ أَصْدَاءُ نَائِي بَلَعَتْ شِدْوَهُ رِيَّاحُ الْمَسَامِ
 مِزْهَرٌ لِلْعَيُونِ أَوْ تَارُهُ الْهُدَى بُ وَأَنْغَامُهُ رَيْنُ الْبِكَامِ
 صَامَتْ فِي الظَّلَامِ أَلْهَمَ قَلْبِي مِنْ مَعَانِيهِ عِبْرِي الْغَنَامِ
 لَا مَنِي فِي هَوَاهُ خَالٍ مِنَ الْهَمِّ - بَلِيدُ الْفَوَادِ جَمُّ الْغَنَامِ
 رُدَّ عَنِي يَا لَيْلٍ دَعَاؤُهُ إِنِّي كَذْتُ مِنْ لَوْنِهِ أَحْطَمُ نَائِي
 لُحَّةُ الدَّمْعِ فِي سَمَاءٍ مِنَ الْعِصْمَةِ عَزَّتْ حِصَافَةُ الْأَغْيَامِ
 حَبَسَتْ وَحْيَهَا عَنِ الْعَقْلِ إِلَّا حِينَ تَسْمُو مَلَا حِينَ الشُّعْرَامِ !

هَاتِ يَا لَيْلٍ مِنْ أَغَانِيكَ وَأَمَلًا نَعْمَى بِالْخَوَاطِرِ الْهَوَاجِمِ
 أَنَا فِي غَارِكَ الْمَخْلَفِ بِالظُّلُمَةِ أَسْيَانُ مُثْقَلٌ بِالشَّقَامِ
 حِكْمَةٌ فِي دَجَاكَ أَنْكَرَهَا الْعَقْلُ فَلَاذَتْ بِالصَّمْتِ وَالْإِنْزَوَاءِ
 سَمِعْتُ أَرْغَنَ اللَّيَالِي فَهَامَتْ مِنْ صَدَاهُ بِنَغْمَةٍ خَرَسَاءِ
 هَوَمْتُ فِي الْفَوَادِ تُزْجِيهِ لِلْحَيَرَةِ وَالسَّحَرِ وَالْأَسَى وَالْعَنَاءِ
 وَاسِ يَا لَيْلٍ جُرْحُهُ فَلَقْدَ طَالَ أَسَاهُ بِرَبْقَةٍ الْأَذْوَاءِ
 أَنْتَ بَحْرُ الْحَيَاةِ يَا لَيْلٍ كَمْ فِيكَ أَهَاوِيلٌ مِنْ صُرُوفِ الْقَضَاءِ !
 كَمْ غَرِيقٌ يَمُكُّ الْأَسْوَدَ الصَّاخِبَ آدَتُهُ صَرْعَةُ الْأَنْوَاءِ

صَفَعَتْهُ عُنْفَةً مِنْ كُفُوفِ الدَّ - هَرٍ فَانْحَطَّ فِي مَهَاوِي الْبَلَاءِ !
 وَسَبَّوحٌ عَلَى مَتْنِكَ مَجْنُودٌ دَرٍ تَخَطَّتْهُ هَيْجَةُ الدَّأْمَاءِ
 قَدْ ضُمَّتْ إِلَّا كَوَانٍ تَحْتَ جَنَاحَيْكَ سِوَايِي فِي جُنْحِ هَذَا الْعَمَاءِ
 هُوَ ذَا الْكُوخِ رَازِحٌ تَحْتَ أَثْقَا لِكَ وَهَنَانٍ كَالضَّرِيرِ الْمُسَاءِ
 حَاكٍ مِنْ سِدِّ لِكَ الْكَحِيلِ غَطَاءٍ وَارْتَمَى جَائِيًا يَبْطِنُ الْغَرَامِ
 عَابِرٌ فِي حِمَاكَ شَقَّتْ مَطَاوِيهِ شَجُونُ الشَّرَى وَبَرْحُ الْخَفَاءِ
 لَمْ يَجِدْ رَاحِمًا يُوَاسِيهِ فِي الْبَلَاوَى وَيُنْسِيهِ مَضَّةَ الْإِنْضَاءِ
 فَنَغَاتِي مِنَ الضَّنَى يَنْشُدُ الرِّحْمَةَ وَالصَّفْوَةَ فِي الْخِيَالِ النَّاتِي
 رَجَفَتْ شَمْعَةٌ بِجَنِينِهِ تَهْفُو فِي دُجَاهِ كَالْمُقَلَّةِ الْعَمْشَاءِ
 خَنَقَ اللَّيْلُ نَوْرَهَا خَنْقَةَ الْبُؤْسِ لَسِ لَأَرْوَاحِ أَهْلِهَا التَّعْسَاءِ
 فَرَنْتَ لِلْقُصُورِ غَيْرِي شَجَاهَا أَخِيْلَ مِنْ لَوَاحِظِ الْكَهْرِبَاءِ
 سَادَرَ فِي الْبُرُوجِ كَادَ مِنَ الْفَتَنِ يَرِقُ إِلَى بُرُوجِ السَّمَاءِ
 لَقِيَ اللَّيْلُ حَتْفَهُ حِينَ وَافَا هَ طَرِيدًا مُعَرَّسًا فِي الْخَلَاءِ
 قَتَوِي فِي التَّخُومِ كَالْهَمِّ أَلْقَى رَحْلَهُ صُوبَ هَالَةٍ مِنْ صَفَاءِ
 وَدَنَا الْفَجْرُ فِي غِلَاثِلِهِ الْبَيْضِ شَفِيفَ الْإِهَابِ نَضَرَ الرُّثَاءِ
 يَسْكُبُ النُّورَ فِي الْعَيُونِ... وَلَكِنْ أَيْنَ لِلرُّوحِ وَمَضَّةٌ مِنْ سَنَاءِ ؟
 أَيْنَ قَبْزُ الْجَنَانِ يَا جَرَّ هَذِهِ نَغْمَاتِي ، وَلَا تَضِيعْ نِدَائِي .

محمود حسن اسماعيل

صفحات مطوية

عبد الرحمن زغلول

وتحت هذا العنوان نشر تعريفا بأستاذ من أكبر الأساتذة الذين خرجتهم دار العلوم ، وكان له في الثقافة العربية الحاضرة أثر عرّفه تلاميذه في دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي ومدرسة اللغات الشرقية ببرلين . وقد اعتمدنا في الحصول على هذه المعلومات على أوثق المصادر وخاصة أفراد أسرة الأستاذ المترجم له وقد تولى جمع هذه المعلومات زميلنا الفاضل محمّد رشيد بركات المدرس بمدرسة بنبا قادن الابتدائية . وستتبع ذلك ، في الأعداد الآتية ، بنشر بعض الآثار الأدبية للأستاذ عبد الرحمن زغلول .

نسبه :

هو عبد الرحمن بن الشناوي افندي زغلول ابن الشيخ ابراهيم زغلول ؛ وأمه السيدة عائشة بنت عبد الله افندي بركات وينتهي نسبه الى أبي بكر الصديق فالأستاذ — كما يتبين من نسبه — قد نسل من أكرم أسرتين في الدلتا الشمالية ، وحسبك أن سمعا الزعيم الخالد عمه . وأن فتح الله بركات باشا ، وعاطف بركات باشا ابنا خاله ، لتعلم أنه من الحسب في الذروة والسينام . وأبوه الشناوي افندي زغلول كان رئيسا لمجلس القضاء في مركز دسوق ، ثم في مركز زقّي ؛ وخاله عبد الله افندي بركات كان ناظرا لقسم دسوق ، في وقت كان فيه حكام القطر من الأتراك ، إلا نفرا كانوا يصطفون من بين أبناء البيوتات المصرية الغربية .

وجده الشيخ ابراهيم زغلول ، كان وجيها في قومه أثرا لديهم ، واسع الثراء ؛ وكان إلى ما عرف من سخائه وجوده — حتى انه كثيرا ما كان يؤدي

عن أتباعه وأهل بلده أموال الحكومة - شديد المحافظة على كرامته ، يبادر إلى دفع طيف المهانة عن نفسه ، بأشد أنواع العنف والقسوة ، حتى مع أولئك الأتراك الذين كانوا يحكمون فلا مرد لحكمهم ، لا يزال بعد ذلك أن يكون ما يكون ولما كان الولد سر أبيه ، كانت هاتان الخلتان - الجود ، وإياء الضيم - أبرز صفات المرحوم عبد الرحمن زغلول .

مولده ، ودراسته :

ولد عبد الرحمن زغلول سنة ١٨٦٦ في إبيانه من أعمال مركز فوة بمديرية الغربية ؛ ولما بلغ أشده التحق بمدرسة دار العلوم (ولعله كان قد انتسب إلى الأزهر ليعد نفسه لدخول تلك المدرسة) ، بيد أنه لم يلبث أن تخلى عن الدراسة ، وعاد إلى إبيانه فعين عمدة لها . ولكنه كان مشغوفاً بالعلم ، فلام نفسه على ما فرط ، ثم عاد وانتسب إلى دار العلوم مرة أخرى ، ووافق ذلك التحاق الطالب عاطف بركات بها ، فسارا معاً جنباً إلى جنب في طليعة الصفوف ، حتى تخرجاً فيها في عام ١٨٩٥ .

ولقد شغل الأستاذ عبد الرحمن - عقب تخرجه - مهنة التدريس في شتى المدارس في مصر وفي الخارج : فكان مدرسا بمدرسة الصنائع بالمنصورة ؛ ثم مدرسا بمدرسة المعلمين التوفيقية ؛ ثم أستاذا للغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية في برلين (وقد انتهز هذه الفرصة فحذق لغة البلاد ، وتثقف ثقافة ألمانية) ، ثم عين مفتشا للكتاتيب في وزارة المعارف (وله تقارير عاد فيها على هذه الكتاتيب إهمالها تربية الناشئ ، تربية جسمية وخلقية ، ودعا إلى الأخذ بعدة وسائل يراها أقوم السبل إلى إصلاح الأخطاء الشائعة في ذلك النوع من التعليم) وعين في سنة ١٩٠٥ أستاذا للإخلاق والإنشاء في مدرسة المعلمين الناصرية

(دار العلوم) ، وعهد إليه بطلبة الفرقة التحضيرية الذين كانوا يفدون من الأزهر ، فكان يتولاهم بما حباه به الله من مضاء في العزم ، وحزم في المعاملة ، وقدرة على تملك زمام طلبته ، وتوجيههم إلى حيث يريد ، فلا ينقضى عامهم هذا إلا وقد صقلوا صقلا مدرسياً دقيقاً .

ونقل في سنة ١٩١٠ مدرسا في مدرسة القضاء الشرعي، وفيها رغب في أن
يحال إلى المعاش
مكث بضعة أعوام يتنقل بين إنيان ومنية المرشد والقاهرة حتى اختاره ربه
إلى جواره في سنة ١٩١٩

أخلاقه

عطفه على الفقراء، وإحسانه إليهم:

وإليه - رحمه الله - كان ينتهي كثير من كرم السجايا، ونبل الخلال :
فلقد كان جوادا كريما، ينقب عن المحتاجين فيبدؤهم بالعطاء قبل أن يبدؤوه
بالسؤال؛ ما سئل قط إلا أعطى عطاء من لا يخشى الفاقة، منبسط الأسارير،
بأش الوجه (كأنك تعطيه الذي أنت سائله)

ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها؛ فليتيق الله سائله !
ولقد سار يوما على شاطئ النيل، فعرض له في طريقه رجل، يسأله شيئا
يتقى به الليل إذا أبرد؛ فأسرع إلى معطفه - ولم يكن قد لبسه أكثر من بضعة
أسابيع - فزعه، وألقى به إليه، ثم واصل سيره، كأنه لم يفعل شيئا.

قوة إرادته

أما قوة إرادته فكانت مضرب الأمثال: وقف مرة بين تلاميذه يلقي عليهم
درسا في قوة الإرادة، ويبين لهم أنها العدة والعتاد لمن حاول أن تكلل أعماله
بالتجاح في هذه الحياة، وأن المدرسين هم أجدر الطوائف بأن يأخذوا أنفسهم
بذلك النوع من التهذيب. وهنا انبرى له طالب خبيث، وتقدم إليه، يسأله أن
يريمهم آية في نفسه ينسجون على منوالها: ففش في وجه ذلك الطالب وبش،
وقال: سل ما شئت، فاني نازل حيث تريد. وكان الطالب يعلم أن للأستاذ
ولغا شديدا بالتدخين، حتى أنه ليشعل في اليوم مائة لفافة، لا ترى يده خلوا من
إحداها إلا حين يقف للدرس أو الصلاة - فقال: أن تمتنع عن التدخين،
فما كان أسرع يد الأستاذ تمتد إلى جيبه فتخرج علبة اللفائف، ثم تهوى عليها

أصابه تمزيقا وإتلافا، وأخيرا يلقي بها الى حيث لا يعود إليها .
ولقد لمح عقب ذلك ، أستاذنا الجليل الشيخ نحر الدين ، ويده لفاقة يشعلها ،
فاحمرت حدقاته ، وظهر على وجهه شتى الانفعالات النفسية . ثم قال : أتدرى ؟
إن رشفة مما في يدك لهى تزن عندى الدنيا بما فيها . قال : فما يحول بينك وبينها ؟
قال : عهد قطعته ، وعلى الوفاء به !

رجوعه إلى الحق

أما تواضعه فهو — إلى الآن — حديث كل من ربطتهم بالاستاذ صلة ،
أو جمعهم به مجلس . وما علمت أحداً أسرع منه رجعة إلى الحق ، حين يبدو له
وجه الخطأ فيما قال او فعل .

وقف مرة يوزع على طلبته كراسات الإنشاء بعد تصحيحها ، فلم ترقه كراسة ،
أحدهم ، فانهاه عليه لوما وتقريعا ، ثم ألقى إليه بها . وخرج عقب الدرس .
فظن أنه قد بالغ في لوم الطالب ، وإيلامه أمام إخوانه ، إلى حد ليس له فيه
حق ، فعاد في الحصة التالية — وقد شغل الدرس مدرس آخر ، فاستأذنه —
وقدم اعتذاره إلى الطالب عما بدر منه على مرأى ومسمع من الطلبة جميعا !
شغفه بهذيب الناس ونشر الفضيلة :

ولقد كان الأستاذ سقراطى النزعة ، ينتهز الفرص أو يخلقها ، فيحاول أن
يعرس في النفوس حب الفضيلة ، وعمل الخير ، ويبحث منها جذور الرذيلة
والميل إلى الشر ، وعكف على ذلك ، وحبس وقته عليه ، وكان في أخريات أيامه ،
— بعد أن أحيل إلى المعاش — أقصى ما تنزع إليه آماله فقد قضى هذه الفترة متقللا
بين أياكة ومنية المرشد ، يرتاد المساجد ، ويندس في غمار الفلاحين . فيجادلهم
في شئون شتى ، ويتخذ من لباقة في التعبير ، ودرأته بطباع الناس ، أسهما
يسددها إلى غرضه ، فتقع حيث يريد .

وشغف أخيرا بزيارة كتاب منية المرشد ، ورأى في أطفاله منبتا خصبا يستطيع
أن يذر فيه تعاليمه ، فتوثق أطيب الثمرات . فكان يتعهد التلاميذ بأسئلة ، يرمى
من ورائها إلى غرس خلق كريم ، أو استئصال خلة ممقوتة .

وأذكر : لقد قدم الى الكتاب ، يحيط به جمع من مشيخة القرية ووجهائها
واختار من بين أطفال المكتب طفلا ألقى عليه الأسئلة الآتية :

قال : ما اسمك ؟ واسم أبيك ؟

قال : وما صناعته ؟ — حلاق .

قال : فأى عملائكم أحب إليك ؟ وآثر لديك ؟

فنظر الطفل الى من صاحبوا الأستاذ في زيارته ، ووفق بعدد أسماءهم واحدا
واحدا ، عندئذ ثارت ثائرة الأستاذ ، وبدا الغضب جليا على محياه ، وأوسع
الطفل لوما وتقريفاً ، جزاء ما ارتكب من النفاق . ثم مال الى التلاميذ يحذرهم
من أن يحدو أحدهم حدو زميلهم ، ويقبح تلك الخلعة ، ويرسمها لهم في صورة
من أنكر الصور . على أن عبارته — حين كان يقذف باللوم أولا ثم حين
كان يقدم التحذير ثانيا — لم تخرج عن هذوئها ، وسلامتها ، وترتيبها ترتيبا
منطقيا بديعا

دقة ملاحظته

وكان يغوص بنظره فيما حوله ، ويتغلغل فيه بفكره ، كما يغوص اللآل إلى
قرار البحر ، ثم يعود محملا بأنفس اللآل ، وأندر الدرر .
من بين رسائله رسالة يقص فيها مشاهداته حين ركب الباخرة في طريقة الى
ألمانيا يحدثنا في فقرة من فقراتها فيقول :

وكان من بين الأطفال الذين بالمركب طفلة فرنسية ، غاية في النشاط
والذكاء ، تبلغ الخامسة من عمرها ، كانت هي التي تبدأ كل رجل وامرأة وطفل
بالكلام ، حتى لقد انقضت بعض أوقات الأكل — حيث يجتمع المسافرون —
والحديث متروك لها توجهه إلى من شئت ، وتنقل فيه كما أرادت ، وكانت —
إلى هذا — كثيرة الحركة ، سريعة التنقل ، وأكثر ما يظهر ذلك على سطح
المركب ، حين يصفو الجو ، وقد رأيتها حدثت كل كبير وصغير ، الاذينك
الطفلين الأخوين الانجليزيين . فانها متى اقتربت منهما لتلعب معهما — ابتعدا
وأعرضا عنها ، ومتى دعتهما الحداثة وحب الحركة وما بين يديها من وسائل

اللعب الى الاقتراب منها — قطبت لهما وجهها، وأشارت إليهما بالابتعاد. لا في صورة خوف من أن يقع نزاع بينهم، بل في صورة أخرى. فإذا كان الاستشهاد بذلك مما يستقيم — صح لنا الحكم أن في التربية الانجليزية عاملاً على تمنع الانجليزى عن مخالطة سواه.

إنتاجه

وكان رحمه الله حركة دائبة في العمل والإنتاج، لا يترك فرصة تسخ إلا شغلها بما يجدى ويفيد. فله عدة رسائل:

إحداها يبحث فيها عن سيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، يقول عنها: تناولت أكثرها من طبقات ابن سعد. وتوخيت في رسالتي هذه — أولاً وبالذات — عمر في باطنه وحقيقته..

ورسالة أخرى عن الجامع الأزهر، يبحث في أنظمتها، وعلومه، ويدلى — فيما بين ذلك — بما يعن له من آراء في إصلاحه

ورسالة ثالثة موضوعها تحرير المرأة، كتبها يوم كان هذا الموضوع هو الشغل الشاغل لأذهان المصريين وألسنتهم وأقلامهم جميعاً ومن بين رسائله رسالة يسميها رسالة التلميذة.

وله عدا ما تقدم — قصة مصرية من تأليفه. ولعل أنفاس ما كتب رسالته في علم الأخلاق، يوم كان يتولى تدريسه في دار العلوم، وتلاميذه يحرسون عليها، ويعبدونها أثمن ما يقتنون.

ثم قصصه التي ترجمها عن الألمانية، والقصة منها لا تعدو بضعة أسطر. وفي اعتقادي أنها لو نشرت — لكانت خير كتاب يحجب القراءة المنزلية إلى صغار التلاميذ. وله آثار أخرى. وكل هذه وتلك تحتاج الى دقة فحص، وشدة عناية، ومن أولى بذلك، وأقدر عليه من حضرات الأساتذة أبنائه الذين تخرجوا على يديه في دار العلوم؟

الشيخ عبد المطلب^(١)

شاعرنا وصلته حسنة بين الجديد والقديم

بقلم محمود ناصر

المدرس بالقيوم الابتدائية

٢

يخيل إلى أن تلك المعركة الحامية بين الجديد والقديم قد أثارها كتاب الدكتور طه حسين (في الشعر الجاهلي) ورد الأستاذ الشيخ عبد المطلب عليه في جريدة الأهرام ثم في المقطم وما تبع ذلك من شرح مذهب ديكرت في البحث . بدأت تلك الحرب الضروس من ذلك العهد وكنا نترقب الردود ترقب المدجج للقمم وارتقاب الزهر للبطر ثم عقببت تلك الحرب هدنة استمرت إلى حين حيث غير الكتاب وحذف منه ما كان موضع التحاور والجدل وأصبح اسمه (في الأدب الجاهلي) عند ذلك سكت الشاعر الكبير ، ولكن الدكتور زكي مبارك وهو أحد تلاميذ الدكتور طه حسين أراد أن يبعثها من جديد شعواء فكانت سجالا بين طائفتين اقتتلوا وليس بينهم من بعد الشقة واختلاف الجنس وتنازع المأرب ما يبرر أن تدور رحاها وتذجج فيها تلك المقالات التي استنفدت وقتا كبيرا كان يجمل أن ينفق فيما هو أجدى وأنفع ، وشاعرنا رحمه الله لم يكن لينازع في منفعة بعض الجديد بل كان كثيرا ما يبحث على الأخذ بما هو نافع ومفيد ، ماثلا كل الميل إلى الناحية الدينية إذ أنها تصلح لكل زمان ومكان وهو لا يحرم الانتفاع بما خلق الله من مرافق وبما ظهر من بحث يتمشى مع جانب الحق مادام ممكنا

(١) راجع الجزء الأول من المقالة في ص ٩١ - ٩٧ من العدد الأول من السنة

وهو يثق كل الثقة بمؤرخي العرب ويود لو يدرس الناس مؤلفاتهم وكتبهم، وقد سفيه الدين أحلام الناس الذين يستمسكون بالقديم البالي وبما وجدوا آباءهم عليه من غي وتضليل، وكان كثيرا ما يقرأ تلك الآية على أسماعنا، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا. أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون؟، وهو يحافظ شديد الحفاظ على ما يراه صالحا لا يتعارض مع قيام تلك المدنية مع شيء من خشونة الطبع والعنجهية فهو إن ركب الحمار أو الجمل لا يعدم أن يركب السيارة أو القطار، ولو طالت حياته لرأيناه يركب الطائرة يشق بها أجواز الفضاء لعله يلقى بها على السحب الامام عليا، كما يقول في علويته وكما ركبها الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشري وأمتع الناس بوصف جميل وحديث طريف عنها وليس عابا أن يحافظ المرء على شرف آبائه وأجداده ويملا فاه نخرا بمجد العرب وآثارهم. ولقد تعجب إذا رأيت بعض السائحين والسائحات في هذا العصر يركبون الابل ويقتنون نفائس الشرق على تطاول العهد بقدمها ولقد لخص الأستاذ الأديب الحاج محمد الهراوي رأى فقيدنا في الجديد والقديم بقوله «ألا وإن شعرك الرائع في بداوته، السلام بدياجته، لهو المصباح الذي بنوره يدفع الخطر الداهم من دعاة المدرسة الحديثة الذين يدعون إلى التقليد باسم التجديد فيقولون من الغرب ما لا يلتئم في شيء مع الشرق، فهم كالمئب لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى، وتلك تجارة ماجرت سوى الخسارة، ولقد كنت يا أخي مخاطب شاعرنا، حزبا على هذه الدعاية المزجاة التي لم يظهر لها مثل صالح للأخذ به في النثر أو في الشعر، وكان عندك كما هو عندى معك أنه وإن كان من المتبادل بين الأمم تطعيم أدب بأدب وتلقيح فكر بفكر إلا أن لكل أدب ذاتيته ولكل أمة وجهة تفكيرها فلا يجعل بنا ولنا أدب عتيق وتراث مجيد - أن نفنى أدبنا حيا في تقليد أدب الغرب وجرياء وراء المختالين بتعلمهم في معاهده في ذلك نزول عن عزتنا القومية وضياح لتراث هذا اللسان العربي الغنى بأدابه، المعجز بآيات كتابه، هذا رأيه وتلك عقيدته فهو لا يعجبه هذا اللون من الأدب الجديد من مكشوف أو واقعي أو قوى، ولا تلك القوضى التي تراها في القوافي والخروج

في الأوزان على البحور المشهورة وغيرها، جريا وراء الشعر الأوربي؛ وإنما ذلك حيلة العاجزين في اللغة، الفقراء في أدبها ومفرداتها، وهم أقرب ما يكونون إلى المستعجمين. ألم ترهم ينادون بأحياء اللغة العامية في المسارح والتمثيل، وإلى التراجيح الحرفية من أدب الغرب من غير أن يلبسوها ثوبا عربيا بليغا؟ وأمثال هذا كثير في الصحف اليومية والأسبوعية. من هذا ترى أن أدبه حلقة اتصال بين الماضي المجيد والحاضر الممتع، حفظ به تراث العرب ودياجة شعراء القرنين الثالث والرابع، كما حفظت الدولة العباسية مجد اللغة واحتيتها في كل مكان، فانتشرت المؤلفات، وكثر الأدباء والخطباء والشعراء والكتاب يقتبسون من أدب الفرس والروم ما شاءوا وشاء لهم الذوق العربي المين، فتقبلت اللغة في أيامهم كل ما رآته من معالم الحضارة والرقى، وأدخل نظام التعريب، وتقدمت اللغة ولم تقف حجر عثرة في سبيلهم، وكثر المترجمون وغيرهم، وأدخلت الحكم الفارسية واليونانية والآراء الفلسفية والعلوم والفنون. وكأني بشوق بك وقد تمشى مع رأى فقيدنا يؤيد هذا الرأي بقوله:

لا عز للأقوام حتى ينهضوا بقوادم من أمسهم وخوافي
وإذا قرأت شعر هذا الشاعر رأيت أنه ذو لونين مختلفين وقد عبر عن نفسه بقوله:

ولنا إذا شئنا جزالة جرول وإذا نرق فتوبة وجميل
وقبله:

دان القريض لنا؛ فأماروضه فحني، وأما صعبه فذلول
فهو إذا تبدى لا يرى في سماوة فكره سوى الظعائن والحدوج وكشبان
الرمال والحيام والصحراء وترسم الآثار والأطلال والدمن البوال؛ فخرج شعره
كثير الغريب والمعاني البدوية التي لم تكن تطيرها رقة الحضرة؛ فهو بجسمه في
القاهرة، وبروحه في نجد وتهامة؛ وإذا تحضر كان أرق من النسيم إذا سري، وأصفى
من السلسيل. وأذكر أنه كان في الحفل الحاشد الذي أقيم لتأبين شيخ الشعراء
(هـ - صحيفة دار العلوم)

إسماعيل باشا صبرى ينشد قصيدته التى أولها :

بارحات بالوادين هوائى يا حجام الرياض عزَّ القوافى

وقد أنشدت قبله قصيدتا أمير الشعراء وشاعر النيل فهم أحد الحاضرين
الآدياء - وقد سأل عن الشاعر فعرفه - يبحث فى جيبه عن معجم فقل لى
يعيشك لو لم يهيا للغة العربية أمثال هذا الشاعر الكبير : أكان الناس يحفلون
بهذه الألفاظ التى أتى بها وأحياها فى شعره ، وهى اللغة الفتية الفصيحة الكلم ،
البلغة الأسلوب ؟ ولعلك أيها القارئ الكريم أدركت السبب فى استمساكه بهذا
المذهب وحرصه عليه ؛ ولذلك يقول عن اللغة :

من لم يحط بقديمها لم يعتقد علما بمجد الشرق وهو أثيل
وخذ المعانى فى جمال جديدها ماشئت ، لا حرج ولا تخذيل

وله رأى طريف فى الجديد لأنه يعتقد أنه سليل القديم

مازوا الجديد من القديم ، وما دروا أن الجديد من القديم سليل
جلبات إفك ، فى مهالك فتنه هوجاء ، كيد غوائها تضليل
إن كان ما زعموا قديما ديننا فليات منهم بالجديد رسول
أو إن يكن لغة السماء فإنها القرآن والتوراة والانجيل
أو ذلك الأدب الذى شهدت به فى كل شعب بالجمال عدول
زخرت به أم اللغات ، ولم تزل بعلاه تفتزع اللغى وتطول
وسيعلمون إذا الحقيقة أعرضت أن الضلالة جندها مخذول
وترى الجديد يصيح فى حجراتهم : يا قوم ، عن تلك المهالك زولوا
ما فى القديم معابة إن لم يكن فيه عن السنن السوى عدول
وذو الجديد إذا رأيت سبيله عوجاً عن الحق المبين تميل

فهو يحفل بالجديد المفيد غير ذى عوج عن الحق المبين ؛ فأنت ترى أن تلك
الجلبات بين القديم والجديد لا أساس لها ، ولو كان شاعرنا نال من بهجة الحياة
وزينتها مانال شوقى أو البارودى ، وخرج عن مصر ، ورأى العالم الأوربى . وعرف
صفات الناس وأخلاقهم وعاداتهم ، وشاهد هذه المناظر المختلفة ، ومنح اطلاعا

على أدب الغرب، أو درس لغة من لغاته الحية - لكان له شأن غير هذا الشأن؛
ولكنه أخذ بالثقافة الشرقية، ولم يتزود إلا بما ترجم من كتب ومؤلفات، وما
نشر من بحوث. وهو ذلك الرجل الذي ضوى جسمه، وضعف بصره، وحالت
قيود الوظيفة دون ما تبغيه نفسه؛ ومع كل أولئك فقد بارى الشعراء وجاراهم
وظهر بينهم علما واضحا، وشاعرا خلا، نغم الألفاظ، متين القافية، رصين
الأسلوب، غزير المعاني. وربما فاق أترابه في بعض قصائده أو مشى معهم جنبا إلى
جنب. ولقد بين شاعرنا حالة التدريس وما جرت عليه من بلاء وعناء؛ فقال من
قصيدة أشدها في نادى طلبة المعلمين العليا عام ١٩٢٤:

فهل قدر الناس المعلم قدره	إذا ذكروا أهل البلاء وقدروا
بنى مصر، ما بال المعلم كاسفا	يرى الناس فيها يكبرون ويصغر
سبيل التبيين الكرام سبيله	يعم به الدنيا صلاحاً فتعمر
سلوا عنه جنح الليل، كم بات متعبا	تمام حوالبه العيون ويسهر
سلوا عنه عينا قرح السهد جفنها	يخط عليها في الظلام ويسطر
سلوا عنه جسما بات بالسقم ناخلا	فلا البرء مأمول ولا هو يعذر
سلوا عنه أسفارا قضى الليل بينها	غريبا عن الدنيا وأهلوه حضر
سلوا عنه قلبا بات يخفق رحمة	على فتية من حوله تتصور
يروّعه صرف الليالي عليهم	وعات حوالبهم من البؤس يزأر
فإن مد للدنيا يدا يستمدها	لهم، عنه ولت وهي غضبي تشز
سلوا عنه إخوانا قضى العمر بينهم	غدوا في ثراء وهو بالفقر أخبر
فيا ويحه إكم يشتكى في حياته	وكم يتلقى من بلاء فيصبر!

فمثل هذه الحال لا تدعو إلى ابتكار كثير، أو تجديد كبير في مجال القول،
ركم من الأدباء غمرتهم الوظيفة وكادت تقضى على أدهم الجهم ونفوسهم الآلية
الوثابة، خصوصا المعلم الذي قضى العمر تأثما بين الدفاتر والمجاهر حتى هزل جسمه
وكل بصره، تمام حوالبه العيون ويسهر،
وإن أهم باعث على هذه النهضة الأدبية التي نظمت نواحي القول من شعر

وخطابة وكتابة ، تلك الثورة المصرية التي قامت عام ١٩١٩ ، فعمت البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، وقبلها قيام الحرب العظمى التي نهت الأمم من سباتها ، وأيقظت العقول من رقادها ؛ فظهر الشعراء ، وتبارى الخطباء ، وتساجل الكتاب ، وامتلات الصحف والمجلات بالمقالات البليغة ، والخطب القوية ، والشعر الحى ، وكثرت الأندية العلمية والأدبية ، ونمت الثقافة الشرقية ، واتجه الناس إلى محاسن الثقافة الغربية ؛ ثم ما أدراك ما يفعل النفى ، والاعتقال ، والتشريد ، والسجن ، والتعذيب ، والمصادرة فى نفوس الناس ؛ خصوصاً ذوى الاحساس الرقيق ، والشعور القوى ؛ حتى كأن النفوس مراجل تغلى وتثور ؛ فامتازت الخطابة والشعر ، وظهر شاعرنا البدوى مسجلاً هذه الحوادث ، وخب فيها ووضع ، وهو يعد من شعراء هذه الثورة ، وأحد زعمائها الذين ذنوها بألسنتهم وأقلامهم ، كما كان البارودى ، وعبد الله نديم ، من زعماء الثورة العراقية ؛ ولعل بما محمد لشاعرنا أنه لم تفته حادثة إلا سجلها بشعره الخالد ؛ فمشى مع الوفد ، وسار مع زعيمه ، كما سألينه بعد ، عند الكلام على الناحية الاجتماعية والسياسية . وها هو ذا شعره يشهد له بذلك ، وهو لا يخلو من الأغراض المعروفة فى الشعر : من نسب وغزل ، إلى غفر ووصف ، ومن مديح وورثاء ، إلى شعرا اجتماعي ، وآخر سياسي . ولابدأ بدراسة هذه الأغراض :

غزله ونسيبه

قلما ترى شاعراً لم يتخذ الغزل والنسيب غرضاً من أغراض القول ، أو يجعله مقدمة لغرضه من مدح أو غفر أو وصف أو اجتماع أو سياسة ؛ وهو محبب إلى النفوس تنجذب إليه انجذاباً ، وتميل إليه كل الميل ، فلا غرو إذا أتى شاعرنا بشيء كثير منه ، ولكنه لم يكن قائماً وحده ، اللهم الاذالية أسوان التي تقدم الكلام عليها وغيرها ، وأعجب ما نعجب له أن الشاعر مهما بلغت سنه وتقدم عمره يميل إلى الغزل ، ويسهل به قصيده ، ويورى به عن غرضه ، وليس للترجم معان مبتكرة فى هذا الغرض بل هو يحاكي غيره من الأقدمين ، ويجرى على غبارهم « جرى المهار على غبار خصاص » ، ولا يعد من الشعراء الغزليين كآبى الخطاب وكثير

وجميل والعباس؛ ولم يخرج عن ذكر الطيف إذا سرى، وحرق الجوى، ومرارة
النوى؛ كما تمدح بالأرق والسهاد وتقرح الجفون؛ تهيج الشمال إذا هبت،
والجنوب إذا عصفت، ويغار من سجع الحمام وهديله، ولا يخرج عن بكاء الديار
ووصف الظباء والظعائن والحدوج؛ ألم تره في قصيدته التي قالها في الحرب والغلاء
بمصر وحال موظفي الحكومة ووفاء النيل عام ١٩١٨ كيف يستهلها بقوله:

لو ان المنى أسعدتني برجوع لما صليت حر الغرام ضلوعي
يقول أناس: أنعمت نعم بالمنى . فما بال جفنى مغرقا بدموعى ؟
مالي لزور الطيف أستشفع الكرى فتأبى جفوني أن يكون شفيعى
وأرقب نجم الليل غير أن ، أنه يرى آل نعم عند كل طلوع
فله أيام العقيق وما حوت ربوع بنجد كن خير ربوع
يذكرنيها ساجع النيل إن شدا على جنبات النيل بعد هزيع
وهكذا ترى غرامه بنجد والعقيق قد ملك عليه مذاهب القول، وإن كان
يسكن القاهرة . وهو في ذلك يبين أن هواه نحو منبت شعبته ومغرس أرومته، وإن
أثر عنه بعض الغزل في القاهريات، ولكن هذا الميل الطبيعي في نفسه جعله يؤثره
على غيره من الأوصاف الأخرى؛ فتراه في مرثيته للرحوم الشيخ علي يوسف
صاحب المؤيد يقول:

تجافى بنا نجد فهل أنت منجد وجدت بأهليه النوى فتبددوا
ذوى نبتة لما جفا المزن تربه ومر به خلو من العيش أرغد
وما كان إلا مرتع اللهو تنهى إليه أمان صادرات وورّد
أجبرتنا بالجرع ، نرتقب اللقا على الدهر، أم ذاك الفراق المؤبد؟
عدونا - إذا بانك بكم عن رباعنا نوى قذف - بالعود، فالعود أحمد
ويقول في مدحته اصحاب الجلالة ملك نجد والحجاز عند تكريم الأستاذ
الشيخ حافظ وهبة وقد خلعت عليه عباءة نجدية في الحفل:

برق يلوح وسائق يحدو يا شوق هل لك غاية بعد
ونوى تشط بنا مطرحة أنا بالغُوير ودارهم نجد

ويقول في غزله بالقاهريات وسيف الجزيرة من قصيدة تكاد تسيل رقة
وعذوبة :

على النيل من سيف الجزيرة جودر هفا تائها والحسن بالتيه يأمر
مدل بريعان الصبا، فهو ينشئ دلالا كما شاء الجمال ويخطر
زهاه الربيع النضر والماء جاريا به النيل في أفلاجها يتحدّر
وأسكره من جانب الروض نفحة سيقاه بها ذاك النسيم المعطر
فما أنس م الأشياء لا أنس موقفي وقد مر في أترابه ينتظر
يز القوام الغض في بخيرية وحسن المني بالقاهريات أجدر
من اللأء علقن الرباط طيب نشرها وعرفن أقمار الدجى كيف تقمر
كساهن روق الحسن نعى أثيلة وعزبه تطوى العصور وتنشر
لهن علينا في الخدور كرامة يعز بها ذاك الجمال المخدّر
خدور بيناها وقنا حياها كما قام دون الغاب ليث غضنفر
وهو في هذه القصيدة وأمثالها يحاكي عمر بن أبي ربيعة في رائية المشهورة
التي أولها :

أمن آل نعم أنت غاد فبكر غداة - غد أم راح فمجر
ولست تلك القصيدة وحدها هي التي قيلت في الغزل بالقاهريات ، بل له قصائد
ممتعة خالدة ، وأغلبها محاكاة وتقليد ؛ إذ ليس الغزل من الأغراض التي عنى بها عنايته
بغيره . فيقول من قصيدة أخرى أنشدها في حفلة كبيرة بدار التمثيل العربي وسميت :
« سوق عكاظ » ، برياسة المرحوم أمير الشعراء شوقي بك نابعة هذا العصر عام ١٩٢٢
وكانت هناك مباريات بين الشعراء والأدباء :

ولم ينسى وجدى به أن لى هوى يحن إلى طرف بمصر كحيل
من القاهريات التي لم تر اللوى ولا نزلت في حومل ودخول
سيقاها معين النيل روقا من الصبا وميعة قد بالدلال فيمول
وأوحى إليها روض مصر شاملا تظل بها نشوى بغير شمول
فتراه في هذا الغرض مقصرا ، لم يبلغ شأو الشعراء الغزلين كأبي الخطاب

وكثير وجميل وغيرهم، فحاکهم وجرى معهم كما تقدم القول؛ وليس معنى هذا أنه لم يصدر عنه ذلك الغزل الرقيق ذو المعاني القيمة الحضريّة كقوله من قصيدة في الفخر عام ١٩٠٨ فأبدع أيما إبداع :

ولم ينسني عهدي به منزل الغضا وغر لي ليل فيه مزدهرات
ولا مسرح الآرام فيه أوansa تهادين في شرخ الصبا خفرات
حسب لعاب الشمس ذائب عسجد فأقبلن في الأصال منتشرات
شموس نهار يهر العقل أنها بدت بسواد الليل محتشرات
بدت كغصون البان أسكرها الصبا فماست على أعطافها خمرات
وقفن فؤادي بالدلال على الهوى وبالصد أجفاني على العبرات
وأغرین بی طیفا ألم فأسرعت بنفسی علی آثاره حسرائی
ترامین إذ جئن الخائل غدوة رقیبا، فأقصرن الخطا حذرات
وعدن على الأعقاب يخبئ أنفسا صعبا على غير الهوى عسرات
ثم تراه بجانب هذا يعارض المشهورات من القصائد، كقوله يعارض قصيدة ابن هاني الأندلسي التي أولها :

فتكات لحظك أم سيوف أيك وكئوس خمر أم مراشف فيك
فقال رحمه الله :

لو كنت وامة كما زعموك يا عز، ما كذبت ظنوني فيك
قالوا تملكها الغرام وشفها برح الجوى البين، يوم لقوك
حسبك صادقة، ولو علموا بما حملتني بالغر ما حسبك
ومنها :

يا بيضة الخدر المنيع أما كفي خديك قاني دمي المسفوك
ومنها :

أنا من عرفت له إذا احتكم الهوى عز الأبي وذلة المملوك
ثم تراه في بعض القصائد يخرج عن كل ما مضى من ذكر الاطلاق والدمن البوالى، شأن أبي نواس ومن لف لفة، متناسيا ذلك، كقوله في قصيدة يذكر فيها تقليد الأجنبية :

مالي وللربيع الخيل أبكيه بالدمع الهطول
 نوح الحمامة رجعت بين المعاهد والطلول
 أو كائن جُر إذ بكى ما بين حومل والدخول
 كلا ولا أبكي الظعا (م) ثن في الهوادج والحول
 تخدى بها نجب السرى بين المتالع والسهول

ويقول من قصيدة أخرى بعثها إلى بعض أصدقائه عام ١٩٠١

يا جيرة الحى ، بان القلب بعدكم فليس يهنا لى فى بعدكم بال
 الله فى كبد بعد البعاد جرت من الجوى فى مسيل الدمع تنهال
 سارت بها يوم جد البين ناجية فى كل واد لها وخذ وإرقال
 تجفوا المبارك شوقا لا يطيب لها دون السرى الأخضران: الطلح والصال
 تروى بنعمة حادها إذا ظمئت فتأفف الماء وردا وهو سلسال
 ترمى للفجاج بأماق يروعها فى سيرها اللامعان : البرق والآل

فهو كثير الترحال فى ريف مصر ، يكلف بالعيش والجمال ، والوخدان والإرقال
 ثم يراها تطعم الطلح والصال ، وقدر وعها فى سيرها البرق والآل ، مع أن له مندوحة
 عن الاهتمام بها والكلف بحبها ؛ ولكنه يتحدثنا فى كلامه هذا عن نشأته البدوية ؛ فهو
 يريد أن يصقل ما أمامه بصقال من صفاء الصحراء ، ويزينه بجمال الحذاء ، ويتمتع
 نظره بما وراء الخباء من جمال وحسن غير مجلوب بتطرية ؛ ومثل هذه المعاني لا تروق
 شبان الأدب وطلابه المحدثين ، فتراهم يضربون الذكر صفحا عنه ، فلكل عصر جماله
 وميزته ، ورأيه هذا قد وضخناه فيما سبق ، فهذه الحضارة والمدنية التى عمت النجاد
 والوهاد ، وامتد ظلها فى كل صقع وناد ، لا يروقه بهرجها ، ولا يأخذ بلبه زخرفها
 وزينتها ، ألم تسر فى طريق الخلق القويم ، وكان الدين دعامتها ، والتقى بمجد الآباء
 والأجداد بهجتها ، فهو يروم إحياء هذا المجد بكل ما يستطيع ، إن كتابة وإن شعر
 وخطابة ؛ ومع ذلك ترى ديوان شعره لا يخلو من رقة الحضريين حتى يخيل إليك
 أنك انتقلت إلى جدول صاف يسيل ماؤه أى مسيل ، ويروك خريه ، وتعجبك
 طيوره الشادية وما غرس على حفافيه من ورد وريحان ، وآس وأقحوان ، فيقول :

صب به ذهب شجونه بيكي فتسعد به جفونه
لو لم يطع أمر الصبا في الحب ما ثقلت ديونه
ما زال بين ملاعب الآرام مذكاة عيونه
مستهدفاً لفتونه جهلاً فخاق به فتونه

ومنها:

يا هل درى ظي الكنا سر يعض ما يلقى رهينه
وبأن لي قلباً على حكم الهوى غلقت رهونه
يمسى ويصبح في الحنة بين وليس ينفعه حينه
لو شاء كتمان الصبا به أعربت عنها شئونه
يا قلب صن عهد الهوى لا كان قلب لا يصونه !
قسماً به ، أنا لا أخون ن ذمامه أنا لا أخونه

ومنها:

حيًا الحيا عهد الصبا ذهب بشاشته ولينه
أيام لا بعد يروعه ولا صد يشينه
أيام يخطر في القوا م اللدن يزهاه جبينه
ما البان منه إذا ترنح بالدلال وما غصونه ؟

وقد وفق بين السياسة والغزل ، فاستهل برقيقه في بعض قصائده ، عند انشقاق

الزعماء ومقتل السردار :

أذنت لطيف خيالها بلمام أترى الخيال يزور غير نيام !
يا طيف ، ما أنا بالذي نصب الكرى شركاً لكاذبة من الأحلام
أنا من إذا لعب الغرام بأهله لم يلحنى عما أجن غرامى
قلب يذوب مع الجمال وهمة تأبى على مساقط الأحلام
وإباء أوع لا يراع إذا الردى حلكت حواشى ليله بقتام
وحفاظ نجد لا تلين قناته يوم الحفاظ ولا يرام لرامى

شيم على الإسلام لحة نسجها وسداتها إرث عن الإسلام
 فاقني هواك، هوى الحسان خديعة تقف الفتى بمزالتى الأقدام
 أنت التى سعلتني سرف الهوى إذ أمتلتك يد الشباب زماي
 عنى إليك، أرقت أكوأب الصبا يد الحلوم وعفت روق مداي
 وهكذا تراه يتنقل بك فى ديوانه من روضة أنف، إلى روضة مثلها، تقطف
 ما شئت من معنى بدوى، أو لفظ غريب، ومن معانى كستها الحضارة بركتها فى
 ألفاظ منتخبة كأنما يضع الشيء فى موضعه، بما يدل على حسن ذوقه وسلامة طبعه؛
 وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق؟

عيسى محمود ناصر

طرائف اللغة

بقلم مهدي احمد خليل

المفتش بوزارة المعارف سابقا

٢

ذات:

هي مؤنث ذو ، فذات مال ، معناها صاحبه ، ويقال في التثنية : ذواتا ، وفي الجمع : ذوات ، وقد تنقطع عن الوصف وتستعمل في معان أخرى كالحقيقة في قولك : ذات الشيء أي حقيقته ، والطاعة والرضا في قول الشاعر

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يُبارك على أوصالِ شلوي ممزَّع

وقول آخر :

ويضرب في ذات الإله فيوجع

وقول عائشة رضي الله عنها حين رأت رجلا متهما خامدا الحس والحركة فقالت : ما هذا ؟ فقيل لها رجل زاهد ! فقالت : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه زاهدا ، وكان إذا قال أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب في ذات الله أوجع ، أي ضرب مذنبا لإرضاء الله بتنفيذ حدوده ، ومن ذلك الحديث : إن من أعظم الناس أجرا الوزير - الصالح من أمير يتبعه في ذات الله ، أي في رضاه .

والحالة في قوله تعالى (وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) أي الحالة التي يجتمع بها المسلمون على طاعة الله ورسوله ، والمراد إسكان الثائرة والفتنة ، ومثله الحديث :

اللهم أصلح ذات البين . والجهة في نحو : ذات البين وذات الشمال . والمرض نحو : ذات الرئة وذات الجنب . والسريرة في نحو : عرفته من ذات نفسه ، أي سريره

المضمرة . والمال في : قلت ذات يده ، أى المال الذى فى يده . والباطن والنفس
فى نحو : عليم بذات الصدور . أى بنفسها وباطنها ، وقد كنى بالصدور عن القلوب ؛
ومنه قول الشاعر

فَنِعَمَ ابْنُ عَمِّ الْمَرْءِ فِي ذَاتِ مَالِهِ إِذَا كَانَ بَعْضُ الْقَوْمِ فِي مَالِهِ كَنَبَا
أى فنعمة فعله فى نفس ماله من الجود والكرم اذا بخل غيره .
والعبادة فى قول الشاعر

مَجَلَّتْهُمْ ذَاتُ الْإِبِلِ وَذِينَهِمْ قَوِيْمٌ فَمَا يَرْجُونَ غَيْرَ الْعَوَاقِبِ
والجملۃ الصحيفة ، أى كتابهم عبادة الله . والوقت اذا أضيفت الى الزمان
نحو : لقيته ذات العشاء ، وذات صباح ، وذات يوم . وذات ليلة ، وذات غداة . وذات
صَبُوحٍ ، وذات غَبُوقٍ (الصُّبُوحُ : الغَدَاةُ والغُدُوَّةُ والضُّحَاةُ ، أى أول النهار ،
والغَبُوقُ العِشِيَّةُ) وذات الزُّمَيْنِ (تصغير الزمن) أى منذ زمان طويل
مضى ، وذات العُويْنِ (تصغير العام) أى العام الثالث مما مضى فصاعدا الى
ما بلغ العشرة . وقيل معناهما : منذ ثلاثة أزمان وثلاثة أعوام ، أو منذ مُسَيَّاتٍ ،
أو منذ ثلاث سنين مضت . أو أربع ؛ أو ذات مرة ، قال أبو البقاء : ومرة فى قولك :
خرجت ذات مرة ظرفُ زمان إذا أردت بها فَعْلَةً واحدة من مرور الزمان ،
وإن أردت بها فَعْلَةً واحدة من المصدر مثل قولك لقيته مرة ، أى لَقِيَّةً ، نهى
مصدر عبرت عنه بالمرّة ، لأنك لما قطعت اللقاء ولم تصله بالدوام صار بمنزلة
شئ مررت به ولم تُقِمْ عنده ، وإذا جعلت المرة ظرفا للفظ حقيقة ، لأنها من
مرور الزمان ، وإن جعلتها مصدرا فاللفظ مجاز ، إلا أن تقول مررت مرة ، فيكون
حينئذ حقيقة ، وفى قولهم مرة بعد مرة ، نصب على المصدر ، وقد يكرر بلا فصل
فيقال : مرة مرة ، والثانى تأكيذا للأول ، كقوله الكتاب باباً باباً ، وفهمته
حرفا حرفا

ويقال : لقيته ذات المِرَارِ ، أى مرارا كثيرة ، وفلان يصنع ذلك الأمر
ذات المِرَارِ ، أى يصنعه مرار ويدهه مرارا

هذا . ولا تقل ذات شهر ، ولا ذات سنة ؛ لأنه لم يسمع في غير ما تقدم وذات ، عند إضافتها للوقت تلازم النصب على الظرفية ، وإنما أنث فقبل : ذات العويم وذات الزمّين ؛ لأنهم ذهبوا به إلى المرة والآنية الواحدة ، وإضافتها إلى ما بعدها من أسماء الزمان من قبيل إضافة المسمى إلى الاسم ، أى في وقت مسمى بالعشاء ، وقيل من إضافة العام إلى الخاص ، وقيل إن ذات مقحمة لتزيين الكلام ، وقولهم : أمّا أول ذات يدين فإني أحمد الله ، معناه أول كل شيء ، ومثله لقيته أول ذات يدين ، ولا أفعله أول ذات يدين . وقولهم : ما كلمت فلانا ذات شفة أو ذات فم ، معناه ما كلمته كلمة ، ومثله : كلمته فأرد على ذات شفة . وغير ذات الشوكة في قوله تعالى : « وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم » ، معناه الطائفة التي ليست صاحبة الشدة في الكفاح . وجاء من ذات نفسه ، أى طيعاً . ووضعت المرأة ذات بطنها ، أى ولدت . وقد يضعون (ذات) موضع (التي) قال الفراء : سمعت أعرابياً يقول : بالفضل ذو فضلكم الله به ، والكرامة ذات اكرمكم الله بها ، قال : ويرفعون التاء على كل حال ، وذو هنا بمعنى الذى ، ويقولون : هذه ذات قالت ذلك ، أى التي قالت ذلك . وتشبه (مرة) في إعرابها كلمة (تارة) . فهي منصوبة على الظرفية أو المصدرية ، لأنها بمعنى الحين والمرة

التمثال ، والصورة ، والصنم ، والوثن ، والنصب

قال أبو البقاء في الكلّيات : التمثال ما يصنع ويصور مشبهاً بخلق الله من ذوات الروح ، والصورة عامة ، والصنم ما كان من حجر ، والوثن عام . وفي المصباح : الوثن الصنم سواء أكان من حجر أم من خشب أم من غيرهما ، والصنم مثله . وقال ابن فارس : الصنم ما يتخذ من خشب أو نحاس أو فضة ، والتمثال الصورة المصورة . وفي اللسان :

والنُصْب والنُصْبُ حجر يُنْصَبُ ليعبد من دون الله ، والجمع أنصاب

كيف يذكر النصف والأقل منه

الشيء الزائد على الواحد الصحيح إذا كان نصفاً أو أقل ، استعمل في التعبير عنه العطف ، يقال خمسة و شيء ، إذا كان الزائد على الواحد الصحيح عشر أو

تسعا أو ثمنا أو سبعا أو سدسا، وهكذا الى النصف . وإن كان أكثر من النصف، استعمل في التعبير عنه الاستثناء ، يقال : ستة إلا شيئا إذا كان الزائد ثلثين أو ثلاثة أرباع وغير ذلك

البيت ونحوه

قال ابو البقاء في الكليات : البيت اسم لسقف واحد له دهليز ، والمنزل اسم لما يشتمل على بيوت وصحن مسقف ومطبخ يسكنه الرجل بعياله ، والدار اسم لما اشتمل على بيوت ومنازل وصحن غير مسقف .

والبيت يكون من مَدَر (قطع الطين اليابس) فان كان من كُرْسُفٍ (قُطْن) فهو سراقق ، وان كان من صوف أو وبر فهو خباء ، وان كان من عيدان فهو خيمة ، وان كان من جلود فهو طرّاف ، وان كان من حجارة فهو أقبية ، والفسطاط الخيمة العظيمة . والحجرة (كالبيت والخان) مبيت المسافرين ، والحانوت مكان البيع والشراء والحانة الموضع الذي تباع فيه الخمر

وصف المؤنثة بصفة المذكر

إذا غلبت الصفة في المذكر وكانت في المؤنث نادرة فصفت المؤنثة بصفة المذكر جوازا ، وذلك سنة من سنن العرب في كلامهم ، تقول : عاملنا امرأة ، وأميرنا امرأة ، وفلانة وصي فلان ، وفلانة وكيل فلان ، ومؤذن بني فلان امرأة ، وامرأة إمام ، ولطفية طيار ، لأن هذه الصفات في الرجال أكثر منها في النساء ، ولك أن تؤنث لأنها صفة امرأة .

العقد والعقد في الأعداد

تقول : العقد بفتح العين للعشرة والعشرين والثلاثين الى التسعين ، أما ما بين العقدَيْن فيقال له عقد بالكسر ، تشبيها له بالعقد الذي تضعه المرأة على صدرها معلقا برقبته ؛ قال الشيخ نصر الهوريني على هامش القاموس في مادة بضع : قوله ما بين العقدَيْن هو بفتح العين ، لأن العشرة اى العاشر منها الذي هو رأس العقد يقال له عقد بالفتح ، أى ربط ، وأما العقد بالكسر فهو مجموع الآحاد

• كأنك بالفرح آت

تستعمل كأن للتقريب نحو: كأنك بالفرح آت، أو بالشتاء مقبل، وكأنك بالدنيا لم تكن، وبالأخرة لم تزل؛ والكاف اسم كأن على حذف مضاف في الأولين، وما بعد الجار والمجرور الخبر، أي كأن زمانك آت بالفرح، ومقبل بالشتاء، وأما الأخيران فالخبر فيهما محذوف، و(لم تكن) حال، بدليل روايته بالواو. كقولهم: كافي بالليل وقد أقبل، وبالشمس وقد طلعت، والأصل: كأنك تبصر الدنيا حالة كونها لم تكن، وكأني أبصر الليل، الخ، فحذف الفعل وزيدت الباء، ولولا ورودها بالواو لأمكن جعل (لم تكن) خبرا والباء بمعنى (في) متعلقة به، وقيل الظرف خبر و(لم تكن) حال.

مهرى احمد خليل

فوائد لغوية^(١)

٣

بقلم محمد شفيق معروف

(٢) أمات العربُ بعضَ الكلمات لأسباب قد نعود لتوضيحها ، فهم يقولون : هَبْنِي فعلتُ كذا ، أي احسبني واعُدْ ذنبي ، ولم يستعملوا غير الأمر ، وقالوا : زَوْج ، وَزَوْج ، وَتَزَوَّجَ ، وأهملوا الفعل المجرد زَاجَ ، وقالوا : ذَرَنِي أي اتركني ، لكن ما نطقوا بماضيه ولا بمصدره ولا باسم الفاعل . أما دَعَى بمعنى اتركْ ، فقليل : أُمِيتَ ماضيه ، وقيل : بل هو مُسْتَعْمَل ، ومنه قراءة بعض القُرَّاء في سورة الضحى : مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى .

(٣) لا تجتمع الجيم والصاد في كلمة واحدة من كلام العرب ، فلا إِجَاصُ^(٢) ، والصَّنِيرِيجُ^(٣) ، والصَّنِجُ^(٤) والصَّنَجَةُ^(٥) والصِّلِيجَةُ^(٦) ، والصَّوَلِجَانُ^(٧) ، والأصلَجُ^(٨) ، والصَّارُوجُ^(٩) كلها من الدخيل المُعَرَّب ، وأكثرها فارسية الأصل .

(٤) الكلماتُ الآتيةُ تَتَعَاقَبُ فيها أحرفٌ مُخْتَلِفَةٌ : —

- (١) انظر صحيفة دار العلوم ؟ العددان الثالث والرابع من السنة الأولى
- (٢) ثمر معروف ، أو هو المشمش والكثرة بلغة الشاميين
- (٣) حوض الماء
- (٤) شيء يتخذ من صفر يضرب أحدهما على الآخر ، أي صقيحة مدورة من النحاس يضرب بها على أخرى للطرب ، وآلة بأوتار يضرب بها
- (٥) عيار الميزان
- (٦) سبيكة الفضة المصفاة
- (٧) المحجن أي العود المعوج
- (٨) الشديد الامس
- (٩) النورة وأخلطها وهي الهناء ، أي القطران

الغَرَيْنُ ، والغَرِيلُ ، بنون في آخره أولام : الطَّيْنُ الرقيق الجاف الذي يُخَلِّفُهُ السَّيْلُ . حَنَكُ الغُرَابِ ، وحَلَكُهُ بالتحريك سَوَادُهُ ، ويُقال : أَسْوَدُ حَائِكِ ، أو حَالِكِ بنون في وسطه أولام .

عُنَوَانُ الكتاب ، وَعُنْيَانُهُ ، وَعُنْوَانُهُ . وقد عُنُونْتُهُ عُنُونَةً وَعُنُونَانَا ، وَعُنُونْتُهُ عُنُونَةً وَعُنُونَانَا

أَبْنٌ ، وَأَبْلٌ ، بنون في آخره أولام : أَثْنَى على الميت إِسْمَاعِيلُ ، وإِسْمَاعِينُ . وَمِيكَائِيلُ ، وَمِيكَائِينُ . وإِسْرَافِيلُ ، وإِسْرَافِينُ . وإِسْرَائِيلُ ، وإِسْرَائِيلِينُ . وَجِبْرِئِيلُ ، وَجِبْرِئِينُ قُنَّةُ الْجَبَلِ ، وَقُلَّتُهُ بالنون أو اللام : أعلاه لَصِقَ بِهِ ، وَلَسِقَ بِهِ ، وَالتَّصَقَّ بِهِ ، وَالتَّسَقَّ .

الْمَافُونُ ، وَالْمَافُوكُ ، بنون في آخره أو كاف : الضعيفُ العقل والراي ، والعاجزُ القليلُ الحيلة والحِزْمُ ، والمخدوعُ عن رأيه . جَاحِشَتُهُ ، وَجَاحِشَتُهُ بِالسَّيْنِ أو الشَّيْنِ : زاحته . حَمَسَ الشَّرُّ ، وَحَمَشَ أَى اشْتَدَّ . وَاحْتَمَسَ الدَّيْكَانُ ، وَاحْتَمَشَا إِذَا اقْتَتَلَا .

تَلَسَّمتُ مِنْهُ عِلْمًا ، وَتَلَشَّمتُ . الْغَبْسُ ، وَالْغَبْشُ : السَّوَادُ . السَّدَقَةُ ، وَالتَّدَقَةُ ، بِالسَّيْنِ أو الشَّيْنِ المضمومتين أو المفتوحتين ، ومعناها الضَّوْءُ في لغة قَيْسٍ ، وَالتَّظْلِمَةُ في لغة تميم .

الْمِجْدَافُ ، وَالْمِجْدَافُ بِالذَّالِ المهملة ، أو بِالذَّالِ المعجمة ، ومعناه جناح الطائر ، ومنه مِجْدَافُ السفينة . الْأَصِيدُ ، وَالْوَصِيدُ : الْفِيَاءُ

أَصَدْتُ الْبَابَ بِالْمَدَّةِ ، وَأَوْصَدْتُهُ : أَغْلَقْتُهُ ، وَفِي الْقِرَاءَاتِ : (نَارٌ مُوصَدَةٌ)
و (نَارٌ مُوصَدَةٌ) بِالْهَمْزَةِ وَالْوَاوِ
مَطَّ الْحَرْفِ ، وَمَدَّةٌ ، بِمَعْنَى وَاحِدٍ
الْأَرْقَانُ ، وَالْيَرْقَانُ بِالْهَمْزَةِ أَوْ بِالْيَاءِ : آفَةٌ تَصِيبُ الزَّرْعَ ، وَدَاءٌ يُصِيبُ النَّاسَ .
الْقَبْضُ بِأَطْرَافِ الْأَصَابِعِ ، وَالْقَبْضُ بِالْكَفِّ كُلُّهَا . الْأَوَّلَى بِالضَّادِ
وَالثَّانِيَةُ بِالضَّادِ .

صَافَ السَّهْمُ يَصِفُّ ، وَضَافَ يَضِفُّ ، إِذَا عَدَلَ عَنِ الْمَدَفِّ تَصِفَّتِ
الشَّمْسُ ، وَتَضِفَّتْ بِالضَّادِ أَوْ الضَّادِ إِذَا مَالَتْ وَدَنَتْ مِنَ الْغُرُوبِ ، وَمِنْهُ
اشْتَقَّ الضَّيْفُ ، وَضَافَنِي الرَّجُلُ دَنَا مِنِّي .
الْمَبْعُوثُ ، وَالْمَبْعُوثُ بِالنَّاءِ أَوْ النَّاءِ .
مَمْصَصَ الْإِنَاءِ ، وَمَضْمَضَهُ إِذَا غَسَلَهُ
الْحُسَالَةُ ، وَالْحُفَّالَةُ بِالنَّاءِ أَوْ الْفَاءِ : الرَّدَى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، أَوْ هِيَ الْقَشَارَةُ
مِنَ الْبَرِّ وَالشَّعِيرِ وَنَحْوَهُمَا .

الْجَدَثُ ، وَالْجَدَفُ بِالنَّاءِ أَوْ الْفَاءِ : الْقَبْرِ .
فَنَاءُ الدَّارِ ، وَتَنَاوَاهَا بِالْفَاءِ أَوْ النَّاءِ
الْقَوْمُ ، وَالثَّوْمُ : الْحِنْطَةُ . وَقَدْ قَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ : وَثُومُهَا وَعَدَسُهَا ، بِالنَّاءِ
اللَّثَامُ ، وَاللَّفَّامُ : الْأَوَّلُ بِالنَّاءِ وَهُوَ مَا عَلَى الْفَمِ مِنَ النَّقَابِ ، وَالثَّانِي بِالْفَاءِ
وَهُوَ مَا عَلَى طَرَفِ الْأَنْفِ مِنَ النَّقَابِ

محمد بن سفيان معروف

درة الشعر

قصيدة الأستاذ علي الجارم

لافتتاح الدورة الثالثة لمجمع اللغة العربية الملكي

ماذا طحا بك يا صناجة الأدب هلا شذوت بأمداح ابنة العرب
 أطار نوامك أحداث وجمت لها فبت تنفخ بين الهم والوصب
 واليعزبية أندى ما بعثت به شجوا من الحزن أو شذوا من الطرب
 روح من الله أحيت كل نازعة من البيان وآتت كل مطلب
 أزهى من الأمل البسام موقعها وجرس ألفاظها أحلى من الضرب
 وسنى بأخية الصحراء يوقظها وحى من الشمس أروع من الشهب
 تجدى بها اليعتملات الكوم إن لغبت فلا تحسن باضاء ولا لغب
 تهتز فوق بحار الآل راقصة والنصب للنب يجلو كربة النصب
 لم تعرف السوط إلا صوت مرتجز كأن فى فيه مزمارا من القصب
 تصنى الى صوته الأطيوار صامته اذا تردد بين القور والهضب
 كأنه وظلام الليل يكفه غثاء قدفت فى مائج لجب
 قد خالط الوحش حتى ما يروعا إذا تعرض لم تنقر ولم تثب
 يرنو بعين على الظلماء صادقة كأعين النسر أنى صوتت تضب
 هو الحياة بقفر لا حياة به كالماء فى الصخر أو كالماء فى الخطب
 بيت من نفسه فى منزل خضل ومن شبا سيفه فى معقل أشب
 يهتز للجود والمشاة باخلة والقر يعقد رأس الكلب بالذنب
 تهفو إليه بنات الحى معجبة والحب ينبت بين العجب والعجب
 إذا تنقبن إذ يلقينه خفرا فشوقهن إليه غير منتقب

تراه كل فتاة حين تفقده
زين الغناء إذا ما حل حوته
أو هز شيطانه أوتارَ منطقته
مامسً بالكف أوراقاً ولا قلباً
يطير للحرب خفياً غير مدرع
إذا دعاه صريخ كل دعوة
لا ترهب الجارة الحسناء نظرته
في البدر والسيف والضرغام والسحب
للقول لباه منه كل منتخب
فاخش الآتى وحاذر صولة العيب
ورأيه زينة الأوراق والكتب
في شدة البأس ما يغنى عن اليلب
وإن دعت دواعي الذعر لم يجب
كأن أجفانه شدت إلى طنب

جزيرة أجذبت في كل ناحية
جذب به تنبت الأحلام زاكية
تود كل من الأرض لو منحت
وترتجى العبد لو كانت لآلها
وأخصبت في نواحي الخلق والآدب
إن الحجارة قد تنشق عن ذهب
أزهارها قبلة من خدها الترب
نظما من الشعر أو نثرا من الخطب

يا حيرة الحرم المزهو ساكنه
لى بينكم صلة عزت أو اصرها
أرى بعين خيالى جاهليتكم
وأشهد الحشد للشورى قد اجتمعوا
من كل مكتهل ، بالبرد مشتمل ،
والمح النار فى الظلماء قد نصبت
نار ولكنها قد صُورت أملا
رمز الحياة ورمز الجود ما فتئت
يشبهأ أريحي ، كلما هدأت
وأبصر القوم يوم الروع قد حشدوا
سقى العهود الخوالى كل منسكب
لأنها صلة القرآن والنسب
وللتخيل عين القائف الدرب
ولست أسمع من لغو ولا صخب
للقول مرتجل ، للهجر محتجب
لطارق الليل والجيران والسغب
بردا ، اذا خابت الآمال لم يخب
فوق الثنيات ترمى الجوى باللهب
ألقى على جمرها جزلا من الحطب
للموت يحتاج ، أو للنصر والغلب

يرمون بالشرّ شرّاً حين يفجؤهم ورايهم فوقهم خفاقة العذب
وأحضر الشعراء اللسن قد وقفوا ولليان فعال الصارم الذرب
أبو بصير له نبر لو اتخذت منه السهام لكنت أسهم الثوب
إذا رماها كما يختار قافية دارت مع الفلك الدوار في قطب

وأغمض العين حيناً ثم أفتحها على جلال بنور الحق مؤتشب
نور من الله هال القوم ساطعه وليس يحجب نور الله بالحجب
تكلمت سور القرآن مقصحة فأسكتت صخب الأرماع والقضب
وقام خير قریش وابن سادتها يدعو إلى الله في عزم وفي دأب
بمنطق هاشمي الوشي لو نسجت منه الأصائل لم تصل ولم تغب
طابت به أنفاس الأيام وابتهجت ومر دهر ودهر وهي لم تطب
وهزت الراسيات الشم وارتعدت لهوله الباترات البيض في القرب
وأصبحت بنت عدنان بنفخته تها تجرر من أذيالها القشب
فازت بركن شديد غير منصدع من البيان وحبل غير مضطرب
ولم تزل من حمى الاسلام في كف سفل ، ومن عزه في منزل خصب
حتى رمتها الليالي في فرائدها وخر ساطانها ينهار من صيب
وعائت العجمة الحقاء نائرة على ابنة اليد في جيش من الرهب
يقوده كل ولاغ أخى إحن مضطرب بدلاء العرب مختضب
لم يُنق فيسا بناء غير منتقض من الفصيح وشملا غير منقضب
كان عدنان لم تملأ بدائعه مسامع الكون من ناء ومقرب

مضت بخير كنوز الأرض جائحةً وغابت اللغة الفصحى مع الغيب
لولا فؤاد (أبو الفاروق) ما وجدت إلى الحياة ابنة الأعراب من سبب

أعزّ منها حمى رِيَت كرائمه
وردة بالجمع المعمور غربتها
يا عَصْبَةَ الخَيْر للفصحي وشيعتها
هَلَمْ فالوقت أنفاس لها أمد
فإنما المرء في الدنيا إقامته
الدهرُ يسرع والأيام معجـلة
والمحدثات تسد الشمس كثرتها
والتراجعات تشن الحرب لاقحة
تطير للَقْظِ تستجديه من بلد
كمهريق الماء في الصحرام حين بدا
أزرى بينت قریش ثم حاربها
وراح في حملة رعناء طائشة
أنترك العربي السمع منطقته
وفي المعاجم كنز لا تفاد له
كم لفظة أجهدت عما تكررهما
ولفظة سجت في جوف مظلة
كأنما قد تولى القارطان بها
يا شيخمة الضاد والذكري مخلدة
هنا تخطون مجدا ما جرى قلم

وكان ممنوعه نهباً لمنتهب
وحاطها بكریم العطف والحدّاب
حباك صوب الحيا يا خيرة العصب
ولا أقول بأن الوقت من ذهب
إقامة الطيف والأزهار والحَبَب
ونحن لم ندر غير الوخذ والخَبَب
ولم تقز بخيال اسم ولا لقب
على الفصيح في اللويل والحرب
ناء ، وأمثاله منا على كَثَب
لعينه بارق من عارض كذب
من لا يفرق بين النبع والغرب
يصول بالخائنين : الجهل والشغب
إلى دخيل من الألفاظ معترب
لمن يميز بين الدر والسخب
حتى لقد لهيت من شدة التعب
لم تنظر الشمس منها عين مرتقب
فلم يؤوبا الى الدنيا ولم تؤب
هنا يؤسس ما تبنون للعقب
بمثله في مدى الأدهار والحقب

ليك يا ملك الوادى ومنشئه
هذا غراسك قد ماست بواسقه
الملك في بيتكم كسبا وموهبة
يا حارس الدين والآداب والحسب
تداعب الريح في زهو وفي لعب
يزهى على كل موهوب ومكتسب

سفينته أنت مجريها وكألثها من الزعازع لا تحشى أذى العطب
وأمة أنت مجريها وحافزها في حلبة السبق لا تبق على القصب
ودیعة الله صینت فی یدى ملك الله مرتقب ، الله محتسب
بصیره كضياء الصبح لو لطمت غياهب الليل لم يظلم ولم يهب
وعزيمة كحديد النصل لو طلبت زهر الكواكب نالت غاية الطلب
قد صممت فمضت عجلي لمقصدها تحو التراب بوجه الشك والريب
فانظر ترى مصر هل تلقى لها مثلا في صولة الملك أو في قوة الأهب
فثروة من سرى العلم واسعة وثروة من سرى الجاه والنشب
بنى فؤاد بناء الخالدين كما بنى الغطاريف من أبائه النجب
إذا الغمام جافت مصر واحتجبت فان بر يديه غير محتجب
من مبلغ الغرب أن الضاد قد بلغت بقرب صاحب مصر أرفع الرتب
أعاد مجدا لها مالت دعائمه فيا لها قرينة من أعظم القرب
وحفها بسياج من عنايته كما تحف جفون العين بالهدب
إن عقها أهل واديها وجيرتها فأنت أحنى عليها من أخ وأب
رأت بربعك عز الملك فانصرفت عن ذكر لبني وذكرى ربعها الحرب
لا ذت بأكرم معوان لذى أمل نأ ، وأشرف عنوان المنتسب
عش للكنانة تبلغ أوج عزها وللغلا والندی والعلم والآدب
وعاش فاروق نجما في تألقه سعد السعود وفيه منتهى الأرب

على الجارم

عشرات الأقلام^(١)

بقلم المتولى قاسم

المدرس بمدرسة محمد علي الملكية الاميرية للبنات

٢

(٥) استعمال النفي مع الفعل (عاد - يعود)

نما جرت به الأقلام ، وكثر دورانه على الألسنة ، حتى وقر في النفوس أنه صحيح لا غبار عليه ؛ إذ لم يجد مقاومة له ، ولا تنبيها على فساد - من ذلك - مثل قولهم : « هبط ثمن القطن ولذلك لم يعد يقوم بنفقاته » ، و « لما تطلعت نفس الفلاح لم يعد يقنع بالضروريات » ، و « من تعب العامل لم يعد يقوى على العمل » ، و « تغيرت أحوال فلان ولهذا لم يعد يزورنا » .

ولا بد قبل تبيان رأينا في فساد هذا الأسلوب ، من إيضاح معنى (عاد يعود) ونظائره ، استكمالا للبحث ، واستعانة على رد الحق في نصابه ، بطريقة تقضى على الشك والارتياب ، فنقول : —

من أخوات (كان) التي تحتاج إلى اسم وخبر ، الفعل (صار يصير) مثل : صار الجو معتدلا - وقد هدأت الحال فصار الأمن شاملا - وبالاجتهد يصير الصعب سهلا . ولا شك في أن هذا الفعل يفيد تحول اسمه من صفة إلى أخرى تخالفها وبالنظر إلى هذه الأمثلة يتجلى لك هذا المعنى ، فقد فهمنا أن الجو اعتدل بعد أن كان شديداً الحر أو البارد ، وأن النفوس قد استشعرت الهدوء والأمن بعد اضطرابها وخوفها ، وأن صعوبة الأمور تتحول بالاجتهاد إلى سهولة .

وهناك أفعال تشارك (صار) في المعنى والعمل - وقد عدوها عشرة - منها (حار يحور) . قال لبيد في رثائه أخاه لأمه أربد :

(١) راجع العدد الأول من السنة الثانية ص ١٤٠

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع
ومنها تحوّل . قال امرؤ القيس :

وبدلت قُرْحاً دامياً بعد صحة فيالك من نَعَمَى تحوّلَ أبوسا
ومنها (عاد) قال الشاعر

وكان مُضِلِّي من هُدِيَتُ برُشدِه فله مغوٍ عاد بالرشد آمرا !

ومنها ارتد ، قال الله تعالى في أمر يعقوب وقميص يوسف عليهما السلام :
« فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا . »

وبقية الأفعال تسهل مراجعتها مع شواهدا في شرح الأشموني على الألفية -
وقد رأيت فيما مر بك من الشواهد معنى التحوّل والانتقال من صفة إلى أخرى
واضحا جليا ؛ ففي البيت الأخير تشاهد انتقال المتحدث عنه من الإضلال
والإغواء ، إلى الهداية والإرشاد ، وقد كان هذا مثار عجب الشاعر ودهشته ؛
ومثله الباقي

وإذ كان معنى التحول هو المعوّل عليه في هذا الباب ، لاحظ النجاة في
المأثور من الكلام العربي أن (كان ، وظل ، وأضحى ، وأصبح ، وأمسى)
قد تستعمل في معنى صار . قال الله تعالى : « وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً ،
وَسَيَّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً » وقال الشاعر :

تلك المدائن بالآفاق خالية أمست خلاء ، وذاق الموت بانيتها
ومن أجل ذلك أيضا أورد (الأشموني) الفعلين (غدا وراح) من أخوات
صار ، واستشهد على ذلك بالحديث : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما
يرزق الطير : تغدو خماسا وتروح بطنانا ، فلم يقبل (الصبان) في حاشيته عليه هذا
الاستشهاد ، ورده بأن الظاهر في الفعلين هنا أنهما تامان ، ونصب ما بعدهما على
الحالية ، لا على الخبرية للفعل الناقص . إذ كان معنى التحول في (تغدو) غير محقق
و (تروح) مقابل له ، فاعتباره تاما أولى من معنى الصيرورة ؛ ولذا رأى الصبان
أنهما « بمعنى تذهب في الغدوة ، وترجع في الرواح أي المساء » (١)

ولقد نلاحظ في الشواهد الآتية الذكر : أن أفعال الصيرورة فيها تدل على التحول إلى الصفة المذكورة بعدها متمثلة في خبرها ، وأن الاسم قد انتقل إليها بعد اتصافه بصفة تضادها ، وهذه الصفة الأولى التي كان الاسم متصفا بها قبلا تراها مذكورة في الكلام ، كما في ثلاثة الآيات الأولى ؛ وقد نراها مذكورة ، في عبارة سابقة في سياق القصة ، كما في أمر يعقوب الذي ابيضت عيناه من الحزن ثم عاد بصيرا ، وقد تكون هذه الصفة الأولى ملحوظة غير مذكورة لافي الكلام نفسه ولا قبله ، كما في آية السماء التي تشققت وصارت أبوابا ، وكانت قبل ذلك سقفا محفوظا ماله من فروج ، وكما في تلك المدائن التي خلت من سكانها ، وفقدت بشاشتها ، بعد العمران وحسن الحال .

من كل ما تقدم يتبين القارئ من الوجهة اللغوية والتحويلية أن الفعل (عاد يعود) بمعنى (صار يصير) يتطلب اسما وخبرا ، وأن خبره يمثل الصفة التي تحول إليها الاسم بعد صفة أخرى كانت له فزالت عنه وانتقل إلى ضدها . ولم يبق إلا البحث في التعبير الشائع من الوجهة البلاغية والمنطقية ، لنعرف : أيقوم ذلك التعبير بالمعنى المراد للمتكلم ، أم ينحرف عنه ويعجز عن أدائه ؟

وللقارئ أن ينظر في الأمثلة التي في صدر البحث نظرة فاحصة ، فيتمثل المعنى القائم في نفس المتكلم بها ؛ فإذا قلت مثلا : « لم يعد العامل يقوى على العمل » فإنك تقصد أن العامل كان قويا قادرا على إتيان عمله (وهذه هي الصفة الأولى) ثم تغيرت حاله ، فتحول عن القوة والقدرة ، إلى الضعف والعجز (وهذه هي الصفة الجديدة) فأنت تريد أن تثبت له تحوله عن القوة إلى الضعف ، لا أن تنفي عنه التحول إلى القوة ، فانه كان قويا ، وانتقاله إلى صفة القوة لا يرد على الذهن ثبوته حتى تحتاج إلى نفيه - فاللفظ الذي يؤدي غرضك ويطابق مرامك ، هو أن تقول : « لقد تعب العامل ، فصار عاجزا عن العمل ؛ أو أصبح ضعيفا عن أدائه ؛ أو عاد لا يقوى عليه » فتأتي بفعل الصيرورة مجردا من النفي وبعده الصفة الجديدة - وهي هنا (عاجزا ، أو ضعيفا ، أو لا يقوى) - فتدفعه الصفة الجديدة مثبتة ، أو الأصلية منفية . وكذلك إذا قلت : « كان

عمر يزورنا، فلم يعد يزورنا، فإنما تقصيد أن تثبت له الانقطاع عن الزيارة، بعد أن كان متعودها؛ فتريد أن تقول: كان يزورنا فصارها جرائنا — أو أصبح منقطعا عن زيارتنا — أو عاد لا يزورنا. ومن هنا ترى هذا التعبير الشائع عاجزا عن أداء المعنى الذي تريده، غير مطابق للمعنى القائم في نفسك — والسر في ذلك هو تقديم أداة النفي على الفعل — فإن هذا التقديم أوجب اضطراب اللفظ وفساد المعنى؛ ولم ينطق بمثله العرب في معناه الذي إليه تقصد، وإياه نريد في عصرنا هذا.

ولذلك نرى أن التعبير الصحيح للمعنى الذي إليه نعيم بمثل هذه العبارات، إنما يصح بتأخير أداة النفي عن الفعل، أو بحذف النفي وجعل الخبر مثبتا وهو الصفة الجديدة نفسها. وعلى هذا الأساس نعيد هنا العبارات التي صدرنا بها البحث، بعد إدخال الإصلاح عليها مع تنويع الأساليب، فنقول:

«هبط ثمن القطن فعاد لا يقوم بنفقاته، ولما تطلعت نفس الفلاح أصبح لا يقنع بالضروريات، ومن تعب العامل صار عاجزا عن العمل، و« تغيرت أحوال فلان فعادها جرائنا منقطعا عن زيارتنا.

وقد تورط في هذا التعبير أكثر الكتاب تحريا للصواب، وأشد هم تحرجا من الخطأ، بمن زبأ ييلاغتهم أن يذهب بروائهم مثل هذا الأسلوب الأعجمي؛ وقلما وجدناهم يأتون به صحيحا سليما من العيب، إلا ما رأينا من قول الأستاذ عبد اللطيف المغربي في مقال له عن العقل العربي في العدد الرابع من صحيفة دار العلوم للسنة الأولى ص ٦٩... فقوى وأستشرى، وتعمق في المعاني واستقصى، وعاد لا يقنع بما توحى به الفطرة الساذجة، واللمحة الطارئة،

ولا يحسن القاري. أنا أطلنا الكلام في هذا الموضوع عشا؛ فإن مجلة المجمع اللغوي (ولها مكاتبتها في نفوسنا) قد تعرضت في جزئها الأول لهذا التعبير في مقال لحضرة عضو المجمع الشيخ عبد القادر المغربي، عنوانه (تعريب الأساليب) ص ٣٣٦ فقرر أولا: أنه من الأساليب التي تسربت إلى لغتنا في العهد الأخير، والظاهر أنها أعجمية، وقد يدعى مدع عروبتها وإرجاعها إلى عرق في الأساليب

الغريبة . ثم قرر ثانياً : أن العرب إنما يعرفون النفي الساذج الخالي من فعل .
(العود) ولا عهد لهم بهذا التعبير الدخيل الذي استعمل في نفيه الفعل :
(عاد يعود) .

وبعد كلام عن نشأة هذا التعبير وذيوعه في عصرنا ، بدأ الباحث يشك في
أن النفي مع الفعل (عاد) غير عربي . بل ادعى أنه عربي محض ، مستدلاً بأن
(عاد) من أخوات صار ، مثل رجع ؛ ولم يورد من كلام العرب شاهداً على
سبق النفي للفعل (عاد) ، ولكن استدل على صحة ذلك بدخول النهى على
الفعل (رجع يرجع) بمعنى صار في الحديث : « لا ترجعوا بعدي كفاراً » .
وليس في هذا شاهد على صحة ما ذهب إليه الأستاذ المغربي : فالرسول
(صلوات الله عليه) ينهى أصحابه أن يتحولوا عن الاسلام إلى الكفر ، فلا بد
من تقديم أداة النهى على فعل الصيرورة — أما المعنى الذي تعبر عنه بقولك :
ما عاد — أو لم يعد التليذ كسلان — مثلاً — فهو أنك تثبت له صفة هي ضد
الكسل ، قد تحول عن الكسل إليها ، فمن الواجب أن تقول : عاد التليذ نشيطاً ،
أو مجتهداً ، أو غير كسلان ، أو لا يكسل .

وانتصافاً للحقيقة في ذاتها نقف وقفة مع حضرة الأستاذ الباحث في هذا
الحديث . فإنه يقرر أن لكل من صار وأخواتها معنى خاصاً ومقاماً خاصاً
تستعمل فيه ، وهذا لا غبار عليه . ثم قال (فقول الحديث « لا ترجعوا بعدي
كفاراً » صرحوا بأن « ترجعوا » فيه بمعنى « تصيروا » ، ولكن لو حلت محل
« تصيروا » (١) لما أدت تمام معناها ، لأن « لا ترجعوا » تفيد معنى « بعد
أن كنتم مسلمين » ، ولو قال « لا تصيروا » لما أفاد تمام المعنى)

ولعمر الحق لو أن معنى الرجوع في الحديث مقصور على ذلك الذي يقرره ،
ما زاد شيئاً فوق معنى « تصيروا » ، فإنه لم يزد شيئاً على المعنى المشترك بين أفعال
الصيرورة جميعها ، إذ كلها تفيد التحول من صفة إلى أخرى ضدها) ولكن
المعنى الزائد الذي يمتاز به فعل الرجوع هنا ، ولا يوفيه (تصيروا) هو أنه يشير

(١) لعله يقصد (لو حلت محلها تصيروا) كما يتبين من بقية كلامه

إلى حالة سابقة للإسلام، يحذرهم إياها - فكأنما قال : لا ترجعوا - بعد إذ أسلمتم وتمتعتم بنعمة الإسلام - إلى الكفر الذى عرفتموه مفرقا لكلمتكم ، موهيا لقوتكم ، مغريا بينكم العداوة والبغضاء ، ولذا ذيله بقوله : « يضرب بعضكم رقاب بعض » . وهو قريب فى معناه العام من قول القرآن الكريم : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » (أى بنعمة الإسلام) .

ثم انتقل الباحث إلى دليل آخر يؤيد به دعواه عزوبة هذا الأسلوب الذى يتقدم فيه النفى على الفعل (عاد) فأورد حديثا آخر يرى أنه أصرح فى الدلالة على ما يريد !! وهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابى معاذ رضى الله عنه : « أعدت فتانا يا معاذ ؟ » ثم قال (لو أن معاذا أراد أن يجيب النبي عن قوله ، أيقول له « لست فتانا ، أم يقول « لم أعد فتانا » ؟)

واتخذ الأستاذ قول معاذ المقدّر الذى لم ينقل عنه ، ولم ينطق به ، أصرح دليل على صحة ذلك الأسلوب عينه .

ثم انتهى من ذلك كله إلى أن استعمال عاد فى النفى عربى صحيح ، لكن قليل الاستعمال فى كلام القدماء ، وكثر فى عصر الترجمة الأخير ، فليس أسلوبا إفرنجيا محضا . يا سبحان الله !! أعجبنى وعربى ؟ !

لا . ليس هذا أصرح فى الدلالة على صحة ذلك الأسلوب الدخيل ، بل ليس صريحا ولا ضميا ؛ فإن معاذ رضى الله عنه لم ينطق بشيء فنستدل به ، فكيف ننطقه بما لم يقل ؟ على أنه لو قال ذلك فعلا لكان بعيدا كل البعد عن طريق الاستدلال ، فإنه فى معنى آخر غير المعنى المقصود بهذا الأسلوب الشائع ؛ فإن إلقاء الرسول سؤاله عليه (أعدت فتانا) ؟ فيه اتهام له بتحويله عن الهدوء والسلام إلى إثارة نار الفتنة ؛ فكأنما قال له : يخيل إلى يا معاذ أنك صرت من دعاة الفتنة والاضطراب ، بعد أن كنت كما نهى من دعاة السلام ، فكيف تتحول عن عهدنا بك ؟ فلا بد لمعاذ والحالة هذه أن ينفى عن نفسه هذا التحول - ولا مفر حيثئذ من تقديم النفى على فعل العود .

وبين المعنيين بون شاسع . ولنضرب لذلك مثلاً : أرأيت لو أنك تعرف إنساناً مخلفاً للوعد ، ثم عرفت عنه أنه أفلح عن هذه العادة ، وأصبح يحافظ على مواعيده ؛ فأردت أن تصوغ هذا المعنى في أسلوب من هذا النوع ، ماذا تقول ليكون الكلام مطابقاً لمقتضى الحال ، مؤدياً للغرض ؟ لاشك أنك تقول : صار صاحبنا وفياً ، أو عاد لا يخلف ، أو صار غير مخلف . أى انتقل عن الإخلاف إلى الوفاء ؛ وهنا تجد الفعل سابقاً للنفي .

ولو أن لك صديقاً معروفاً بالوفاء ، ثم عرض من الأدر ما حملك على الارتياح فيه ، فقلت له : « أعدت تخلف الوعد بعد أن عرفت بالوفاء ؟ » لو أن ذلك كذلك لم يجد صديقك طريقاً لدفع هذا الاتهام عن نفسه ، إلا بنفي هذا التحول المزعوم ، فيقول : « لم أعد مخلفاً ، وهذا يتفق مع كلام معاذ المقدر صدوره منه ، وهو غير ما نحن بصدده بما شاع استعماله في الصحف .

فلسنا نزيّف هذا التعبير في كل مقام ، ولا نرفضه رفضاً باتاً في كل الأحوال بل إنما نمنعه إذا تطلب المقام سواء ، وتجنّاه عنه ولم يطلبه ، أما إذا طلبه معناه ، واحتاج إلى استعماله مرمكاً ، فما لأحد عليه من سبيل ، إذ هو الطريق إلى إيضاح غرضك وبيان مغزائك ؛ كما تقول : « لما توفى النبي عليه صلوات الله ، ارتدت العرب إلا أهل مكة والمدينة وما إليهما ، فإنهم لم يعودوا كغيرهم كفاراً ، واعتبر الفرق بين المعنيين بقولك مثلاً : عرفت أنك لم تسافر — ولم أعرف أنك سافرت . وإنما نشأ ذلك من الترجمة الحرفية ، أو التهاون فيما تتطلب اللغة ، من الدقة والتحرى ؛ ولسنا نمنع تعريب الأساليب ، فلا بد من تقارض اللغات بعض أساليبها ، وفي التقارض بينها زيادة للثروة اللغوية . إنما نرجو من يتصدى للتعريب أن يراعى في نقله الدقة ، فيما تتطلبه قوانين اللغة ومنطقها من تقديم وتأخير ، حتى يحى الكلام قويا غير مصاب بالضعف والتهافت ، ولا شك أن لكل لغة طريقها الخاصة في اتصال بعض كلمات الجملة ببعض ، بحيث لو تغير الترتيب لاختل المعنى ، أو انتقل إلى أسلوب لغة أخرى .

ولأمر ما عقد البلاغيون في كتبهم فصلاً في موضوع أدخل في المنطق

والقضايا منه في البلاغة والأساليب - ذلك هو موضوع عموم السلب وسلب العموم - وتكلموا في ارتباط النفي بأداة العموم، وبينوا اختلاف المعنى في تأخير النفي وتقديمه في مثل قولنا: «كل الأعضاء ليسوا حاضرين»، وليس كل الأعضاء حاضرين، جزام الله عن اللغة خيرا، لقد كانوا حراصا على إنارة الطريق وتمهيد السبيل لمن بعدهم، ليكونوا على بينة في كلامهم وكتابتهم على أسلوب العرب وطريقتهم.

سيقول بعض الناس: مالنا ولهذا التدقيق والتفتيح مادامنا نفهم الغرض المراد بدون عناء، فإذا يحملنا على ترك ما تعودنا، إلى ما لم تصقله أقلام الكتاب؟ فنجيبهم بما يقرره الجاحظ في البيان والتبيين (١): من أنه ليس محكوما بالبلاغة لمن أفهمك قصده ومعناه بالكلام الملحون والمعدول عن جهته والمصروف عن حقه؛ بل لا بد أن يفهمك حاجته على مجرى كلام الفصحاء، بحيث لو سمعه الغري الذي لم يتعود سماع الخطأ لفهم عنه ما يريد - قال الحجاج لبعض النخاسين من أهل خراسان: «أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان؟» قال: «شريكاتنا في هوازاها، وشريكاتنا في مدائننا، وكما تجيء تكون» قال الحجاج: «ما تقول؟ وبلك!»، فقال بعض من تعود سماع الخطأ، وكلام الأعاجم بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك: «يقول: شركاؤنا بالأهواز والمدائن يعثون إلينا بهذه الدواب، فنحن نبيعها على وجوها، وما يختلف معناه بتقديم النفي وتأخير أفعال المقاربة، فإن لكل من (كاد لا يكون) و (ما كاد يكون) معنى خاصا ليس هنا مقام بيانه، ومن السهل عند القارئ أن يراجع ذلك في الأشموني، وفي الجزء الأول من مجلة المجمع اللغوي ص ١٣٩.

وقد نرى في الصحف كثيرا من العبارات، يظهر فيها سوء الأثر الذي تحدثه الترجمة الحرفية، وتنتشر عدواه، وتعم بلواه - ومن ذلك ما يتصل بموضوعنا مثل قولهم: «لا يجب أن تخالف الأوامر»، ولا يجب أن تهمل المدرسه النشاط المدرسي، وأمثاله كثيرة، حتى لقد قرأت مثل هذا التعبير أكثر

من ثلاث مرات في نهر واحد من صحيفة محترمة جدا؛ بل لقد رأيت في كتاب تاريخ، كلمة ينقلها المؤلف عن بعض فلاسفة اليونان ليان رأيه في المدينة الفاضلة فيقول: «لا يجب أن يزيد عدد سكان المدينة على عشرة آلاف نفس» وهذا التعبير ليس بمانع منطقيا (٢) من المخالفة، ومن إهمال النشاط، ومن زيادة السكان؛ فإن الوجوب منفي، فلا مانع من الجواز. والصواب أن يتأخر النفي عن فعل الوجوب، أو يوضع مكان (يجب) (يصح أو يجوز)، فيقال: «يجب ألا تخالف... ولا يصح أن تهمل... ولا يجوز أن يزيد...» وما يتصل بهذا الباب مثل قولهم: لم يعد لهم رغبة في السفر، ولم يعد لدينا صبر على الفراق ولم يعد عند المريض ألم.

ولو أصلحنا هذا التعبير على نحو ما سلف لتغير ترتيب العبارة وهيئتها كثيرا، فمثلا نقول: صرنا غير راغبين في السفر، أصبحنا لا نصبر على الفراق، عاد المريض لا يجد ألما. ولعل خيرا من ذلك وأسهل أن تبقى العبارة على حالها مع وضع (لم يبق) مكان (لم يعد) وفي المثل العربي: «لم يبق في قوس الصبر منزع»، فلعل الكتاب يتقبلون ما ندلى به مخلصين، فبذلك ينزهون بلاغتهم عما يشوبها من النقصان، ويخدمون اللغة خدمة تذكر لهم بالشكران.

المتولى فاسم

وفيت...!

بقلم محمد يوسف المحبوب

المدرس بمدرسة محمد علي الملكية الأميرية للبنات

وفيتُ ، فما أغنى وفائي ولا أجدى
وضحيتُ ماضيتُ جذلان ؛ علني
ولكنني لم أجن - والهف أضلعي -
لى الله ! كم سهدتُ عيني لأجله
لى الله ! كم حملت قلبي لأجله
لى الله ! كم أوليته ذات مهجتي
وصافيتُ من دنياي من لم يصن عهداً
أرى منه قلباً مخلصاً يحفظ الودا
سوى حسرة أوزت على كبدي زنداً
ولم تك عيني قبله تعرفُ الشهدا
عناء ، وقد ما كان لا يعرفُ الوجدان
فما باله يذكي بها النار والوقدا ؟

ألسنُ الموالى فيه سهدي وأدعى
ألم يأتني أنا طويلاً لأجله
فما باله ينسى وفائي ، ويجتوى
وما باله يمتضى بوادي ظنونه ؟
أيجفؤ ، وقد عاطيته خير ما اشتهى
وفيتُ فما أغنى وفائي ولا أجدى
أنوء به عبثاً ، وأعيها بها عداء ؟
رفاقاً ، وأنا قد هجرناهم عمداً ؟
إخائي ، وما كلفته في الهوى إداً ؟
وكم من ظنون تورث البغض والحقد
من الودحى عاف من وزده الشهدا ؟
وصافيتُ من دنياي من لم يصن عهداً !

أئن رأني يوماً صموتاً مقطباً
يقزعه صمتي ، فيوسعني نقداً ؟
(٧ - صحيفة دار المعلوم)

ويزعم تقطبي نفوراً ؛ وما درى
توالت ، فآدتني ، فلم أرض ثنها
وما المرء من يحيا شكوا بدهره
فما بال خلّى لم يصابر جوانيحي
وما بالله قد ضاق ذرعاً بخطيها
يسل ثيابي جاهداً من ثيابه
هموم ضلوع بين يوسعتها هدّا
وآشرت أن أحيّا (على رغبتها) طوداً
بل المرء من يحيا به ثابتاً جلداً
ويستأنها حتى يرى صلدها يندى ؟
فولى نفوراً غاضباً ينثر العقدا ؟
وكنّا إذا نمش نباهي بها برذا 1

رعى الله قلبي ؛ إنه صان وده
وجازى إلهي صاحبي بالذي ارتضى
فلا تعذلاني اليوم عيني بعد ما
ولا تسكبا دمعاً إذا رحت أبتغي
ولا تجزعا أن تبصراني بجوها
وفيت فما أغنى وفائي ولا أجدي
وآخى ، فما أعطى قليلاً ولا أكدى
رعينا وقد جاني ، وصلنا وقد صدّا
تبيتثما من أمرنا الغي والرثدا
ألدى النأي عن دنيا الهوى عيشة رغدا
وحيداً بلا خلٍ ، مقبها فرّدا ؛
وصافيت من دنياي من لم يصن عهدا ، 1

محمد يوسف المحجوب

ابن ميادة^(١)

مدائحُه ، غزله ، فله

بقلم حسن علوانه

المدرس بالمدرسة الخديوية

٢

في هذا المقال سنتناول بالنظر مدائح ابن ميادة وغزله ، والمدح والغزل
عمودان من عمود الشعر ، وغرضان من أسنى أغراضه ، في أخريات العصر
الأموي ، وأولات العصر العباسي ، وقد لابسهما ابن ميادة ، وعاش فيهما .
والمدح فن من الشعر ، يريد الشعراء المعاصرون ، أو الشعراء المجددون ، أن
يسقطوه من أغراض الشعر ؛ ويزعمون أن العاطفة لا توحى به ، وأن الوجدان
لا يستشعره . ولو أنصفوا الأقدمين لما أصدروا عليهم حكما قبل أن يفهموا
ملايسات حياتهم ، ومقتضيات بيئتهم . ولأنهم لو فعلوا لعلوا أن الشعر مرآة تتجلى
فيه صورة العصر ، أو أن كلا من الشعر والبيئة يصور الآخر ويترجم عنه ،
والعصور قد تختلف ألوانها ، والبيئة قد يتغير قوامها ، ولكن الشعر هو الذي
يحفظ صورها ، ويدون حقائقها ، وقد يصبح الغرض النيل في عصر من العصور ،
سمجا سخيفا في عصر آخر ، فليس من الرأي الأصيل ، أن ننال الأقدمين بالزراية ،
لأن بطون دواوينهم تتخما أشعار المدح ، أو نسخر منهم لأنهم تغالوا في وصف
الناقة ، وبالغوا في التحدث إليها ، والتطرب بحنينها ، وهي طائفة زمانهم ، وجوابة
موماتهم ، ووسيلة الوصول إلى أحبتهم .

ولقد كان الاستبداد والآثرة من طبائع الخلفاء والملوك السابقين ، وكانت

(١) راجع المقال الأول في العدد الثاني . من السنة الثانية من صحيفة دار العلوم

الضرائب تجب إليهم، وتتدفق في خزائهم، فينفقونها في إشباع رغباتهم، ويجودون بها على من ترضى عنه مشيئتهم، فمن استطاع أن يهز أعطافهم، أو يحرك أريحياتهم، أو يبيع الحمد والثناء إليهم، فقد تحاشاه الفقر، وأقبل عليه المال الوفير. وكان بيت المال في هذا الزمان، حِلا لذوى القرائح المتقدة، والمواهب الممتازة، من الشعراء والأدباء، والرواة والفقهاء. وما كانوا يصدرون في مدحهم أو تندرهم عن ملق أو رياء، لأنهم يعتقدون أن الخليفة صاحب الحق المطلق في مرافق الدولة، وأنه يعظم فوق كل تقدير، وتنقطع دون مقامه غاية كل مدح، وأن هذا المال أحق به من بلغ المدى في الفن، وطار دون سواه في سماء الإبداع، وقد يكون من الشعراء منقطع القرين، فيستولى وحده على العطاء، كما قطع أبو تمام في عصره جوائز الشعراء.

على أن المدح في رأي أنبل قصدا. وأسمى غاية، من قول هراء، يصوغه شعراء هذا الزمان في « وصف القبة. أو ألحان الألم. أو ساعة في ضوء القمر، وكل ألفاظه مبتذلة، ومعانيه رخوة فلسفة، وغايته لين وضعف، يآباه هذا العصر الذي يمجّد القوة، ويتغنى بالكسب والعمل. وشعراء المدح كثيرا ما يمجّدون الهمم العالية، والنفوس الآلية، ويسوقون إلى البطولة والتضحية، ويعثون المروءة والأريحية، ويعرضون للوقائع الحربية فيصورونها، وللحوادث التاريخية فيسجلونها، ويخلدون الأبطال والعظماء، ويشيدون بذكر القواد والزعماء؛ فأى رسالة للشعر خير من هذا؟ وأى نفس لا تشبع بهذه المثل العليا؟ أما أولئك الذين يتحدثون عن الوجيع ولا وجع، ويهتفون بذكر الغرام ولا غرام، ويرددون الكلام عن الوفاء ولا وفاء؛ فلا أحسبهم شعراء.

وابن ميادة كان أزهد الناس في مدح الناس، وما مدح إلا خليفة أو أميرا، وقد قصر مدائحهم على قيس قورمه، وعلى قريش آل الخلافة والملك، إلا أنه لم يكن شاعرا فصلا، والشاعر الفصاح هو الذي يمدح الناس ليأخذ جوائزهم، وإنما كانت تدعوه للمدح عقيدة أو محبة، لأنه كان شديد الاعتزاز بنفسه حتى وقر فيها وقارها، وعرف لها مقدارها، وقبض نقي العرض، مصون الوجه،

وكان إذا وجد الكفاف لا يسأل بالشعر ؛ فقد حكى أنه مدح أبا جعفر المنصور بكلمته التي يقول فيها :

فوجدت حين لقيت أيمن طائر - ووليت حين وليت بالإصلاح -
وعفوت عن كسر الجناح ولم يكن لتطير ناهضة بغير جناح
قوم إذا جلب الثناء عليهم بيع الثناء هناك بالآرباح
وأناه راعي إبله بلبن فشرب ، ثم مسح على بطنه ، وقد عزم على الرحلة ؛
فقال : سبحان الله ! أفد على أمير المؤمنين وهذه الشربة تكفيني ، وصرف
وجهه عن قصده ، فلم يقد عليه ، فأنت ترى كبر نفسه ، وبعد همته ؛ على أن
عبد الله بن عمر على جلالة ، والحسن البصري ، وعكرمة ، ومالك بن أنس المدني ،
وجلة من أهل العلم ، غير هؤلاء كانوا يقبلون صلات الملوكة (١) . وكان الرماح
سامي النفس ، عادل الحكم ، بعيد المدارك ، لا تستجره الرغبة في نيل العطاء إلى
التعريض بخصوم الخليفة ، أو ذم أعدائه كما انزلق سواء من الشعراء في تيار
الحزبية ، واندفعوا في فتنة الخصومة ، ولهذا بقى عظيم الشأن ، كبير القدر ، لدى
الخلفاء الأمويين والعباسيين . وكان لا يبالى سخط الخليفة عليه ، إذا كان في إعلان
ريه ، أو إبداء ما يظن أنه الحق سخط عليه ، فقد قيل إنه « دخل على الوليد
ابن يزيد ، وأنشده قصيدة يقول فيها :

فضلنا قريشا غير آل محمد - وغير بني مروان أهل الفضائل -
فقال الوليد : قدمت آل محمد قبلنا . فقال : ما كنت يا أمير المؤمنين أظنه
يمكن غير ذلك . فلما أفضت الخلافة إلى بني هاشم ، ودخل على المنصور ، قال له
كيف قال لك الوليد ؟ فأخبره بما قال ، فجعل المنصور يتعجب (٢) ، فلم يستطع
الوليد أن يحمله على تغيير رأيه ، وهو من المتصلين ببابه ، المختصين بمعروفه ، لأنه
كان دعبا طربا ، حلو الشئال ، خفيف الروح ، فألف هذا المزاج بينه وبين الوليد ،
فأنس به ، وخف على قلبه ، وقد اتصل به قبل أن تصير الخلافة إليه ، لأن الوليد

(١) العمدة ج ١ ص ٥١

(٢) ديوان الحماسة ج ٢ ص ١٢٠ شرح الرافعي

لما شرب الشراب ، واتخذ الندماء ، وظهر منه مجون ، وبدل الناس منه تهاون بالدين ، واستخفاف به ، أخذ هشام يعيه ويتقصه ، وكثر عيبه وبأصحابه ، فلما رأى الوليد ذلك خرج وخرج معه ناس من خاصته ومواليه ، فترل بالأزرق ، في جزيرة العرب ، بين أرض بلقين وفزارة ، على ماء يقال له الأغدق ، وأقام هناك حتى مات هشام (١) فتعرف إليه ابن ميادة ، ولقي منه الوليد أنسا وظرفا وأحبه ، فلما صارت إليه الخلافة رحل إليه ، فأدناه وأكرمه ، وفضله على الشعراء أجمعين (٢) ، ومن قوله في الوليد :

لما أتيتك من نجد وساكنه نفحت لي نفحة طارت بها العرب
إني امرؤ أعتفى الحاجات أطلبها كما اعتفى سنق (٣) يلقي له العشب
ولا ألح على الخُلان أسألهم كما يلح بعظم الغارب القتبُ
ولا أخادع ندماني لأخدعه عن ماله حين يسترخي به اللب
وأنت وابنك لم يوجد لكم مثل ثلاثة كلهم بالتاج معتصب
الطيون إذا طابت نفوسهم شوس الجواجب والأبصار إن غضبوا

وهذا الصنف من المدح يصور لك نفس ابن ميادة الكريمة ، ويتراءى منه إياؤه وشممه ، لم يعرض كرامته في سوق الضراعة والاستجداء ، ولكنه يفخر بأنه يتعفف عن سؤال الخُلان ، ويأبى أن يطرح نفسه في مطارح الهوان ، ولم يزد في مديحه إياه على أن جزيل عطائه رفع من قدر العرب ، وعقب على ذلك ، بأنه يطلب الحاجات زاهدا فيها ، فلا يحرص عليها ولا يشتد في طلبها ، ويزهّد فيها زهد من تضلع من الطعام وبه منه كظة ؛ فما أشبهه بأولئك الذين قال الله فيهم : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم ، لا يسألون الناس إلحافا » ثم يريه أنه لا يخدع صديقه بزخرف القول ، وزيف المدح إذا صار في خفض العيش ، وتقيا في ظلال النعيم ، ليستدر ماله ، وينال عطائه ،

(١) تاريخ الطبري ج ٨ ص ٢٨٨ بتصرف

(٢) أغاني ج ٢ ص ٣٠٢

(٣) السنق الذي قد شيع حتى بشم

وبعد هذا السياق الذي لا يدع مجالاً للشك في عزة نفسه، وشرف غايته يذكر أنه وابنيه حقيقون بالخلافة جديرون بالتاج والملك، وأنهم وأسعو الرضا إذا طابت نفوسهم، شديدو السخط إن غضبوا، فهو لم يجد على الخليفة وابنيه من الثناء بقدر ما نعت به نفسه من الخلال الحميدة والمناقب الشريفة، ولم يغنه ذلك. ولكنه بعد الآيات السابقة انبرى على طريقة أبي الطيب يزهو بنفسه، ويسمو بها على سائر الشعراء. ويجرى أمامهم في حلبتهم، فلا يشق غباره، ولا يدرك مداه فيقول:

قسنى إلى شعراء الناس كلهم وادعُ الرواة إذا ما غث ما اجتلبوا
إني وإن قال أقوام مديحهم فأحسنوه وما حابوا وما كذبوا
أجرى أمامهم جرى امرئ فليج عنائه حين يجري ليس يضطرب
ألا ترى أن الرماح رسم إلى المتنبى هذا الطريق، ودله على السبيل، في هذا النهج الجميل، الذي يسوق الزهو بالنفس، والعجب بها، في معرض يوثق السمع، ويرتاح إليه الطبع، وتسربه النفس، ويقبله الفؤاد، فيقول وهو يمدح سيف الدولة:

وما الدهر إلا من رُواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
فسار به من لا يسير مشمراً وغنى به من لا يغنى مغرداً
أجزنى إذا أنشدت شعراً فإنما بشعري أذاك الملاحون مردداً
ودع كل صوت غير صوتي فإنما أنا الطائر المحكي والآخر الصدى
وشتان بين شاعر البادية، الذي يرسل قوله عن فطرة خالصة، وسليقة صافية، وخواطر لم ينسج خيوطها إلا من طبع مجيب، وإلهام موات؛ وبين شاعر الحكمة والفلسفة الذي نبت في أحضان حضارة إسلامية منخولة، نضجت وآت ثمرها، وتغذى عقله بعصارة علوم الفرس والروم واليونان.

ولقد بقى ابن ميادة على الوفاء للوليد بعد أن قتل، رغم اضطراب الأمور، وجنون الفتنة بعد مصرعه، وتسابق الموتورين والطامعين من العرب إلى التكيل به؛ ووصمه بكل بقاء مشهورة، فقد حدثوا أن عبد السلام بن شماخ اللخمي

طار فاحتز رأسه ، ليقبض من يزيد بن الوليد مائة ألف ثمنها ، وأقبل أبو الأسد مولى خالد بن عبد الله القسري ، فسلخ من جلد الوليد ليثأر لمولاه خالد ، وجاء عمرو بن مروان وقطع كفه اليسرى وبعث بها إلى يزيد بن الوليد زلقى إليه ، وعرض رأسه على أخيه سليمان بن يزيد فردده وشتمه ، وقال أشهد أنه كان شروباً للخمر ، ماجناً ، فاسقاً (١) ، مع كل هذا حفظ ابن ميادة عهده ، وبكاه ورثاءه ، وعرض بني مروان لبشاعة التمثيل ، وفظاعة قتله ، فقال :

ألا يالهفتي على الوليد غداة أصابه القدر المتاح
ألا أبكي الوليد قتي قریش وأسمحها إذا عد السماح
وأجبرها لذى عظم مهيض إذا ضنت بدرتها اللقاح
لقد فعلت بنو مروان فعلاً وأمرأ ما يسوغ به القراح

أما غزل ابن ميادة فبدوى صميم ، وحجازي رقيق ، وخياله صحراوي بحت ، تهيجه النار تلوح له من بعد ، في جنح الليل البهيم ، ويخيل إليه أنها أوقدت حيث تحل الحبيبة ، ويشير ما بين جوانحه الأمكنة التي قد تتمر بها ، أو تحل فيها ، أو كانا يلتقيان عندها ، فيتغنى بها ويتطرب بذكرها . وتارة يتمثل إليه أن ضفيريها المرسلتين على متنها سعف النخل ، وأن فتيت المسك تنثر حولها ، وأنها آتق منظراً ، وأعطر ريحاً من روضة يخضلها الندى ، ويتوجها الأقحوان والعرار ، وأن درعها وخمارها قد ضما على أسطع من ريح القرنفل ، وأطيب من شذى المسك ، وأنها أندى صوتاً ، وأحسن التفاتة من ظلية ترسل بغياتها مع الريح ، وتتلقت نقوراً مروعة من جبال الصائد ، وشرك القانص ، ثم يزجي القول عن صواباتها في ثناء وإعجاب ، وينعتن بالنعومة والطهر والصون والتمتع ، والملاحة والحسن كأن في وجوههن مقل الأطباء ، وفي أعطافهن ريح الخزامى (٢)

فقد حدثوا أنه خرج يبغي إبلا له ، حتى أتى جبلاً ، فوجد عجوزاً قد أسنت ، وطلبت أن تقر به ، فلما استقر به المكان عندها استنشى ريح الطيب الذي صار

(١) الطبرى ٩ ج ص ٣ بتصرف

(٢) ٢ أغاني ص ٣١٦

ينفخ عليه من البيت ، ثم دخلت عليه بنت جميلة لهذه العجوز ، فالت من فؤاده ، وانصرف يتشعب بها في قوله :

نظرنا فهاجتنا على الشوق والهوى لزنب نار أوقدت بجبار
كان سناها لاح لي من خصاصة على غير قصد والمطى سوارى
وما روضة خضراء يضربها الندى بها قنة من حنوة وعرار
بأطيب من ريح القرنفل ساطعا بما التف من درع لها وخمار
وما ظبية سافت لها الريح نعمة على غفلة فاستسمعت لحوار
بأحسن منها يوم قامت فأتلعت على شرك من روعة ونفار
فليتك يا حسناء يابنة مالك يبيع لنا منك المودة شارى

هذا نمط ابن ميادة في شعره حين يتشعب ، وهو نمط صحراوي ، لا يتميز من الفطرة الأولى للشعر العربي ، في عهده الجاهلي والإسلامي ، فهو دائماً يستلهم البادية : جبالها ، ونباتها ، ونوارها ، وتلاعها ، وظباءها ، ويستنبط معانيه من البيئة التي تحيط به ، والبقاع التي يحل فيها ، ثم يخرجها كما تيسر له ، لا يسهر عليه جفنا ، ولا يكده طبعاً ، فيختشبه اختشاباً ، لا يتنوق فيه ولا ينقحه ، وقد قيل له مرة : (لو أصلحت شعرك لذكرت به ، لأن فيه كثيراً من السقوط ، فقال : إنما الشعر كنبل في جفرك ، ترمى به الغرض ، فطالع وواقع ، وعاصد وقاصد ^(١)) فهو شاعر الفطرة والسليقة ، لا شاعر العمل والصناعة ، وما أشبهه بجرير ، فلم يكن شاعراً حولياً أى ينقح الشعر ويهذبه (وكان الفرزدق ينقح الشعر ، وكان جرير يخشع ، وكان خشب جرير خيراً من تنقيح الفرزدق) ^(٢) ومع هذا كانت غطفان تباهى به وتعهده أشعر شاعر فيها في الجاهلية والإسلام . لهذا تقرأ الكثير من شعر الرماح فترى خواطره مرسله كما تجيء ، لا تجمع بينها أواصر المنطق ، ولا نياط التفكير والتنقيح ، إلا أنه شديد المسلك لا يتعسف ولا يسخف ، ولا يفرق

(١) ج ١ تاريخ الأدب لرجى زيدان ص ٢٩٩ والعاصب المتلوى الذي لا يصيب

الهدف

(٢) أساس البلاغة مادة : خشب

في الحوشية ، ولا يسترسل في جفوة الأعراب ، بل يرسله مأنوساً سهلاً ، سائغ
المورد جزلاً ، ويكسوه شملة صحراوية ، ويلبسه حلة بدوية . وابن ميادة في حرية
شاعريته ، وبداوة ديباجته ، مجيب لطبعه ، خاضع لسليقته ، لأنه أولع بالصحراء
لم يألف سواها سكناً ، ولم يتخذ غيرها وطناً ، وكان له بالصحراء حنين عجيب ،
وشوق غريب ، فقد كان الوليد بموضع يقال له « أياير » (١) بالضم والياء الثانية
مكسورة ، في جهة الشمال من أرض حوران ، كان يخرج إليها أيام الربيع للنزهة ،
وبعث إلى الرماح فأنزله في كنفه مكرماً منعماً ، ولكن لا يهناً له عيش ، ولا تطيب
له حياة إلا بين تلاع الصحراء ورمالها ، فقال والوليد يسمع :

لعمرك : إني نازل بأياير وضوء ، ومشتاق وإن كنت مكرماً
أبيت كأني أرمد العين ساهراً إذا بات أصحابي من الليل نوماً
فقال الوليد : يا ابن ميادة ، كأنك غرضت من قربنا ، فقال : مامثلك يا أمير المؤمنين

يغرض من قربه ولكن :

ألا ليت شعري هل أيتن ليلة بحرة ليلى حيث ربّتي أهلي
بلاد بها نيطت على ثمائي وقطعن عني حين أدركني عقلي
وهل اسمعن الدهر أصوات هجمة تطالع من هجل حصيب إلى هجل
وهل أسمعن الدهر صوت حمامة تغني حمامات على فنن جثل
وهل أشربن الدهر مزن سحابة على ثمد الأفعاة حاضره أهلي

فقال الوليد : اشتاق الشيخ إلى وطنه . ومنحه مائة ناقة دهماً جعداء عشراء
وفلها ، وجارية بكرا ، وفرساً عتيقا ، وجعل له مثلها كل عام ، وسمح له أن
ينصرف إلى وطنه (٢)

على أن ابن ميادة قد يتجرد أحياناً من جزالة البداوة ، فيرق شعره ويتحضر
ويلين ويتكسر ، ولكنه لا ينسى ماركز في طبعه ، وغرس في نفسه ، من أن

(١) وردت في الأغاني ج ٢ طبعة دار الكتب (أباين) والصواب ما ذكرناه

عن معجم البلدان

(٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٢٠٥ والأغاني ج ٢ ص ٣١٠ طبعة دار الكتب ينصرف

يستمد من الضحراء وحيه ، ويستلهمها خياله ، فقد كان بما أعطاه الوليد جارية
طرية أعجمية لا تفصح ، ولكنها حسناء جميلة ، فعشقها ابن ميادة ، وقال فيها :
جزاك الله خيراً من أمير فقد أعطيت مبرادا سخونا
بأهلى ، ما ألدك عند نفسى لو أنك بالكلام تعزينا
كلأئك ظبية مضغت أراكا بوادى الجزع حين تبغينا

فلم يشأ فى رفته ولينه . وإعجابه بصوت جاريته التى لا تفصح : إلا أن
يشبهها بظبية سانحة بوادى الجزع ، تمضغ الأراك وتبغم بصوتها اللين الخنون .
ولابن ميادة طابعه الخاص ، حين يسكن الحب بين أضالعه ، ويتقد بصدرة
ويلق المرأة ، وتملك الصباية عذاته ، فانه يشعل فى نفسك لوعة الوجد ، ويجررك
مرارة الفراق ، ويسكب فى قوادك كأساً من حسرة المدله ، ويلقى على مسمعيك
نبرات تسمعها خافتة خفوت اليأس المقهور ، فى مقاطع تعشقها الأسماع ،
وتألفها الطباع ، وهو فى ذلك رقيق لا ترى لرفته نهاية ، وعذب ليس لعذوبته
غاية . لقد أحب ابن ميادة امرأة من عشيرة ، تسكنى أم جحدر ، ونسب بها ،
وباعد أبوها بينه وبينها ، كما جرت بذلك عادة العرب من حرمان الرجل حبيبته ،
إذا شرب بها ، أو تحدث الناس فى شأنهما ، وزوجها رجلاً من الشام ، وارتحل بها
فلقى عليها شدة ، وخرج ورامها ، يجد فى أثرها حتى أدركه أهله ، فارجعوه
صامتاً لا يتكلم من الوجد بها إلا بقوله :

ألا لاتعد لى لوعة مثل لوعتى	عليك بأدمى والهوى يرجع الذكرا
عشية ألوى بالرداء على الحشا	كأن ردائى مشعل دونه جمرأ
لعمري لى أمسيت يا أم جحدر	نأيت لقد أبلت فى طلب عذراً
خليلى من أبناء عذرة بلغا	رسائل منا لا تزيد كما وقرا
أما على تيماء نسأل يهودها	فان لدى تيماء من ركبها خبرأ
وبالت شعرى هل يحلن أهلها	وأهلك روضات يطن اللوى خضرا
فأعجب دار دارها غير أنى	إذا ما أتيت الدار ترجعنى صفرا
ألا ليت شعرى هل إلى أم جحدر	سبيل ؟ فأما الصبر عنها فلا صبرا

وانى لاستنشى الحديث من اجلها لاسمع عنها وهى نازحة ذكرا
 وبنى لاستحى من الله أن أرى إذا غدر الخلان أنوى لها غدرا (١)
 فهو فى حبه وغزله من طراز أولئك الشعراء العذريين ، الذين أصبتهم النساء ،
 ودلهم الغرام ، وعاشوا بعقل مسبوه ، وفؤاد موزع ، أشباه جميل وعروة وقيس ،
 أولئك الذين تقرأ شعرهم ، فتردد فيه نفوساً محرومة ، وقلوباً موجعة ، كأنك
 تلمس خفقاتها باصبعك ، أو تتردد أناتها على مسمعك ، فترثى لحالهم ، وتكتوى
 بلوعتهم ، وتحس كأنك هم ، فهات بالك ألقى عليه قول ابن ميادة :

بنفسى وأهلى من إذا عرضوا له يبعض الأذى لم يدر كيف يجيب
 ولم يعتذر عذر البرى ولم يزل له سكتة حتى يقال مريب
 إنها نفس مخبول ، قنص بجبائل الصباية ، وسحر بفعل الهوى ، فلم يستطع أن
 يدفع الناس إن عرضوا له بأذى ، لأنه لا يحير جوابا ، ولا يجد دفعا ، وإن كان
 يعلم علم اليقين أنه بنجوة من التهمة ، نقى من الريبة ، ولكنه لا يستطيع أن يتصل
 بما قرف به ، أو يتنضح بما اجترم عليه ، فيرمى بذنب لم يجنه ، ويحمل إثما لم يجترحه .
 ثم انظر إليه وقد احتشدت إلى خياله سوائف الذكريات ، وتمثلت إليه صور
 الأماكن والبقاع ، وما جرى بها من مواقف الوداع ، فجعلته كالمذلة المتناع ، فظن
 أن لقاءها شيء ليس مما يمكن الحصول عليه ، أو يتيسر الوصول إليه ، وأنه لا يشقيه
 إلا سهام الحب التى ترشقه حينما يستيقظ من نومه فيقول :

يمنونى منك اللقاء وإننى لأعلم لا ألقاك من دون قابل
 ولم يبق مما كان بينى وبينها من الحب إلا مخفيات الرسائل
 وإنى إذا استنبت من حلورقده رُميت بحبيها كرمى المناضل
 ثم ها هو ذا يحدثك فى قصيدته هذه أن الحب جنى عليه فصرفه عن سائر
 النساء ، وقد كان يرمى الزوائل ، أى طبائبا بإصباة النساء ، خلبا لهن ، فلما وقع صريع
 الغرام ، وأصبح نضو السقام ، عزف عنهن ، وفرغ قلبه من الشغل بهن ، فيقول :
 وكنت امرأ أرمى الزوائل مرة فأصبحت قد ودعت رمى الزوائل

وعطلت قوس اللوز من سرعانها وعادت سهامى بين رث وناصل
فابن ميادة شاعر كسائر الشعراء ، وتشبيهه ككل تشبيب ، حين ينسوقه على
غرار الشعراء الاسلاميين ، فى عبث النفس ، أو مقدمات المدح ، فيرصعه بذكر
الديار والطباء والآراك وما إلى ذلك من مشاهد البادية ، ثم يعرض لاجباب
الغواني به ، وإدلاله بنفسه ، ومسارقتن النظر إليه ، ورميه بسهام اللحاظ ، شأنه
فى ذلك شأن الشاعر الكذوب ، أو الشاب الدعب الطروب ، فمن ذلك قوله :

وكواعب قد قلن يوم تواعد قول المجد وهن كالمزاح
ياليتنا فى غير أمر فادح طلعت علينا العيس بالرماح
بيننا كذاك رأيتنى متعصباً بالخرز فوق جلاله سرداح
فيهن صفراء المعاصم طفلة يضاء مثل غريضة التفاح
فنظرن من خلل الحجال بأعين مرضى مخالطها السقام صحاح
وارتشن حين أردن أن يرميتنى نبلا بلا ريش ولا بقداح

فهذا شعر حسن ، وسبك محبوك ، وصنعة دقيقة ، كأنه من بضاعة عمر ابن
أبى ربيعة وسيله مألوف لمن تقدموا ابن ميادة أو تأخروا عنه من الشعراء
ولكن معانيه لم تنبع من قلبه ، ولم تتفجر عن عواطفه ، ولم يصورها إحساسه ،
أو ينفخ فيها بروحه . ومن الشعر المصنوع لابن ميادة ، وإن كان ما أفضى عليه
من العفة والتصون ، وما أودعه فيه من الاجادة وحسن السبك ، أسنى قيمته ،
وأعلى مرتبته قوله :

يا أطيب الناس ريقا بعد هجمتها وأملح الناس عينا حين تنتقب
ليست تجود بنيل حين أسأها ولست عند خلاء اللهو أغتصب
لا يمكننا القول فى هذا الشعر وأضرابه إلا أن ابن ميادة صانع حاذو
ومثال ماهر ، ونساج محكم جيد القون متمرن ، ولكنه غير مطبوع ولا ملهم ،
أما إذا أردت أن تسمع الفن فى شعره ، وتمسك قلبه بين مقاطعه ، وتعرف شيئا
أحلى من الوصل ، وأفعل من الخمر . فهناك قوله :

كان فؤادى فى يد قبضت به محاذرة أن يقضب الجبل قاضيه

وأشفق من وشك الفراق وإنتى - أظن - - المحمول عليه فراكبه
 لقد سبقتك اليوم عيناك سبقة وأبكاك من عهد الشباب ملاعبه
 فوالله لا أدري أينلبنى الهوى إذا جد جد البين أم أنا غالبه ؟
 فان أستطع أغاب وإن يغلب الهوى فمثل الذى لا قيت يغلب صاحبه
 وكان ابن ميادة يرق ويعذب اذا استجاب لطبعه واستلهم روحه وعاطفته
 وإذا قال كما يقول الناس ، كان جزلا رصينا ، ومال إلى التوعر أحيانا ، واحتفى
 بدقة الصنعة ليستر ما فاته من طبعه وما خالف فيه وجدانه . وقد تأثر بصحبة
 الوليد ، فقال فى الخبر ، ومن ذلك : (١)

ألا رب خمار طرقت بسدقة من الليل مرتاداً لندمانى الخمر
 فأهلكه خمرأ وأحلف أنها طلاء حلال كي يحملنى الوزرا
 وقد غلبت عليه ورائته لزهير بن أبى سلى فكان أحيانا يرسل المثل
 والحكمة كقوله : (٢)

وأرانا كالزراع يحصد الدهر فمن بين قائم وحصيد
 وكأنا للبوت ركب مخبؤ ن سراع لمنهل مورود

وقوله : (٣)

بنو الصالحين الصالحون ومن يكن لآباء سوء يلقهم حيث سيرا
 فما العود إلا نابت لأرومة أبى شجر العيدان أن يتغيرا
 وأختم كلامى عنه بقول الأصمعى : (ختم الشعر والشعراء بالرماح) (٤)

حسن علوانه

(١) ج ٣ ص ١٩٧ البيان والتبيين

(٢) ج ٣ ص ٨٣ نهاية الأثر

(٣) ج ٢ أغاني ص ٣٣٧

(٤) ج ٣ ص ١٩٧ البيان والتبيين

ابنتي...!

بقلم عمير الحق سرف الدين

المدرس بـ مدرسة المنصورة الثانوية

لعمري لقد أمسى فوادي مروّعا
وعدت أليف الحزن أسوان با كيا
وما كنت أخشى الخطب حتى رزته
تصبرت قسراً واحتملت تجملاً
وكيف ينال الصبر فاقد ولده
بلى ، قد بلوت الحزن حتى ألفتها
ثكلت « نوارا » نور الله قبرها
فيالهف نفسي يوم لج بها الردى
ويالهف نفسي يوم شيعت نعشها
أحاط بها الآسون والداء كامن
وعاد طيب الحى ينفض كفه
وجاءت وفود القوم ما بين معول
وحال اجتماع الشمع ثكلاً ولوعة
وأمسى جرى البرق يحمل نعيها
عزيز علينا يانوار تباعد
عزيز علينا يانوار تفرق
نقضت الليالى فى ا كتاب وخبرة
وتندب زهراً قد تقصف لها
أتيت مع الوسى والكون مشرق
وأصبحت بعد الثكل حيرانه وجعا
على بائن منى تولى وودعا
فأصبحت نهبا للموم موزّعا
ولكن صبرى مذ دهيت تمنعا
أليس خليقا أن يئن ويفزعا؟
وما حدثت عن داعى الحنان إذ ادعا
وأسكنها فى جنة الخلد مربعا
فظلت تعاني الموت حتى تربعا
وبى حرقه تسرى بقلبي والمعنى
وآبوا حيارى ليس يلقون مفزعا
ولم ياق فيها للسلامة موضعا
أسيف ومضى بالفجيعة رُوّعا
وفرقة آباء وحرناً وموجعاً
ويصمى قلوب الهاجعين بما نعى
وردنا به ورد الشقاوة مترعا
أضرّ بنا منذ البعاد وأوجعا
ونذكر عهداً لن يعود ويرجعا
ونرقب نجماً لن يعود ويطلعا
وابت فأمسى ربع صفوى بلقعا

وما كنت أدري أن نجمك آفل وشيكا، وعهدي أن يبين ويلعنا
وما كنت أدري أن غصنك ذابل سريعا، وظنى أن يمد ويونعا
لقد كنت أرجو أن تعيش وتنعمى وتلقى نماء بيننا وترعرا
ولكن موتا لست أملك دفعه طواك وولى يابنية مهرعا
فكنت كبدر التم يمكث بيننا قليلا ويعروه المحاق مودعا
وكنت كنور الروض إبان فصله يظل نضيرا ثم يحل مسرعا
دعتك شعوب فاستجبت نداءها وسامتك نزعا ما أشق وأفظعا
وغالتك منا ماتريم وما تى وألفت بعدا الحسن والحى والسنا
فيالك من زور تربص جاهدا بتأريث حزن خب فيه وأوضعا
ويالك من زور تشبث ملحفا بحبة قلب ماعداها وما رعى
ويالك من زور ثقل، وطارق وييل، وضيف ما أضل وأبشعا

أقول وقد أضى بعادك إخوة صغارا وثكلى ما تكفكف مدمعا
وحيدتها زفت إلى القبر عاجلا فبات بهم ما أحر وأوجعا
أيارب رققا بالحزان ورحمة وثوبا إلى الصبر الجميل ومرجعا
فليس لنا من دون حكمك موئل وليس لنا أن نستزل ونجزعا
ولكننا الأولاد منا، وثكلهم أليم، وشأن الحى أن يتروعا
فلقى التياعا للصاب مجريا دموع عيون لن تقر وتهجعا
ففى رحمة الله العلى وعفوه تلاقين برا دائما وتمتعا
وتلقين ربا للخلائق بارثا يميت ويحيى من يشاء منوعا
عليك سلام الله قد كنت منية وقد كنت آمال المكارم أجمعا
عبر الحق شرف الدين

وأذن في الناس بالحج

بقلم عبد العزيز سبر الأول

المدرس بمدرسة محمد علي الابتدائية للبنين

هَتَفَ الدَّاعِيَ فَلَبَّ الدَّاعِيَ أَيُّهَا الْمُسْلِمُ، وَانْهَضْ سَاعِيَا
وَأَنْسَ دُنْيَاكَ قَلِيلًا، إِنَّهَا سَوْفَ تَلْهُو عَنْكَ، فَاسْبِقْ لَهَايَا
وَاخْلَعْ الثَّوْبَ الَّذِي جَمَلْتَهُ قَبْلَ أَنْ تَمْسِيَ مِنْهُ عَارِيَا
وَاسْعَ اللَّهُ بَرِيئًا طَاهِرًا خَاشِعَ الطَّرْفِ ذَلِيلًا رَاجِيَا
غَبْرَ النَّعْلَيْنِ فِي طَاعَتِهِ إِنَّ (مُوسَى) قَدْ أَتَاهُ حَافِيَا

يَمَّمُ الْأَرْضَ الَّتِي قَدْ شَرُفَتْ بِالنَّبِيِّينَ وَجَلَّتْ وَادِيَا
جَالِ (إِبْرَاهِيمَ) فِي أَنْحَائِهَا وَابْتَنَى الْبَيْتَ الْعَتِيقَ الْعَالِيَا
وَالذَّبِيحَ امْتَثَلِ الْأَمْرَ بِهَا فَبَاهُ اللَّهِ مِنْهُ الْقَادِيَا
وَمَشَى (جَبْرِيلَ) فِي حَصْبَائِهَا بِالْهَدَى يَلْقَى الْأَمِينَ الْهَادِيَا

يَا بِنَفْسِي بَلَدًا لَوْ زُرْتُهُ نَلْتُ فِيهِ مِنْ مُنَايَ الزَاهِيَا
أَطْرَحُ الْآثَامَ فِي مَطْرَحٍ يُسْبِلُ السُّتْرَ عَلَيْهَا ضَافِيَا
وَأَعُودُ الْغَدَ لَا تَثْقَلَنِي - جَسَدًا طَهْرًا، وَجِيدًا حَالِيَا
بِحَ صَوْتِي أَطْلُبُ الدُّنْيَا فَلَمْ أَرِ فِيهَا بَعْضَ يَوْمٍ صَافِيَا
لَيْتَ لِي فِي عِرْفَاتٍ بُحَّةٌ وَيَكُونُ اللَّهُ عَنِّي رَاضِيَا
وَحَصَا أَقْدِفَهُ مَزْدَلِفَا فِي فَمِ الشَّيْطَانِ نَبْلًا رَامِيَا
حَالِ يَا قَوْمِي مَا وَسَّوسَ لِي فَلَا ذِقَهُ بَعْضُ مَا أَغْوَانِيَا

أيها المسلم ، ما أسعدها ذكريات وزماناً هانيا
يوم تنوى الحج للبيت ترى طفلة تشدو وطفلاً شاديا
ونساء النحي حين اجتمعت تنشد النحي فتروى الصاديا
وحديثاً عن معاني مكة هزج الأنعام محلوا شافيا
وقلوباً صوّرت من ولّه شاكيات مسمعات شاكيا
تتمنى (زمرماً) أو (كوثرأ) تعبران البحر طيفاً ساريا
ساخرأ بالموج قيدومهما ماضياً في الموج سهماً ماضيا
لهما من عزم (حرب) عزمة تشعّر البحر رزينا ساجيا

أيها المسلم ، أسرع طائعا هتف الداعي قلب الداعيا
وإذا الكعبة طوّفت بها ودعوت الله فيها باكيا
فابتهل واذع لمصر قائلا رب فانصرهما ونج الواديا

عبد العزيز سيد الأهل

المتنبى بعد ألف عام

بقلم الأديب عبد الرحمن الكبالي

الطالب بدار العلوم والحائز للجائزة الأولى للشعر في عيد الوطن الاقتصادي

دعوة قد لج في الكون صداها لست أدري أين يغدو متهاها
هتفتُ بي وأنا في سِنَةٍ فترامى لى عن بعد سيناها
مُشرقاً كالقِجر في طلعه قَبَسٌ يبعث للنفس هداها
أين هذا النور ؟ ما مطلعُه ؟ كيف يبدو في ظلام ما تناهي !
يَملأُ الأفق مضيئاً ساطعاً ونجومُ الليل لم تبحر مداها
فاض كالبحر شعاعاً خللته حلَّةٌ زينت الكون حلاها
ما أرى ؟ مطلعُ فجر صادق أم عيون الشعر قد فاح شذاها
أم نبي الشعر من مرقدِه هبَّ ، يستوحى القوافي من سماها
مرعداً تحسب في منطقِه زارة الليث إذا ما الليث تاهها
شاعر منذ رتل آياته رقص الدهر طروباً من غناها
إن تغنى أو شدا مزماره خلت أن السحر بالأشعار فاهها
أيقظ الأيام من غفلتها فغدت تشمل من فن أناها
سكر الصبح على أنغامه وهَمَى الغيث شجياً من حداها
وسرت ريح الصبا ناعمةً ذات لحن هز في الأرض رباها
علم الطير على أغصانها نعمة تقصى عن العين كراها
ومشى في البحر ، فارتاحت له سفن البحر ، وماست في دجاها
ورنا الموج إلى ترجيعه خاطراً يحكى الغواني في مشاهها
هامساً في أذن الماء : لقد بز هذا الشاعر الفرد المياها

من رأى الصياد في غدوته يطلب الظبية في بطن فلاها
 رائغاً يرمى إليها نبله فتطيش النبل من حيث رماها
 حائراً قد ضل في يديها وهي قد غابت، فما عاد يراها
 ضلت انطير على آثارها وعقاق الخيل قد كلت وراها
 وسعت أكله فانكفأت تفرع السن لدن خاب رجاها
 ورأى أحمد يدعو شرداً من معانيه، فتعنو إذ دعاها
 وقفت إذ رامها جامدة قيدت أفكاره كل خطاها
 نافذ الرأي بعيداً غوره لا ترى فيه التباسا واشتباها
 يهتدى في لجة البحر إلى درر الشعر، إذا الغواص تاها
 ويروم النجم يبغي جاهداً أن يرى أخمصه فوق ذراها!
 ناعم القول إذا لا ينفته ولظى تصهر من رام أذاها
 يقصد المقتل لا يخطئه بسهام مرهف الطبع براها
 ولسان بات يقرى غربه سدة الملك إذا رام عداها
 صارم كالسيف، ماض حده، صائب من عزة الخصم كلاها
 قد رمى كافور من منطقته بسهام نافع السم غذاها
 وتعالى بابت حمداً له مدح قد لثم النجم ثراها
 بطل في الحرب إن أبصرته فلقد أبصرت في الحرب قتاها
 خائض في كل مضمار إلى غاية السبق فلا يرجو سواها
 دبت الحكمة في أعطافه كديب الماء في أرض سقاها
 فهو ما ينفك في أربعها راتعا يقطف من طيب جناها
 خالد في الدهر ما خنت به ساجعات أوقد القلب شجاها
 سائر في كل واد شعره سريان النسر في اليد طواها
 هائل كالزن في تهاته تجدد الدنيا من السقم دواها

شائع كالضوء في أطرافه بسمه للصبح مخضوب لماها
وترى الأيام سالت أدمعا حين تهوى مقلته من بكها
موحش كالليل في أحزانه ان رثى النفس فأبلى في رثاها
وربى صغرت في عينه دارة الأفلاك وانحط علاها
مشرف طوراً على أطواها وسبوح تارة فوق فلاها
طاعن الأيام والناس معا وحده، والنفس ماخارت قواها
قتولى وستان الرمح من دمها كالنار محمراً لظاها
لم تزد ألف حول في الدنى غير ذكر زاد فيضا عن هواها
فهو ما ينفك أستاذا لمن هز بالشعر يراعا أو شفاها
ذل أن يلحق «هومير» به كيف تعلو أعين الناس الجباها
شاعر العرب، إمام القول في دولة الشعر، عمودى بناها

يانبي الشعر هل من نفحة تنقذ الأشعار بما قد دهاها
لا كها اليوم أناس ركبوا لجة الليل فضلوا في عماها
أدعياء صدت أنفسهم فغدت ألسنهم باد صداها
تخدش الأذان من منطقهم نعمة الأثى إذا الخصم سباها
جهلوا الشعر، وظنوا سفها أنهم قد أحرزوا بالنظم جاها
أين من يسبك تبراً خالصاً من دعى بنحاس يتباهى؟

عبر الرحمن الكيالى

الكرامة

بقلم فرحات عبد الخالق

المدرس بمدرسة كوم حمادة الابتدائية

آثر المرء في الحياة السَّلامه فاشترها، وباع فيها الكرامه
 قلَّ في الناس من أراه أيَّاً لم يستمَّ إلى الهوان زمامه
 أشرب الخائرُ الجبانُ نفاقاً ملاَّ القلبُ منه حتى صمامه
 إذ رأى مغبر الصراحة وعرا قد يلاقى الإنسانُ فيه حمامه
 واستقلَّ الفتى الشجاعُ بقلبٍ بدَّ عند النزال قلبُ أسامه
 عِزهُ والحياة صنوا وجودٍ من رمى عِزهَ بغي إعدامه

لى رئيس، لا كان يوماً رئيساً، أتمنى من الرؤوس انفصامه
 لا لحقد - قد طهر الله صدرى - إنما عبت في الرئيس أثامه
 ما تجنَّيتُ إذ لويتُ عليه شهد الله، أو هدرت مقامه
 للرئيس الكريم منى انقياد واحترام، إذا استحق احترامه
 أن أطيع الرئيس أمر حلال يوم يدرى حلاله وحرامه
 فاذا سدَّد الرأسُ سهماً لاهتضائى، فكيف أرضى اهتضامه
 فاذا ما عصيت أمراً فويلي إذ أراه مجرداً صمصامه
 صاح، قل لى، فأين يذهب رأيتُ أفأخشى من الرئيس انتقامه ؟
 فألاقي تكبراً يخضوع وأدارى تغيظاً فى ابتسامه
 أم أجازى الرئيس، كيلاً بكيل وأجازى صرامةً بصرامه
 وليكن ما يكون من أمر ربى إنه العدلُ لا يقر ظلامه
 وعلى الله لا على الناس رزقى كفل الله فى العباد اقتسامه

صاح، إمتا خسرت رزقي فحسبي غنم عقلي : وما أجلّ اغتنامه
لا أحب الحياة والسعد ذيلا وأحب الحياة والبؤس هامة
عاشقا غابة الجحيم هزبرا كارها جنة النعيم نعامه

أيها القادة الذين وليتم من أمور العباد أمر الزعامه
إن للشعب - لو قدرتم - حقوقا عظموها فقبلغوا إعظامه
نشئوه على الكرامة ، أو لا كيف تأتى إلى النفوس الكرامه ؟
وأراكم تسائلون : لماذا لم تهذب أخلاقنا ، وإلى مه
فتجيب الأخلاق : منكم علانا وعليكم إذا هبطنا الملامه

فرمات عبر الخالق

المذيع

وشاد ولكن بغير الغصون من الحفل في جانب ينصب
 شية الحقيية في شكله يضج به البيت والمشرّب
 له أذن تجذب (الكهرباء) فتشهد (تيارها) ينكّب
 متى حرّكت جال فيه الزئير زئير الأسود إذا تفضّب
 كأن به ثورة للرياح يخاطها المطر الصيب
 متى هدأت ومضى عصفها بدا نغم منه مستعذب
 وتدفعها فيكف الحديث إذا كنت عن سمعه ترغب
 وأخرى تحدّ مدى جرسه فيأى بها الصوت أو يقرب
 إذا حرّكت غض من صوته وإن فرّكت عكسها يصخب
 تظل تحرك أذانه.. فيأى هواك كما ترغب

خطيب يؤثر في السامعين بليغ بألباهم يلعب
 رسول إلى الخلق المرتضى وبجر من العلم لا ينضب
 وأنا يرجع عذب الغناء كما رجّع الصاح المطرب
 إذا أرسل الشرق ألحانه حكاه، فأصغى له المغرب
 كأن المذيع بجثمانه على الناس من جوفه يخطب
 له في المنازل فضل المعلّّم في حلية الدرس، كم ينبغي؟
 أذاع الثقافة في جوّها فكان له الأثر الطيب
 رسول «الاثير» له خادم يشق الفضاء ولا يتعب
 تؤدى البريد له (موجة) من البرق في ومضه أقرب
 كأن الوجود على كفها فسيان (باريس) أو (يثرب)

على سرف الربيع

المدرس بمدرسة دمايط الابتدائية للبنين

المُعَلِّم

بقلم عبد الستار سليم

المدرس بمدرسة الأميرة فوزية الثانوية

راحت ترهذي في مهنتي، وغدت ترغى وتزبد في لومي وتانيبي
تقول: يا ويلتا مما تكايده وما تقاسيه من سُهد وتعذيب!
كأن عبك طود ما نهضت به إلا قعدت لإدلاج وتأويب
ولو خلقت حديدا ما احتملت كما قد حملوك، ولم تنهض بمطلوب
فيا لهول الذي تلقاه من كبدٍ وبالجهد عفيف منك مسلوب!

تقضى نهارك في كد وفي نصب وخمة الليل في بحث وتنقيب
وتقطع العمر في بذل وتضحية ما بين درس وشرح ثم تعقيب
تملى وتكتب لا كلا ولا وكلا ولا ضنينا بإرشاد وتصويب
بل تنثر العلم آيات منظمة شيئا فشيئا وتدريا بتدريب
فما سئمت حوارا طال أو جدلا ولا عيت بمقروء ومكتوب

كأنما أنت مثل النحلة انبعثت تجنى جنى الزهر في جدٍ وتطريب
قد شاقها نَزْلُ هَبَّتْ تنسقه تنسيق ذي خبرة للفن منسوب
لورخت تنعم فيما نسقت نظرا لقلت: أعجوبة بين الأعاجيب
فهل رأيت مشيجا فضة ذهباً أو قد بهت لنظم أو لتعقيب؟
در نصيد وفيه الشهد منسكب فهل عجت لمنزود ومسكوب؟
تبارك الله! بالالهام عليها ما يجهل الناس من مردٍ ومن شيب

تبنى العقول كما تبنى النفوس على غر الخلال بإحكام وترتيب
 تصوغها كالسلالى فى تألقها وكالرياحين فى نشر وفى طيب
 وبالمعارف تغذوها وتنهلها إنهاك روض بأفواق الشآبيب
 حتى ترى العلم قد جلتى غياهبها والعلم كالصبح يجلو كل غريب
 فإن تأبّت وولت منك جاحدة طفقت تعمل أشتات التجارب
 ولا تزال بها حتى تروضها كما تروض هوجاء اليعايب
 بالرفق واللين ، لا بالعنف ، إنهما أجدى على الطفل فى زجر وتأديب
 سياسة الملك قرت فوق عرشهما ولا تقر على بطش وترهيب

وكم تشاهد من طيش ومن نزق ومن مناظر أذى للأعاب
 يحوكمها نفر بالدرس قد برموا فأصبحوا عطلا مثل اليعاسيب
 إن قتت تسألهم : ما بالهم شغلوا بدمية أو يعود أو بأنبوب ؟
 جاءوا إليك بأعذار منمقة أو هى وأضعف من نسج العناكب
 وهم لعمر ك ما راموا ولا قصدوا إلا المزاح وإضحاك الأصاحيب

تقوم نخطب لا قس بن ساعدة وفى عكاظ خطيبا فى الأعاريب
 ولا زياد وقد رجّت مواعظه أرض العراقين من هول وترعيب
 بل أنت أبعد شأوا منهما ، ولقد أدركت شأوك فى نصح وترغيب
 ما ضقت بالصفح بعد العذر ، إنهم قد عاهدوا الله عهدا غير مكذوب

من كالعلم فى جهد ومصطبر وفى اضطلاع بتثقيف وتهذيب ؟
 الله هياه للنشء ينبته على الفضيلة فى أبهى الجلايب
 أمانة حملتها قبله رسل ما آذنت شمسهم يوما بتغريب

كانوا الهداة، وكانوا المرشدين، كما كانوا أولى العزم في طب و تطبيب
وفي الشئائل كانوا الزهر مبتسما وفي المكارم كانوا كالأهاضيب
بثوا العلوم فكانت للنهي قبسا جلا الظلام وجلى كل محجوب
فكل ما قد ترى في الكون من عجب أساسه العلم في سمك و تنظيب

قام المعلم يحذو حذوهم، ومضى موفّق الخطو في لآي و تقريب
يقود ناشئة للمجد طامحة إلى طريق العلا من غير تنكيب
وهم غداة غدٍ للنيل عدته وهم أولو أمره من غير تثريب
فكم ترى بينهم من نابِه بطل على الجناح، مطاع الأمر مرهوب
يحمي الحى ويزود الشر عنه، كما يُجرى الأمور برأى منه مشوب
ولو تولى مقاليد القضاء لما أبصرت غير قتي للعدل موهوب

فاين أين المرثى بعد طول مدى وبعد ما شاب في صقل و تشذيب؟
وبعد أن صاغ أقطاب الرجال، ولم ينعم بجاه، ولم يهنا بمكسوب
قد قلب الله أحوال العباد على شتى الوجوه، ولم يشعر بتقليب
لقد نسوه فما مدثوا له سيبا من الرجاء لمأمول و مرغوب
كانه همزة في البدء قد ذكرت لكنها حذفت بين التراكيب!

عبد الستار - المرم

في الفلسفة

نظرية أرسطو في الفضيلة

بين فلاسفة اليونان وفلاسفة المسلمين

بقلم محمد مهدي عاظم

المفتش بوزارة المعارف وعضو المكتب الفني بها

مقدمة : نظرية أرسطو ليس في الفضيلة :

لقد كتب أرسطو ليس عن الفضيلة كتابة خلدت على الدهر؛ ومهما يكن ما قيل في نقدها فإنها جديرة بالدرس والإعجاب . وسنتناول في هذا التمهيد ملخصاً وجيزاً لتعريف أرسطو للفضيلة ورأيه في فطريتها، وفي شروطها . ثم ننتقل إلى الكلام في نظرية الوسط ، معتمدين في تصويرها على كتابة أرسطو ليس وشراحه ، ثم ندلي بنقدنا الشخصي للنظرية . وبعد ذلك ننتقل إلى ما كتبه المسلمون في هذه النظرية معقنين عليه برأينا فيه .

تعريف أرسطو للفضيلة :

يعرف أرسطو الفضيلة على النحو الآتي :

فضيلة كل شيء هي ما يُتم حسن استعداده لأداء عمله وتنفيذه على الوجه الأكمل ، كفضيلة العين ، وفضيلة السيف ، وفضيلة الحصان ؛ فضيلة العين أن تبصر على أكمل وجه ، وفضيلة السيف أن يكون بئارا يقطع على أكمل وجه ، وفضيلة الحصان أن يجري ويحمل فارسه ويقاوم العدو على أكمل وجه ، وفضيلة الإنسان كذلك هي الحالة الخلقية التي تصيره رجلاً صالحاً ، رجلاً خيراً بحيث

يؤدي وظيفته في الحياة على أكملها . (كتاب ٢ باب ٦ فقرات ٢ - ٣) (١)

فطرية الفضيلة :

وهو يرى أن الفضائل ليست طبيعية فينا ، وإلا عجزنا عن تغيير طبائعنا . فالعادة لا تستطيع أن تغير ما هو فطري : مثل ذلك مثل الحجر الذي يهوى بطبيعته إلى أسفل ، فإنه لا يمكن أن يعود الصعود ولو حاول به المرء ذلك ألف مرة ؛ وكذلك النار فطرتها الصعود بلهبا ، ولا يمكن أن تتجه إلى أسفل ؛ وليس في الوجود جسم واحد يمكن أن يفقد خاصته التي تلقاها من الفطرة ، ليستبدل بها عادة جديدة (ك ٢ ب ١ ف ٢) .

وهو كما يرى أن الفضائل ليست فينا بالطبع ، يرى كذلك أننا لانكتسبها على الرغم من الطبع ؛ فالطبع أو الفطرة تجعلنا قابلين لها ، والعادة تنميتها وتمها فينا ؛ فليس لدينا من الفضائل أول الأمر إلا الاستعداد لها ، والقدرة على مزاولتها ، وبعد تلك المزاولة تنتج أفعالها . وشأننا مع الفضائل يخالف شأننا مع الحواس ؛ فتحسن لم نكتسب حاسة الإبصار ، ولا حاسة السمع ، بكثرة النظر ، ولا بكثرة السمع ، ولكننا نظرننا وسمعنا ، لأننا خلقنا ومعناها تان الحاستان . أما الفضائل فانتا لانكتسبها إلا بعد المراتة والمزاولة شأنها في ذلك شأن الفنون ؛ فالمرء الذي يزاول صناعة الهندسة يصبح مهندسا ، والرجل الذي يمارس مهنة الموسيقى يضحى موسيقياً ، وكذلك الرجل الذي يقيم العدل يصبح عادلا ، والذي يزاول الحكمة يغدو حكيما ، والذي يعود الشجاعة يصبح شجاعا . (ك ٢ ب ١ ف ٣ - ٤)

شرط الفضيلة اللذة :

ويشترط أرسطو في الفضيلة الشعور بالسرور في مزاولتها ، فيقول :

(١) في كتاب الأخلاق إلى نيقوماخوس : « Ethica Nicomachea »

وقد أشرنا عقب كل موضوع إلى رقم الكتاب والباب والفقرة ، لأننا لم نتبع الترتيب الأصلي الذي في كتابة أرسطاليس ، لما فيه أحيانا من استطراد وتكرار وتقديم وتأخير .

إن العلامة الظاهرة التي تكون بها الفضيلة فضيلة ، هي الشعور باللذة ؛ فالإنسان الذي يتنعم عن متع الجسم مرتاحاً لهذا الامتناع ، هو المعتدل أو العفيف ؛ أما المرم الذي لا يجحد نفسه تلك اللذات إلا بأسف عليها ، فليس على الحقيقة عفيفاً ؛ ^(١) والإنسان الذي يقتحم الأخطار مسروراً مغتبطاً ، هو الشجاع ؛ أما الذي يقتحمها مضطرباً حزينا فجبان . ^(٢) من أجل ذلك ينصح أرسطو ليس ، بما نصح به أستاذه أفلاطون : من أنه ينبغي أن يوجه الطفل منذ نعومة أظفاره إلى حسن اختياره مواضع السرور والألم . (ك ٢ ب ٣ ف ١)
ولا شك أنهما على حق ؛ لأن سر النجاح في الحياة الأخلاقية هو أن يعلم المرم كيف يحسن التلذذ والتألم .

نظرية الوسط :

يرى أرسطو ليس أن الفضيلة وسط بين طرفين ؛ فالأمر في الفضيلة كالحال بالنسبة لقوة البدن والصحة ؛ فالمغالة في التمرينات البدنية أو التقصير فيها ، كلاهما يودي بالقوة . وكذلك الشأن في المأكل والمشرب ؛ فإن الزيادة في الأطعمة على القدر اللازم ، أو النقص فيها عنه ، كلاهما يضعف الصحة ؛ وليس يحفظ الصحة وينميها إلا القدر اللازم الذي هو بين هذين الطرفين . وهذا هو الشأن في العفة والشجاعة وغيرهما من الفضائل ؛ فالإنسان الذي يخشى كل شيء ، ويفر من كل شيء ، ولا يحتمل شيئاً من المكاره ، جبان . كما أن الذي لا يخاف شيئاً البتة بل يقتحم جميع الأخطار بلا اكتراث ، متهور . والشجاع هو الذي يتوسط بين هذين الطرفين . كذلك الرجل الذي يستمتع بجميع اللذات لا يجحد نفسه واحدة منها ، فاجر ؛ والذي يتحرج ويتأثم فيتقيها جميعها ، خامد الحس معطل

(١) تدبر المثل العربي : « من العفة ألا تجد » ، وقول الشاعر العربي :

عفافك عجز ، إنما عفة الفقى إذا عف عن لذاته وهو قادر

وكذلك المثل الإنجليزي : « أن تتخذ من الضرورة فضيلة » ،

« Making a virtue out of necessity. »

(٢) وتدبر كذلك المثل العربي : « مكره أخاك لا بطل » .

الشعور . والعفيف هو الذى يتوسط بين هذين الطرفين ؛ فالشجاعة والعفة ، كغيرهما من الفضائل ، تضعيان بالإفراط والتفريط ، وتحققان بالوسط . (ك ٢ ب ٢ ف ٦) .

نسأة نظرية الوسط :

أجمع مؤرخو الفلسفة على عزو نظرية الوسط إلى أرسطو ، وهم فى ذلك على حق ؛ لأن أرسطو هو أول من تكلم فى الوسط كلاما علميا ، بل هو آخر من قال الكلمة الفاصلة فيه .

غير أن من الإنصاف أن نذكر أن فكرة الوسط سابقة لنظرية الوسط ؛ فليس فى استطاعتنا أن ندعى لأرسطو ابتكار فكرة الوسط ، مهما حق لنا أن ندعى له ابتكار نظرية الوسط . وحسبنا فى التدليل على ذلك أن فكرة التوسط فى الأمور ، وكونها خيرا ، بل كونها أفضل الأحوال ، قد وردت فى كتاب (الجمهورية) لأفلاطون أستاذ أرسطو ، فى المواضع الآتية (١) :

١ - الكتاب الثانى فقرة « ٣٥٩ »

يقول أفلاطون (على لسان غلوكون) فى تحديد طبيعة العدالة وأصلها : « إن الظلم بطبيعته خير ، ولكن احتماله شر ، لأن الشر الناشئ عن احتماله يربو كثيرا على الخير الناجم عن اقترافه ؛ ولذلك بعد أن ظلم الناس بعضهم بعضا زمنا طويلا ، واحتملوا ثقل وقعه على النفوس ، وخيروا كلا من العدالة والظلم - رأوا أن الأفضل أن يتفقوا على ألا يظلموا ولا يظلموا . هذا منبت الشرائع ، وأصل المعاهدات بين الإنسان وأخيه الإنسان . فزعموا ما أوجبه الشرائع عدلا . كذا يؤكدون أن هذا منشأ العدالة وطبيعتها ؛ فهى حلقة متوسطة بين الأفضل المطلق ، وهو أن يظلم الناس دون عقوبة . وبين الأسوأ المطلق ، وهو أن ينظلموا دون القدرة على الانتقام ؛ فالعدالة مرغوب فيها لكونها وسطا بين هذين الطرفين . »

(١) اعتمدنا فى ترجمة نصوص الجمهورية هنا وفيما يلى على الترجمات الإنجليزية

المقتولة عن النص اليونانى ولا سيما ترجمتى Spens و Jowett

٢ - الكتاب الثاني فقرة « ٣٦٤ »

نقل أفلاطون شعراً لهسيود يدل على أن الفضيلة قمة صعب مرتقاها ، أما الرذيلة فيمدان فسيح يسهل على كل إنسان المرور فيه ، وسيأتى بيان ذلك عند كلام أرسطو على أن الفضيلة ذروة وقمة . وقد ترجمنا فيما يلى شعر هسيود المذكور :

ما أسهل الشر تجنيه بلا تعب باب الرذيلة باب غير ذى غلق
طريقها مرن تقى سهل الصعود وفى أهدافها طلق من كل مستبق
أما الفضيلة فالأخطار تكنفها دون الوصول إليها نقطة الأفق

٣ - الكتاب الرابع فقرة « ٤٢١ »

يقول أفلاطون (على لسان سقراط) وهو بصدد الكلام عن حكام مدينته الفاضلة ، أو فردوسه الأرضى : « أليس خير الأمور الوسط للصناع ؟ فينبغى أن يكون لديهم من المال ما يكفى لشراء أدواتهم ، لا ما يكفى لإتلافهم وجعلهم فى غنى عن العمل . أو ليست هذه الحالة خيراً لحكامنا كذلك ؟ فإن كانوا فقراء مدقعين كانوا أذلاء منحطين ، وإن كانوا أثرياء كانوا كسالى مترفين ؛ وما كانوا فى كلتا الحالتين من القانعين . »

٤ - الكتاب الثامن فقرات « ٥٥٧ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ »

ويقول أفلاطون بصدد الكلام فى أنواع الحكومات : « إن كل شكل من أشكال الحكومة ينجح إلى الانحطاط والاندثار ، إذا بولغ فى تطبيق المبدأ الأساسى الذى يقوم عليه : فحكومة الأشراف ، الأرستقراطية « لا تلبث أن تتلاشى إن نحن أسرفنا فى تطبيقها فضيقنا دائرة الأشراف وبالغنا فى تحديد الطبقات التى يحق لها أن تتولى الحكم . وكذلك الشأن فى حكومة الشعب « الديمقراطية » ، فإنها بتطرفها فى شعبيتها أو « ديمقراطيتها » تقضى على نفسها ، فالحرية المتطرفة لا يمكن أن تقضى إلا إلى استعباد متطرف ، سواء فى ذلك الدول والأفراد . وإن أوسع حرية لهى التى تمهد السبيل لأذل استبداد وأثقل استعباد . »

٥ - الكتاب العاشر فقرة « ٦١٩ »

ويختتم أفلاطون جمهوريته في الكتاب العاشر بوصيته عن الحياة الفاضلة في الدنيا والآخرة فيقول : « فليعرف المرء كيف يختار الوسط ويترك طرفي الإفراط والتفريط ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، لا في هذه الحياة فحسب بل في كل ما يتعلق بالحياة الآخرة كذلك ، فذلك هو السبيل الوحيد للسعادة . »
من هذا يتضح لنا جلياً أن « فكرة » الوسط ليست من ابتكار أرسطو ولكنه مع ذلك صاحب « نظرية » الوسط غير مدافع .

معنى الوسط :

يقول أرسطو ليس : إن هذا الوسط ، الذي هو الفضيلة ، ليس واحداً بالقياس إلى جميع الناس ، وليس هذا التوسط توسطاً رياضياً ، بل هو توسط إضافي . لأنه إذا كانت عشرة أرتال من الطعام بالنسبة إلى شخص بعينه أكثر مما ينبغي ورطلان من الطعام بالنسبة له كذلك ، أقل مما ينبغي ، وكانت ستة أرتال هي الوسط المطلوب له - فليس معنى هذا أن ستة أرتال من الطعام هي مقدار صالح لكل شخص من الأشخاص ، فقد تصل بإنسان إلى حد التخمه ، على حين قد تنزل بآخر إلى حد الخمصة .

كذلك الوسط الأخلاقي ليس مطلقاً ، وليس واحداً بالنسبة لجميع الأفراد . بل على كل عاقل أن يبحث عن الوسط الملائم له ، فإن ذلك الوسط القويم السعيد هو الذي يصل به إلى درجة الفضيلة .

من أجل ذلك إذا أريد مدح شيء متقن قيل إنه لا يمكن أن يزداد عليه شيء ، ولا ينقص منه شيء . كما يقال : إذا كان الإفراط والتفريط يضحيان الكمال ، فإن الوسط وحده هو الذي يحققه .

وقس على ذلك الخوف ، والإقدام ، والرغبة ، والبكره ، والغضب ، والرحمة ، ففي كل هذه الوجدانات قدر أكثر من الوسط وقدر أقل منه . وكلا الطرفين

قيح . أما أن يعرف المرء الشعور بهذه الوجدانات على ما ينبغي ، تبعاً للظروف وتبعاً للأشياء ، وتبعاً للأشخاص ، وتبعاً للعلة ، وأن يعرف القدر المطلوب الخ .. فهذا هو الوسط القويم ، هو الكمال الذي لا يتحقق إلا في الفضيلة . (ك ٢ ب ٦ ف ٥ - ١١)

الفضيلة قمتة وطرف :

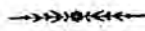
ويرى أرسطو أن الفضيلة مرقى صعب ، ففي استطاعة المرء أن يسيء السلوك بألف طريقة ، على حين أنه لا يستطيع أن يحسن السلوك إلا بطريقة واحدة (١) .
أليس من أسهل الأشياء أن نخطئ لمهدف ومن أصعب الأمور أن نصفيه ؟
(ك ٢ ب ٦ ف ١٤ - ١٥) فما أشبه الفضيلة التي هي الوسط بيورة الضوء ،
والرذيلة التي هي ماعدا الوسط بحاشية الضوء التي لا حد لها !

وبذلك يقول أرسطو : إن الفضيلة - التي هي وسط بين طرفين - قمة ،
وطرف ، ونهاية ، باعتبار آخر ؛ هو اعتبار أنها أعلى درجات الكمال والخير
(ك ٢ ب ٦ ف ١٦) - ويمكننا أن نرمز إلى فكرته عن الفضيلة بالرسمين الآتيين :-

تصوير الفضيلة وسطا بين طرفين

الشجاعة

التهور * * * الجبن



تصوير الفضيلة قمة

الشجاعة



التهور * الجبن

(١) راجع شعر هسيود الذي اقتبسه أفلاطون وترجمناه في تاريخ نشأة هذه النظرية -

وبذلك تكون الفضيلة في ذروة لا يصل اليها إلا القليل المجاهدون لأنها تصبح كمرکز الدائرة ليس العثور عليه ميسوراً لجميع الناس . فبذل المال سرفاً أمر ميسور لكل إنسان ، وحبس المال شحاً أمر كذلك لا يكلفنا جهداً ولا مشقة . ولكن التمييز بين من يجب أن تمتنع ، ومن يجب أن تمتنع ، وبين المقدار الذي ينبغي أن تبذل ، والمقدار الذي ينبغي أن تحفظ ، وبين الوقت الذي تبذل فيه والوقت الذي تحبس فيه - كل ذلك عمل شاق ليس من السهل معرفته . من أجل ذلك كان الخير شيئاً نادراً وعمدوحاً وجيلاً . (ك ٢ ب ٩ ف ١ - ٢)

الشُرور الذاتية :

وإذا تأملنا في هذه النظرية ألفينا أن بعض الشرور لا تخضع لها ، فليس لها طرفان بينهما وسط هو الفضيلة . ولقد أدرك ذلك أرسطو فقال : إن من الشرور شروراً ذاتية لا صلة لنظرية الوسط بها . فهي في أية درجة من درجاتها . وعلى أية صورة من صورها شرور مردولة ، فمن ذلك الشماتة ، والحسد ، والزنا ، والسرقه ، والقتل . فالقتل جريمة مردولة في أي وقت ، وأي مكان ، ولأي شخص ، وبأية آلة ، ولأي سبب (١) فحكم هذه الشرور حكم الرذائل التي هي أطراف ، بمعنى أنه لا يصح أن يكون لها إفراط ولا تفريط ، وإلا لزم أن يكون للإفراط إفراط وللتفريط تفريط . (ك ٢ ب ٦ ف ١٧ - ١٩)

الفضائل التي طبق عليها أرسطو نظريته :

وقد طبق أرسطو ليس نظرية الوسط على الفضائل التي نجتمعها في الجدول الآتي :

(١) إلا القصاص طبعاً ، على أنه لا يسمى عادة قتلاً . ولقد يكون للقتل ظروف مخففة ، كما يكون للسرقه والزنا - زنا المحصن وغير المحصن - ولكنه يظل قتلاً ، وسرقه ، وزناً ، يحمل عبء الرذيلة ويتلون بلونها البغيض .

الافتراط (رذيلة)	الوسط (فضيلة)	التفريط (رذيلة)
التهور الفجور الإسراف أو السفه الوقاحة أو الغطرسة الشراسة التفجّع أو المبالغة السخرية التملق التبجح أو السلاطة (١) حسد الغير على سعادته (أو الظلم)	الشجاعة العفة أو الاعتدال السخاء أو الكرم الكرامة أو عزة النفس الحلم الصدق البشاشة الصدقة الحياء العدل (٢)	الجبن خمود الذات أو عدم الحس البخل الذلة أو ضعة النفس الفتور أو البلادة التحفظ أو التعمية الفظاظة التشاكس أو التشكس الخفر (٣) الشماتة في مصيبة الغير (أو الانظلام)

المعلق بين هذه الفضائل (الوسط) والذرائع (الطرف) :

ويرى أرسطو ليس أن هذه الصفات الثلاثة — الفضيلة وطرفها — متضادة بعضها مع بعض : فالطرفان مضادان للوسط ، ويضاد أحدهما الآخر ؛ والوسط مضاد لكل من الطرفين . وكما أن المتوسط الحسابي إذا قرن بالحد الأصغر كان أكبر منه وإذا قرن بالحد الأكبر كان أصغر منه — فكذلك الفضائل أو

(١) يرى ابن مسكويه تسمية هذا الطرف « الوقاحة » ،

(٢) ويرى كذلك تسمية هذا الطرف « الخرق » (بفتحين) وهو في اللغة : الدهش من خوف أو حياء ، أو أن يهت فاتحا عينه ينظر ، وأن يفرق الغزال فيعجز عن النهوض ، والطائر فلا يقدر على الطيران .

(٣) الرذيلتان الناشتان عن تجاوز فضيلة العدل هما : حسد الغير على سعادته ، والشماتة بمصيبة الغير . وهذا رأى أرسطو . أما الظلم والانظلام فرأى أفلاطون وهو أوجه من رأى أرسطو .

الأوساط الأخلاقية في نسبتها إلى حالات التفريط تظهر إفراطات ، وفي نسبتها إلى حالات الإفراطات تظهر تفريطا ، وعلى هذا فالرجل الشجاع يظهر متهوراً إذا قرن بالجبان ، ويبدو إلى جانب المتهور جبانا ، وكذلك المعتدل أو العفيف يبدو فاجراً إذا قرن بالخامد الذي لا يثيره مثير ويبدو خامداً إذا قرن بالفاجر . والسخي يبدو مسرفا بالإضافة إلى البخل ، وبخيلا بالإضافة إلى المسرف . وكذلك الطرفان يقذف كل منهما بالوسط إلى الآخر ، فالجبان يسمى الشجاع متهوراً ، والمتهور يسميه جباناً ، وكذلك الشأن في جميع الأوساط والأطراف .

على أن هناك أطرافاً لها بعض المشابهة بالوسط ، فالتهور به شبه بالشجاعة ، وللسرف شبه بالسخاء . أما التضاد الأعظم فهو بين الأطراف بعضها لبعض .

وفي نسبة الطرفين إلى الوسط تارة يكون التفريط هو الأكثر تضاداً ، وتارة يكون الإفراط هو الأكثر تضاداً ، فأكثر الرذيلتين تضاداً مع الشجاعة ليس التهور الذي هو الإفراط ، بل الجبن الذي هو التفريط ، والأمر على عكس ذلك بالقياس إلى العفة ، فإن أبعد الطرفين منها ليس خمود اللذات الذي هو حد التفريط ، بل هو الفجور الذي هو حد الإفراط . (ك ٢ ب ٨ ف ١ - ٦)

ويشكو أرسطو من أن اللغة الإغريقية لم تشمل على كلمات تدل على بعض الأطراف كخمود اللذات ، وكالفتور ؛ وسبب ذلك أن هذه الصفات بعيدة كل البعد عن ميل الإنسان ؛ فلم تحفز الحاجة اللغة لوضع ألفاظ لها . (ك ٢ ب ٧ ف ١١) ونحن نشكو هذه الشكوى عنها والسبب عينه في لغتنا العربية .

نصيحة أرسطو الميس :

وينصح أرسطو بأن يحمل المرء نفسه على الجهة المضادة لميوله ؛ فإننا بابتعادنا عن الخطيئة التي نخشاها نقف في الوسط . فالخطر الذي ينبغي اتقاؤه دائماً هو الطرف الذي يرضى أهوائنا ، هو اللذة ؛ (١) ويجب أن يكون شعورنا نحو اللذة هو

(١) وفي ذلك يقول أبو بكر رضى الله عنه : « خير الخصلتين لك أبغضهما إليك ، ويقول ابن المقفع « وعلى العاقل أن يعرف أن الرأى والهوى متعاديان ، وأن من شأن الناس تسويق الرأى وإسعاف الهوى فيخالف ذلك ويلتمس أن لا يزال هواه

ما كان يشعر به شيوخ طروادة في حضرة هُلبن، فلنعرف دائماً أن نكرر لأنفسنا ما قالوه. (١) لأننا إذا وصلنا إلى دفع اللذة كذا في أمن من أن نرتكب من الزلل إلا أقله (ك ٢ ب ٩ ف ٥ - ٦)

نقد نظرية أرسطو البسيطة :

لعل في غنى عن بسط رأي في هذه النظرية الفلسفية أكثر مما فعلت، فقد بينت تاريخ نشأتها ومقدار ما لأرسطو من نصيب في فكرة الوسط، وفي نظرية الوسط. ولعله قد اتضح من سياق الكلام مبلغ تأييدنا لأراء أرسطو البسيطة، ولكن الذي لا بد من بيانه هنا هو النقط التي نخالف فيها فيلسوفنا العظيم.

وأهم هذه النقط تطبيقه نظرية الوسط على الصدق. ففي ذلك التطبيق إرهاب لهذه الفضيلة، ومد لسلطان النظرية على أرض أجنبية لا تخضع لها: فنحن نفهم أن يكون الكرم وسطاً بين رذيلتين متناقضتين، هما الإسراف والتقتير؛ ونفهم أن تكون الشجاعة وسطاً بين رذيلتين متباينتين تمام التباين، هما التهور والجنون؛ وندرك أن العفة وسط بين رذيلتين متنافرتين إحداهما مع الأخرى، هما الفجور وخمود الذات؛ ونقبل أن يكون الحلم وسطاً بين رذيلتين على طرفي تقيض، هما الشراسة والبلاهة؛ إلى آخر الفضائل التي طبق عليها أرسطو نظريته في الوسط، عدا الصدق، فإننا لا نستطيع أن نفهم أن يكون وسطاً بين المبالغة في القول، والتحفظ والتعمية فيه. لأن للصدق دائماً صورة واحدة، وكل ما عداها، بزيادة

مسوفاً ورأيه مسعفاً، وعلى العاقل إذا اشتبه عليه أمران فلم يدر أيهما الصواب أن ينظر أهواهما عنده فيحذره. ، ويقول عبدالله بن معاوية موصياً ولده: «واعلم يا بني أن رأبك إذا احتجت إليه وجدته نائماً ووجدت هواك يقظان، فأياك أن تستبد برأيك فإنه حينئذ هواك.»

(١) يشير أرسطو إلى ما قاله شيوخ طروادة، وقد جلسوا للفصل في مسألة هُلبن، فإنها حينما أشرقت بوجهها الواضح على المدينة لم تسمع القضاة إلا الاعتراف بفتنة جمالها، ولكنهم مع ذلك قالوا: مهما يكن شأن جمالها فلا بد أن تعود إلى وطنها، وإلا جلبت علينا وعلى ذريتنا النقمة والدمار.

أو بنقص ، كذب . وليس بين الطرفين اللذين يزعمهما أرسطو للصدق تباين وتناقض كذلك الذي بين كل طرفين من أطراف الفضائل الأخرى . فالزيادة في الخبر والنقص فيه متشابهان تمام التشابه من حيث حيدتهما عن الصورة الواحدة التي يتحقق فيها الصدق ، ولذلك يسمى كل منهما كذبا ، ولا كذلك أى طرفين آخرين ، فإننا لا نستطيع أن نجد اسما مشتركا يصح أن نطلقه على كل من التهور والجنون باعتبارهما حيدة عن الشجاعة ، أو على الفجور وخمود الذات باعتبارهما حيدة عن العفة ، أو على الإسراف والتقتير باعتبارهما حيدة عن الكرم ؛ واعتبر هذا في سائر الأطراف مع فضائلها .

وثمة خطأ آخر وقع فيه أرسطو ليس ، وهو زعمه أن الصدق (وهو الوسط) أقرب إلى أحد الطرفين اللذين يكتفانه منه إلى الآخر : فهو يزعم أن الصدق أقرب إلى التحفظ والنقص ، منه إلى المبالغة والزيادة . ولا شك أن هذا الخطأ متفرع على خطئه السابق ، وهو محاولته إخضاع فضيلة الصدق لنظرية الوسط ، والحق أن ليس الصدق أقرب إلى إحدى الرذيلتين منه إلى الأخرى ، فكلاهما كذب لا شك فيه ، وللصدق كما قلنا صورة واحدة ، وأقل حيدة عنها بزيادة أو بنقص تلحقها بالكذب .

ولن يشتري أرسطو رضانا عن رأيه بعبارته الخلابة التي يذم فيها المبالغة ويسميها حمقا ، وزهوا ، وصلفا ، على حين يعطف على التعمية والنقص ويسميها جنوحا إلى التواضع . وأنفة من دواعي الشهرة ، ثم يلوح لنا بسقراط وتواضعه . لن نوافق على رأيه ، لأن إفساد الخبر بالنقص كإفساده بالزيادة ، بل ربما كان النقص في الخبر أشد أثرا في البعد عن الصدق . ألا يكفي أن تحذف أحيانا كلمة واحدة من الخبر لتحوّله إلى عكس ما يريد صاحبه ؟

وبعد فإن المقياس في الصدق والكذب — كالمقياس في سائر الفضائل والرذائل — هو الباعث ، فمتى تحقق الباعث على تغيير الحقيقة ، فسواء في نظر الأخلاق أن يحدث هذا التغيير بزيادة أو بنقص .

ولو شاء أرسطو أن يكون أقرب إلى الصواب في تطبيق نظرية الوسط

على الصدق ، لقال إن الفضائل تختلف في قربها من الأطراف ، فبعضها أقرب إلى طرف الافراط ، وبعضها أدنى إلى طرف التفريط ؛ غير أن الصدق وحده (ولو شاء لآضاف إليه العدل) يكون وسطه بين طرفيه وسطاً رياضياً ، لا أخلاقياً ، فنسبة بعده عن أحد الطرفين كنسبة بعده عن الآخر (١) .

لقد استثنى أرسطو من نظريته في قسم الرذائل ما سماه الشرور الذاتية ، وخيراً فعل ؛ ولو أمعن في تمحيص النظرية لآضاف إليها استثناء آخر في قسم الفضائل .

نظرية الوسط عند المسلمين :

وأريد هنا أن أتكلم في نقطتين : أولاً هماسة التعاليم الإسلامية بهذه النظرية ، قاصداً بالتعاليم الإسلامية ما جاء به القرآن الكريم والحديث الشريف ، والسلف الصالح ، وثانيهما مبلغ تأثير الفلاسفة المسلمين بنظرية أرسططاليس وكتاباته .

أما التعاليم الإسلامية من قرآن وحديث فليس لدينا من شك في أنها لم تقتبس من أرسططاليس على الرغم من أنها جاءت صريحة في مذهب الوسط . ونحن لا نستند في رأينا هذا إلى الرأي الديني وحده - ذلك الرأي الذي ينزه القرآن والحديث عن النقل والاقباس ، مما يزعمه كثير من المبشرين والمضللين ، ولكننا نعتمد كذلك على الأسانيد التاريخية التي لا تدع مجالاً للشك ، إذ لم يقل قائل (حتى أولئك المفترون الذين يزعمون أن محمداً - عليه الصلاة والسلام - كان قد تلقى تعاليم التوراة والإنجيل) بأن فلسفة أرسطو أو فلسفة اليونان كانت قد عرفت سبيلها إلى جزيرة العرب إبان نزول القرآن والنطق بالأحاديث .

بقي علينا أن نعلل ذلك الاتفاق بين آراء القرآن والحديث من جهة ، وآراء أرسطو في نظرية الوسط من جهة أخرى ؛ وتعليل ذلك واضح جلي ، هو أن كل فكر مستقيم أو دين سام يجب أن يكون تشريعه الأخلاقي والاجتماعي صادراً عن مثل هذا الرأي ، لأنه الرأي الصائب الذي لا يستقيم بغيره دين ولا عمران ، فلم يكن غريباً إذن أن نرى القرآن والحديث يأمران بالوسط ويحضان عليه ؛ بل كان يكون من الغريب المدهش ألا يفعل ذلك .

يقول الله تعالى : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ جُنُوبِكَ ، وَلَا تَبْسُطْهَا
 كُلَّ الْبَسْطِ ، فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا . » (١) - « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ
 يُسْرِفُوا ، وَلَمْ يَقْتُرُوا ، وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا . » (٢) - « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا
 زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ، وَلَا تُسْرِفُوا ؛ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
 الْمُسْرِفِينَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ
 الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . » (٣) -
 « وَآتَٰ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ، وَالْمِسْكِينَ ، وَابْنَ السَّبِيلِ ، وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا
 إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا . » (٤)
 « وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ، وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ
 مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، كُلُوا مِنْ
 ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
 الْمُسْرِفِينَ . » (٥) « وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ .
 وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ . وَتَحْمِلُ أَوْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ
 لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ . وَالْخَيْلَ
 وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . » (٦) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
 آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ . وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
 الْمُعْتَدِينَ . وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ
 بِهِ مُؤْمِنُونَ . » (٧)

وإن نظرة واحدة في هذه الآيات - وهي قليل من كثير - لشكفي للدلالة على
 أن القرآن لم يدع إلى الحرمان ولا إلى شطف العيش ، بل دعا إلى التمتع المعقول

(١) سورة الإسراء ٢٩ (٢) سورة الفرقان ٦٧ (٣) سورة الاعراف ٣١-٣٢

(٤) سورة الاسراء ٢٦-٢٧ (٥) سورة الأنعام ١٤١ (٦) سورة النحل ٥-٨

(٧) سورة المائدة ٨٧-٨٨

والتوسط في الأمور وحسبنا أننا نجد من عبارات القرآن مثل هذه الألفاظ الصريحة في معنى التعميم : « الطيبات » و « الزينة » و « الجمال » لنفهم أنه قصد من ضراحتها في دلالتها الأخذ على يد من تسول له نفسه أن يسيء تأويلها ليخرج بها عن معناها .

ويقول الرسول الكريم : « إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه . فسددوا ، وقاربوا ، وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة . » — « إن المنتب لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى » — « ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه » — « كلوا واشربوا ، والبسوا ، وتصدقوا في خير إسراف ولا مخيلة . » وامتدح قوم رجلا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاجتهاد في العبادة والغنى عن العمل وقالوا : سبحانه في سفر فما رأينا بعدك يا رسول الله أعبد منه ، كان لا ينتقل من صلاة ، ولا يفطر من صيام ؛ فقال لهم : فمن كان يموهه ويقوم به ؟ قالوا : كلنا يا رسول الله . قال : كلكم أعبد منه .

وعن عبد الله بن عمر قال قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : « ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار ؟ قلت : إني أفعل ذلك . قال : فانك إذا فعلت ذلك هجمت عينك ونفقت نفسك ، وإن لنفسك حقاً ، ولأهلك حقاً ، فصم وأفطر ، وقم ونم »

ودخل عمر بن عبد العزيز على عبد الملك بن مروان ، وكان ختته على ابنته فسأله عن معيشته كيف هي ؟ فقال عمر : حسنة بين الشيئين ، ومنزلة بين المنزلتين . فقال عبد الملك : خير الأمور أوسطها .

وبعد ، فما أنا بمستطيع أن أستقصى كل ما ورد بهذا الصدد ، ولكنني أرى في هذا القدر ما يكفي . ولأنتقل إلى الكلام في النقطة الثانية .

نظرية الوسط

بين يدَي الغزالي، وابن مسكويه، وابن المقفع

الغزالي :

عرض الغزالي لنظرية الوسط في مواضع عدة في الجزء الثالث من « إحياء علوم الدين »، وسأتركه هنا يتحدث عن نفسه، ثم أتحدث عنه بعد ذلك .
يقول في ص ٤٩ من ذلك الجزء (١) : « والذي يدل على أن المطلوب هو الوسط في الأخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعا وهو وسط بين طر في التبذير والتقتير ، وقد أثنى الله عليه فقال : (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما) وقال تعالى . (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط) وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجود . قال الله تعالى : (كلوا واشربوا ، ولا تسرفوا ؛ إنه لا يحب المسرفين) وقال في الغضب (أشدّاءُ على الكُفّار رُحَماءُ بينهم) وقال صلى الله عليه وسلم : (خير الأمور أوسطها) .
وقال في ص ٨٢ من الجزء الثالث أيضا : « اعلم أن المطلوب الأقصى في جميع الأمور والأخلاق الوسط ، إذ خير الأمور أوسطها ، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم » .

وقال في الصفحة التالية : « وإذا لم يكن للإنسان خلاص من الشبع والجوع فأبعد الأحوال عن الطرفين الوسط ، وهو الاعتدال . ومثال طلب الآدمي البعد عن هذه الأطراف المتقابلة بالرجوع إلى الوسط ، مثال نملة أقيت في وسط حلقة محمية على النار ، مطروحة على الأرض . فإن النملة تهرب من حرارة الحلقة ، وهي محيطة بها لا تقدر على الخروج منها . فلا تزال تهرب حتى تستقر على المركز الذي هو الوسط . فلو ماتت ماتت على الوسط لأن الوسط هو أبعد المواضع عن الحرارة التي في الحلقة المحيطة . فكذلك الشهوات محيطة بالإنسان إحاطة تلك الحلقة بالنملة » .

وأتم ترون هنا كلاماً صريحاً في الوسط والطرفين ، وكلاماً صريحاً في الوسط الهندسي ، وكلاماً ضمينا لرأى أرسطاليس في أن الفضيلة قمة صعبة المرتقى ، وكلاماً صريحاً في أن المرء قد يخطئ بألف طريقة ، ولكنه لا يصيب الفضيلة إلا بطريقة واحدة .

ثم استمع إلى الغزالي مرة أخرى ، وهو يطبق النظرية على فضيلة الحلم ص ١٤٦ من الجزء الثالث : « ففقد الغضب مذموم ، وإنما الحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدين ، فينبعث حيث تجب الحمية ، وينطفيء حيث يحسن الحلم . وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده ، وهو الوسط الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال (خير الأمور أوسطها) ، . واستمع إليه كذلك حين يتكلم في فضيلة السخاء ص ٢٢٥ : « فلا إمساك حيث يجب البذل بخل ، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير ، وبينهما وسط هو الحمود . . . ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط . » وفي هذا القدر بيان واضح لمقدار ارتفاع الغزالي بالفلسفة الأرسطاليسية في هذه النظرية ، وإن لم يكتب فيها كتابة مستقلة كما فعل ابن مسكويه . وليس يعزب عن أذهاننا أن الغزالي أحسن الربط بين رأى أرسطو والآثار الدينية الناطقة بمذهب الوسط كما رأينا .

ابن مسكويه :

ولو كانتمة حق للنقل والترجمة ، وكان لأرسطاليس ورثة ، لألفيناهم بمسكون بابن مسكويه يقاضونه على ما أخذ من أرسطو . وفيما يأتي أوضح دليل على فضل أرسطو على هذا الفيلسوف الوراق . يقول في ص ٣٣ : « من كتاب تهذيب الأخلاق » (١) بعنوان « أطراف الفضائل » : « ولما كانت هذه الفضائل أوساطا بين أطراف ؛ وتلك الأطراف هي الرذائل ؛ وجب أن تفهم منها . وإن اتسع لنا الزمان ذكرناها لأن وجود أسمائها في هذا الوقت متعذر . » شهدوا أيها

القوم أن هذا كلام أرسطو بعينه ، حتى الشكاية من عدم وجود أسماء للأطراف ، تلك الشكاية التي نادى بها أرسطو كما سبق في عبارته التي نقلناها .

ثم استمعوا إليه حين يشبه الوسط بمرکز الدائرة : « وينبغي أن نفهم من قولنا أن كل فضيلة فهي وسط بين رذائل ما أنا واصفه :

« إن الأرض لما كانت في غاية البعد من السماء قيل إنها وسط ، وبالجملة المركز من الدائرة هو على غاية البعد من المحيط . وإذا كان الشيء على غاية البعد من شيء آخر فهو من هذه الجهة على القطر . فعلى هذا الوجه ينبغي أن يفهم معنى الوسط من الفضيلة إذا كانت بين رذائل بعدها منها أقصى البعد . ولهذا إذا انحرفت الفضيلة عن موضعها الخاص بها أدنى انحراف قربت من رذيلة أخرى . ولم تسلم من العيب بحسب قربها من تلك الرذيلة التي تميل إليها . ولهذا صعب جداً وجود هذا الوسط . ثم التمسك به بعد وجوده أصعب . ولذلك قالت الحكماء : إصابة نقطة الهدف أعسر من العدول عنها ، ولزوم الصواب بعد ذلك حتى لا تخطئها أعسر وأصعب . وذلك أن الأطراف التي تسمى رذائل - من الأفعال ، والأحوال ، والزمان ، وسائر الجهات - كثيرة جداً . ولذلك كانت دواعي الشر أكثر من دواعي الخير . »

هذه فقرة تتحدث بنفسها عن مصدرها الأول ، ومبعث وحيها : فقيها نظرية الوسط ، والكلام عن الأطراف ، والتشبيه بالوسط الهندسي ، وكون الفضيلة قيمة باعتبارها كالا وخيرا ؛ وصعوبة سبل الخير وكثرة سبل الشر .

وكأننا بآبن مسكويه ينم عن نفسه حين يقول : ولذلك قالت الحكماء : إصابة نقطة الهدف أعسر من العدول عنها ، أهذا كل ما قالت الحكماء في هذا المذهب يا ابن مسكويه ؟ . وهو لم يجد علينا في كل هذا البحث بإشارة أخرى إلى رأى فيلسوف . فله الله !

ثم استمعوا إليه وهو يتكلم في الوسط الأخلاقي ، بعد أن ذكر الوسط الرياضي ص ٣٤ : « ويجب أن تطلب أوساط تلك الأطراف بحسب كل فرد فرد . » ثم يقول ص ٣٥ : « وإذا قد ذكرنا معنى الوسط في الأخلاق وما ينبغي أن نفهم

منه فلنذكر هذه الأوساط لتفهم منها الأطراف التي هي رذائل وشرور . . أجل بالضبط كما فعل أرسطاليس !

ثم شرع ابن مسكويه يكتب ، أو بعبارة أدق ينقل ، في تطبيق هذا المذهب على الفضائل . فذكر أن الحكمة وسط بين السفه والبله : . وأعنى بالسفه هاهنا استعمال القوة المفكرة فيما لا ينبغي وكما لا ينبغي وأعنى بالبله تعطيل هذه القوة وإطراحها الخ

• وأما الشجاعة فهي وسط بين رذيلتين : إحداها الجبن والآخرى التهور ، أما الجبن فهو الخوف مما لا ينبغي أن يخاف منه ، وأما التهور فهو الإقدام على ما لا ينبغي أن يقدم عليه . .

• وأما العدالة فهي وسط بين الظلم والانظلام .

وبعد فقد قال صاحب بن عبّاد في سعيد بن حميد : . لو قيل لكلماته انقري إلى أصحابك ، لما بقى له شيء . . وأنا أقول : لو قيل لكلام ابن مسكويه : اذهب إلى صاحبك ، لما بقى له شيء .

ابن المقفع :

أما ابن المقفع فله معنا شأن آخر ، فلا هو كتب عن النظرية كما كتب ابن مسكويه ، ولا هو طبقها وربطها بالآثار الدينية كما فعل الغزالي ، وإنما نرى اقتناعه بهذه النظرية ناطقا في حكمه التي ضمنها « الأدب الصغير » و « الأدب الكبير » . وليس لدى أدلة قاطعة على أنه انتفع بكتابة أرسطو ، ولكنني مع ذلك أسمع في كثير مما كتب صوت الفلسفة اليونانية والرومانية يتردد عاليا . وحسبي هنا أن أنقل بعض عباراته الدالة على شدة اعتناقه مذهب الوسط .

في الأدب الصغير :

يقول في ص ٢٧ : « اقتصاد السعي إبقاء للجسام ، وفي بعد الهمة يكون النصب . . ومن سأل فوق قدرته استحق الحرمان . وسوء حمل الغنى أن يكون عند الفرح مرحا ، وسوء حمل الفاقة أن يكون عند الطلب شرها . . »

ويقول في ص (٦٥) : « وكان يقال : قارب عدوك بعض المقاربة ، تل

حاجتك ، ولا تقاربه كل المقاربة فيجترى عليك عدوك ؛ وتذل نفسك ، ويرغب
عنك ناصرك . ومثل ذلك مثل العود المنصوب في الشمس ، إن أمله قليلا زاد
ظله ، وإن جاوزته الحد في إمالة نقص الظل . « وأشهد إن هذا لتصوير بديع .
ويقول في ص ٢٠ : « وعلى العاقل — مالم يكن مغلوبا على نفسه — ألا يشغله
شغل عن أربع ساعات : ساعة يرفع فيها حاجته إلى ربه ، وساعة يحاسب فيها
نفسه ، وساعة يفضى فيها إلى إخوانه وثقاته الذين يصدقونه عن عيوبه وينصحونه
في أمره ، وساعة يخلّي فيها بين نفسه وبين لذتها بما يحل ويحجم ، فإن هذه الساعة عون
على الساعات الأخر ، وإن استجمام القلوب وتوديعها زيادة قوة لها وفضل بُلغة . »
واستمع إليه حين يقول ص ٢٠ - ٢١ : « وعلى العاقل ألا يكون راغبا إلا
في إحدى ثلاث : تزود لمعاد ، أو مreme لمعاش ، أو لذة في غير محرم . »
ويقول في موضع آخر ص (٥٨) : « لا عقل لمن أغفله عن آخرته
ما يجد من لذة دنياه ، وليس من العقل أن يحرمه حظّه من الدنيا بصره بزوالها .

في الأدب الكبير :

يقول في ص ٤ - ٥ : « فأصل الأمر في الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب ،
وتجنب الكبائر ، وتؤدي الفريضة ، فالزم ذلك لزوم من لا غناء له عنه طريقة
عين ، ومن يعلم أنه إن حرمه هلك . ثم إن قدرت على أن تجاوز ذلك إلى التفقه
في الدين والعبادة ، فهو أفضل وأكمل . » ونحن هنا نرى ابن المقفع يصور لنا
الفضيلة قمة صعبة المرتقى ، أو مثلا أعلى بعيد الحصول ، ثم يدعونا إلى محاولة
الوصول إليه ، ولكن بعد أن وضع لنا حدا أدنى ، إن تجاوزناه كنا في
حدود الرذيلة .

ثم يقول : « وأصل الأمر في صلاح الجسد أن لا تحمل عليه من المأكل
والمشرب والباه إلا خفا . ثم إن قدرت على أن تعلم جميع منافع الجسد ومضاره
والانتفاع بذلك كله فهو أفضل . »

« وأصل الأمر في البأس والشجاعة ألا تحدث نفسك في الإذبار وأصحابك
مقبولون على عدوهم . ثم إن قدرت على أن تكون أول حامل وآخر منصرف

— من غير تضيق للحذر — فهو أفضل . « أجل من غير تضيق للحذر ، فهذا هو الوسط السعيد .

ويقول ص ١٥ — ١٧ : « لا تترك مباشرة جسيم أمرك فيعود شأنك صغيراً ، ولا تلزم نفسك مباشرة الصغير ، فيصير الكبير ضائعاً . »
« واعلم أن مالك لا يغني الناس كلهم فاخصص به أهل الحق ، وأن كرامتك لا تطبق العامة كلها ، فتوخ بها أهل الفضل ، وأن قلبك لا يتسع لكل شيء فقرغه للهم ، وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجاتك — وإن دأبت فيهما ، وأن ليس لك إلى إدامة الدأب فيهما سبيل مع حاجة جسدك إلى نصيبه منهما — فأحسن قسمتهما بين عملك ودعتك . »

« واعلم أن ما شغلت من رأيك بغير المهم أزرى بك في المهم ، وما صرفت من مالك في الباطل فقدته حين تريده للحق ، وما عدلت به من كرامتك إلى أهل النقص أضربك في العجز عن أهل الفضل ، وما شغلت من ليلك ونهارك في غير الحاجة أزرى بك عند الحاجة منك إليه . »

وإليك ما يقول ابن المقفع صريحاً في البشاشة ص ٢٠ : « لا تكون نزر الكلام والسلام ، ولا تبغض بهما إفراط المشاشة والبشاشة ، فإن إحداها من الكبير والأخرى من السخف . » ألم يذكر لنا هنا الوسط الحميد ، وطرفه البغيضين ؟

ثم استمعوا إلى رأيه في البشاشة في موضع آخر ص ٧٦ : « اعلم أن انقباضك عن الناس يكسبك العداوة ، وأن تقربك إليهم يكسبك صديق السوء . »

وها هو ذا يصور لك الأطراف في صورها الذميمة ، إذ يقول ص ١٠٦ — ١٠٧ : « واعلم أنك إن جاوزت الغاية في العبادة ، صرت إلى التقصير ؛ وإن جاوزتها في حمل العلم ، لحقت بالجهال ، وإن جاوزتها في تكلف رضا الناس والخفة معهم في حاجاتهم كنت المحتر المضيع ، »

وآخرأ وليس أخيراً أنصت إليه حين يقول ص ١٠٧

« اعلم أن بعض العطية لئوم ، وبعض السلاطة غم ، وبعض اليان عى ، وبعض

الحلم جهل ، فان استطعت أن لا يكون عطاؤك جوراً ، ولا يبانك هذراً ، ولا عليك وبالا ، فافعل . .

خاتمة :

ويمكننا أن نلخص رأينا بإيجاز فيما يأتي :

١ - أن فكرة الوسط وليدة العقل المتزن ، والرأى الحصيف منذ كان على الأرض فلسفة .

٢ - أن أرسطو هو صاحب الفضل ، لاينازعه فيه منازع ، في ابتكار نظرية الوسط وتفريعها وتدوينها ، والسمو بها إلى تلك المرتبة العلمية الدقيقة .

٣ - أن ما جاء في القرآن والحديث ، بل في كلام كل من ثبت عدم اتصاله بفلسفة أرسطو ، ليس إلا صدق لوحى الفكر السامى ، والرأى السديد في وجوب الأخذ بفكرة الاعتدال والتوسط .

٤ - من الثابت أن فاسفة أرسطو قد نقلت للمسلمين مع غيرها من فلسفة اليونان في العصر العباسى ، وقد تتلمذ فلاسفة المسلمين على هذه الفلسفة - وفي كثير من الأحيان لم يزدوا شيئاً عليها . وكلامهم في نظرية الوسط ، من غير شك ، نقل وإعادة لما كتب أرسطو .

٥ - قد رأينا أن الغزالي أحسن الانتفاع برأى أرسطو ، ونسج حوله خيوطاً من تعاليم الإسلام أظهرت له ديباجة جميلة .

٦ - أما ابن مسكويه فقد كان ناقلاً غير متصرف .

٧ - وأما ابن المقفع فمن المحتمل أن يكون قد تأثر بالفلسفة اليونانية عن طريق لفته الفارسية ، كما أن من المحتمل أن يكون قد ردد ما ثقفه في الإسلام . كما أن من المحتمل أن يكون مُصدراً في فكرة الوسط عن رأيه وعقله ، وهو ذو الفكر العميق ، والعقل العظيم ، أو لعله أن يكون لذلك كله أثر في فلسفته ،

محمد مهدي علام

فلسفة ديكرت^(١)

للدكتور على العناني

أستاذ الفلسفة بدار العلوم

شكر واعتباط

أتشرف أيها السادة الأفاضل بأن أقدم عظيم شكرى لحضرة الأستاذ الكبير مدير الجامعة الأميركية في القاهرة، على ما تكرم به من تهيئة هذه الفرصة العظيمة التي أتاحت لي المثل أمام حضراتكم، لأتحدث إليكم بإلمامة عجلى عن فلسفة ديكرت، جد الفلسفة الحديثة ومعلمها الأول العظيم.

وإني أشكر لحضراتكم جميعا رغبتكم في سماع هذا الحديث الفلسفى، وأعلن من فوق هذا المنبر، وفي هذه الدار المجيدة، عظيم اعتباطى بها وبمجهودها الثقافى بيننا، كما أعلن نفس هذا الاعتباط أيضا بحفلكم الزاخر، بهذه القاعة التذكارية الآن، تقديرا للنهوض العقلى فى مصر، وطلبا إلى معرفة مقدار الرقى فيه، وما يرمى إلى تحقيقه على جنات النيل السعيد، وفى جميع ربوع البلاد العربية، ووطننا الأكبر العام.

نفر القاهرة بجامعاتها الثلاث

سادق الأجلاء ! إذا افتخرت المدن الجامعية بجامعاتها فى جميع أنحاء العالم المتمدين، فلانجد واحدة منها تفاخر بأكثر من جامعة واحدة فيها. ومدينة المعز لدين الله الفاطمى تفاخر الآن كل هاتيك المدن الجامعية، بثلاث جامعات كبرى، أهلة بألاف الطلاب من الشباب المصرى الناهض، وشباب البلاد العربية الشقيقة. وهذه الجامعات الثلاث هى الجامعة الأزهرية القديمة العظيمة، والجامعة المصرية الحديثة الناهضة، والجامعة الأميركية النديلة المحسنة؛ فقيها جميعها تنمو اللغة

(١) محاضرة ألقاها الدكتور على العناني بالجامعة الأمريكية بالقاهرة

العربية وتقوى، وتعظم الحياة العقلية المصرية وترقى؛ وفيها يتعلم الشباب المصري ويتثقف، وإليها يسعى رواد المعارف من جميع الأقطار العربية، ويختلف هواة العلم والأدب والتهديب إلى حجير الدراسة، ويوم قاعات محاضراتها جماهير المصريين الناهين.

ومن الواضح أيها السادة! أنه بمقدار قوة الحركة العقلية في بلادنا، والانتاج الفكرى فيها، وإقبال الجماهير على دور العلم ومعاهد الثقافة العامة، تكون الصورة الكلية للحياة العقلية عندنا من جهة التكوين ومن حيث المقدار - في درجة النهوض وحضراتكم الآن باجتماعكم في هذه الندوة العلمية تمنحون حياتنا العقلية في مصر صورة راقية تفخر بها، ولهذا فاني أكرر الأعراب عن اغتباطي آملا أن تصل مصر في مدى قصير إلى اجتياز دور التقليد العلى، وأن تدخل قريبا في دور الانتاج العقلى الخاص، مع أولئك المنتجين لمعارف القرن العشرين ومدنية الوقت الحديث.

عظمة مصر الخالدة

وإذا طمحت مصر إلى ذلك معاشر المصريين! فأنما تطمح إلى مجدها التالذ الذى سبقت به جميع أمم المعمورة وأمدتها منه في غضون آلاف السنين، وأيضا إنما تطمح إلى مجد أثيل لا يفاخر به المصرى الناس في مواطن التفاخر المألوفة في هذه الحياة الدنيا فحسب، بل يفاخر به أيضا في مواطن الانتقال من فضاء الوادى السعيد، إلى رحاب السلام في دار الخلد والملك الذى ليس له نقاد.

نعم إن المصرى ليفاخر بمجد بلاده في هذا الوطن، وقد فعل وخلد كلمات الفخار! وإنه لفاعل ذلك أبدا، وإنه لخلد على الدوام في ذلك آيات الفخار (١).

موضوع الحديث

أيها السادة الأفاضل! نريد كما قلنا في صدر هذا الحديث أن نتحدث عن ديكرت وفلسفة ديكرت. وإذا نحن حاولنا الحديث في هذا الفيلسوف العظيم وفي حكمته السامية، فأنما نقصد إلى عرض إجمال مختار في التعرف بحياته، وشخصيته،

وأساس مذهبه ، وأثره العظيم في تاريخ الفلسفة الحديثة ، وقيمته في تاريخ المذاهب الفلسفية في العموم . وإنا سنحاول أن يكون هذا الأجمال في كل ما تقدم معبراً عن الصورة الكلية لشخصية ديكارت وفلسفته ، تلك الصورة التي تتطلب في إبرازها وتكوينها عشرات المحاضرات

العقل الإنساني

وإذا نحن تحدثنا عن ديكارت وعن فلسفة ديكارت ، فانما نتحدث في الواقع وفي العموم عن العقل الإنساني ومعارف الإنسان . لذلك يجدر بنا هنا أن نقف هنيهة نسجل فيها ما لهذا العقل من كنه ، وما له من قيمة ومقدار . وصف الحكماء قديما العقل الإنساني بأوصاف كاشفة مشيرة إلى كنهه ومعبرة عن قيمته ومكانته ، وقد تدرجوا في ذلك من درجة متواضعة ، إلى درجة سامية ، وسموا إلى درجة ثالثة هي اسمى مرحلة وضع فيها هؤلاء الحكماء عقل الإنسان ، فقد قالوا : العقل زينة الإنسان ، ولا يعنون بذلك الاتزان والوقار فقط ، بل يريدون أيضا المعارف الإنسانية التي تتفاوت قيم الناس وأقدارها بتفاوتها في القيمة والمقدار . وهذا الوصف على ما فيه من حقيقة وروعة جلال ، فانه متواضع بالنسبة إلى ما نعت به كثير من الحكماء في قولهم « الإنسان تاج الخليفة » ، أى أكمل كائنات الوجود العام وأسماها بالنسبة إلى ما أودع فيه من العقل وقوى الإدراك . وهذا النعت وإن سما بالعقل الإنساني إلى اسمى غاية في الوجود فانه أيضاً متواضع بالنسبة إلى ما قالوه حاكمين على الإنسان بأنه بعقله « هو التكون العام مضغرا » أو « التكون العام هو الإنسان مكبرا » .

هنا وبهذا الحكم ندعن بأن القوة العاقلة الإنسانية قد انبثت في جميع كائنات الوجود واتحدت معها ، فالعقل الإنساني هو الوجود العام ، وهذا الوجود العام هو نفس عقل الإنسان .

ولاشك أن هذا أسمى ما وصل إليه الحكماء في تقدير العقل الإنساني وتكييف مكانته والأشارة إلى كنهه وحقيقته .

وعندنا ، ونحن على حق ثابت ، أن العقل الإنساني جدير أيضا بأن يوضع

في المراتب الثلاث الآتية ، في مقابلة المراتب الثلاث المتقدمة ، اذ من الواضح الجلي أن العقل البشرى « وهو زينة الانسان ، هو أيضا وبالفعل « زينة الوجود العام »

نعم العقل الانساني زينة الوجود العام ، لأنه لولاه ما أدرك كائن ما وجودا ولا عرف زينة ولا فهم ابداعا ولا لمح شيئا مما في الوجود من انسجام ونظام . ولا شك أن كل ما في الوجود العام من جمال وزينة وإبداع ونظام وانسجام لا مظهر له إلا في عقل الإنسان ، فهو جمال الكون ، وهو زينته ، وهو كل ما فيه من إبداع وانسجام ونظام

والانسان مع أنه « تاج الخليقة » بعقله ، هو بذلك أيضاً « مرآة الوجود » الذي لا يبرز إلا فيها « ونور الوجود » الذي لا يظهر إلا فيه

والعقل الانساني أخيراً مع أنه « الكون العام مصغراً » وأنه بذلك ذات الوجود . فهو « مدد الحقيقة المقدسة الخالدة » أو « فيض العقل الأول » وكائنات الوجود بأكمله هي فيض العقل الانساني الفائض عن العقل الأول مبدأ الوجود . وخلاصة كل ذلك أن « العقل الانساني هو زينة الوجود العام ومرآته ونوره ، وهو فيض الحقيقة ، وعنه فاض الوجود كله » فليس في الكون العام اسمى من العقل الانساني إلا الوجود المطلق أو مبدأ الوجود .

أنواع الانتاج العقلي

ولهذا العقل الانساني إنتاج متعدد الجهات والأنواع بتعدد نواحي الوجود العام وتنوع ظواهره البعيدة عن الحصر ، ولكن من السهل على الملم بتاريخ الحركة العقلية الانسانية من بدء نشأتها حتى الآن ، أن يحدّد أنواع الانتاج الفكري الانساني في أربعة أنواع شاملة أو دوائر عامة ، هي دائرة الدين ، والدائرة الفلسفية المتفرعة عنها ، ودائرة الأدب الناشئة عن الدين أيضاً ، ودائرة العلوم المتكوّنة في النهاية من البحوث الفلسفية والآراء الأدبية قبل أن تأخذ طريقها الخاص ولكل نوع من الأنواع الأربعة المتقدمة موضوع خاص به ، وطريقته في البحث التي لا يتعداها إلى غيرها .

وموضوع الفلسفة هو الكون العام . وطريقة البحث الفلسفي فيه إنما ترجع إلى العقل الحر والنظر المستقل دون ارتكاز على وحى أو خيال .
ولقد نظرت الفلسفة منذ نشأتها عند قدماء المصريين وعند الفرس والهنود والصينيين بعد ذلك حتى القرن السادس قبل الميلاد - إلى الكون العام شارحة الحقيقة فيه وموضحة ظواهره الطبيعية بطريقتها الخاصة بها ، إلا أن أغلب ما أنتجته هذه الفلسفة في تلك الغضون كان متفقا في العموم مع مبادئ الدين وشارحا لأحكامه اللاهوتية ؛ ولذلك كانت الفلسفة عند هذه الأمم الشرقية القديمة دينية في اتجاهها العام .

ومنذ ابتداء القرن السادس قبل الميلاد سارت الفلسفة في طريقها الخاص بها عند اليونان ، تشرح الوجود الكلي غير ملتقية مع ما يقوله الدين ، ولكنها عادت في آخر عهدها اليوناني إلى سيرتها الأولى ، فصارت عمدة للمسيحية ومؤيدة لها وخادمة إياها في هياكلها ، ولقد كان شأنها مع الاسلام كذلك عند الأمم العربية ، حتى عادت إلى أوروبا ابتداء من القرن الثالث عشر بعد الميلاد .

هنا مرت الفلسفة بعهد الرئيسانس أو إحياء العلوم الاغريقية القديمة التي كانت ضمن الدائرة الفلسفية ، ولقد ابتدأت هذه العلوم تأخذ استقلالها وتعمل في مواضيعها الخاصة بطرق البحث التي اختارتها متناسبة مع طبيعتها ، وقد اجتاز البحث العلمي التحرير من سلطان الكنيسة وانتصر في دور الاصلاح الديني ثم ألقى على الفلسفة نورا من بحوثه التجريبية قد غير وجه النظر الفلسفي تقريبا ، فاصطدمت الحقائق العلمية مع بعض النظريات الفلسفية . وأخضعت النتائج التجريبية الملبوسة لسلطانها النظر الجامع فيما وراء الطبيعة وفي الغيب وأسرار الوجود .

في غضون هذا المعترك الفكري بين الفلسفة والعلم ظهر ديكرت الفيلسوف العظيم جد الفلسفة الحديثة . وقد عمد إلى حل هذه المشيكة الفكرية الكبرى - حلانها بأن تناول الحقائق العلمية ، وأهمل النظر الفلسفي القديم مشيدا هيكله من جديد على أساس من الحقائق العلمية ، متدرجا في طريقته من الشك إلى تقرير الواقع بحكم النتائج العلمية والجلاء والوضوح .

ديكارت

ولد ديكارت في ٣١ مارس سنة ١٥٩٦ في مدينة لاهاى .
 أتم دروسه في الكلية اليسوعية في لافلاش ثم ذهب إلى باريس في سنة
 ١٦١٣ فدرس بها العلوم الرياضية والحقوق ، وفي سنة ١٦١٦ نال إجازة الحقوق
 وكان عمره إذ ذاك عشرين سنة
 انتظم بعد ذلك في سلك الجندية فتمكن بذلك من رؤية أما كن كثيرة
 وفي هذه المدة كون أسلوبه المنطقي .

وبعد أن خدم في الجندية أربع سنوات تركها وعاد إلى الاشتغال بالعلم
 وتحصيله ، وقد كان اختط لنفسه خطة لا يتعدها في طلب المعرفة ، وهي البحث عنها
 في نفسه وفي كتاب العالم ، ولذلك سافر كثيرا وشاهد كثيرا .
 بقي ديكارت إلى سنة ١٦٢٩ لا يصل إلى رأى قاطع في اختيار مهنة له ، ومن هذا
 التاريخ عقد النية على أن يشغل طوال حياته بالتهذيب العقلي والبحث بقدر
 الامكان عن الحقيقة ، فقال إلى العزلة . واختار هولاندا دار مقام له ، ليتسنى له ما يريد
 من الحرية والعزلة ، وبعد عشرين عاما دعت « كرستيانة » ملكة السويد إلى
 بلادها ، فشخص إلى استوكهلم ، وقد عاجلته المنية بها بعد مرور عام من وصوله
 إليها فمات في شهر فبراير سنة ١٦٥٠ وقد بلغ عمره أربعة وخمسين عاما
 مؤلفاته

الأسلوب أو الطريقة ، أبحاث في الفلسفة الأولى ، المبادئ الفلسفية ،
 الشهوات النفسية ، العالم والانسان . ورسائل أخرى ، ومصنفات في الرياضيات والطبيعة
 وفلسفة ديكارت تنحصر في المواضيع الآتية :

(١) طريقة التفكير (٢) طرق المعرفة (٣) الطبيعة (٤) الانسان
 يعتبر ديكارت المؤسس الأول للفلسفة الحديثة كما كان تاليس للفلسفة
 القديمة ، لأنه رفض كل مبادئ التفكير المعروفة إلى عهده . وكون له دعامة جديدة
 ثابتة من اليقين الشخصي ، وجعل للحقيقة مقياسا خاصا هو الجلاء والوضوح ،
 واستخدم الأحكام الطبيعية المبنية على العلوم الرياضية والميكانيكية في النظر الفلسفي

طريقة ديكرت أو أسلوبه

١ - حدود الشك . قال ديكرت : جميع الأشياء التي تظهر لنا عادة بمظهر الحق توجد أسباب تدعو إلى الشك فيها ، فالحواس تخطئ كثيرا والعقل قد يضل ، وإذا كان ذلك كذلك فلا بد للإنسان من أن يقف موقف المتردد ، ولكن ليس للاستمرار عند الشك كما هو مذهب المتشكك ، بل للتغلب على هذا الشك وإزالته نهائيا . ثم قال :

وإذا كنت أشك في كل شيء فاني لا أشك في أني أشك وفي أن الشك تفكير وفي أني أفكر .

وإذا كنت غير موجود فلا يمكنني أن أفكر ، وحيث إنني أفكر فأنا موجود . فمع الشك في كل شيء ، وبالشك في كل شيء بقيت حقيقة لا مرء فيها وهي : « أنا أفكر ، فأنا موجود » .

هذه الجملة هي أساس كل فلسفة ديكرت ، كالنقطة في أنها أساس كل نظر هندسي عند أرشميدس .
(٢) مقياس الحقيقة .

استنتج ديكرت من هذه الجملة مقياس الحقيقة بأن قال : إنني لا أرتاب في معنى هذه الجملة ، فهي واضحة جلية ، لأنني تيقنت أني أفكر ، ويلزم من ذلك بالضرورة أني موجود ، وينتج من هذا أن كل شيء يظهر لي بوضوح وجلاء مثل وضوح وجلاء هذه الجملة ، يكون حقا ، أي أن مقياس الحقيقة هو الوضوح والجلاء .
(٣) وبناء على هذا المقياس يمكننا أن نصل إلى معرفة انبثنا ، وإلى معرفة كنه الرب ، وإلى معرفة الكون العام .

(أ) أنا أعرف أن الأنانية المدركة هي عنصر غير مادي ، وأن كنهها في الفكر ، فهي النفس ؛ ومعرفتها أسهل وأقرب من معرفة غيرها من الأشياء ، لأنها تدرك من التفكير مباشرة .

(ب) وإذا رجعت إلى نفسي مفكرا فاني أجد في نفسي عدة تصورات من ضمنها المثل الأعلى للكائن الأبدي التام .
ذلك المثل الذي أسميه الرب ، فالرب موجود .

أنا موجود، وليس وجودى بنفسى، فأنا غير كامل، فاذن الكامل هو الذى أوجدنى، فهو موجود، والكامل هو الرب، فالرب موجود
(ج) إن الرب موجود، وهو حقيقة لا شك فيها، وهو السكالم المطلق، فهو صادق، وبصدقه تعرف الأشياء
إلى هنا ارتفع الشك تماما، وحل محله اليقين فى الشخص، والاله، والكون العام
المعرفة

الإدراك من طريق الحواس لا يوجد فى الإنسان تصورا عقليا واجب الصدق
لأن الحواس تدرك المواد مع ما فيها من نسب، ومع ما لها من نفع أو ضرر لنا
لا مع حقائقها المجردة
ومنشأ التصور العقلى إنما هو الصور والفكر الطبيعية، مثل فكرة الأنية،
وفكرة الرب، وفكرة الوجود، وفكرة العنصر، ومثل فكر العلة والمعلول
والعلة والسببية. ومعنى الفكر الطبيعية عند ديكارت هى المعانى الواصلة من
الرب، إلى النفس

فالمعرفة العقلية لا بد لها من الفكر الطبيعية، وإدراك الأشياء المادية ضرورى
للمعرفة ضرورة السبب فى وجود مسيه

الطبيعة والإنسان

ابتدأ ديكارت فى معرفة الطبيعة والإنسان من نقطة الجوهر الذى عرفه
بأنه الموجود الذى لا يحتاج فى وجوده إلى موجود آخر، وبناء على هذا التعريف
فلا يوجد سوى جوهر واحد، وهو الرب، أما المخلوقات فأنها جواهر نسبية فقط
لاستغناء الواحد منها عن الآخر مع احتياجهما فى وجودها إلى قدرة الخالق
وهذه الجواهر النسبية لا تعرف بدون واسطة، بل بواسطة أعراضها، وكل
جوهر له عرض أصلى واحد فقط يعين وجوده، وما عداه من الأعراض
فمميزات للنوع.

فإذا أراد الإنسان معرفة جوهر بحث عن عرضه الأصلى المحدد لكنه وجوده
والجواهر كلها ترجع إلى روحية ومادية، وعرض الجوهر العقلى التفكير،
والجوهر المادى الامتداد

إذا رفعت أى عرض من الأعراض الثانوية عن الجوهر المادى ، فإن الجوهر لم يعدم وجوده ، أما إذا رفعت عنه عرض الامتداد بطل وجوده
 الأجسام تنجزأ إلى ما لا نهاية ، وقبل حدوثها كانت عبارة عن ذرات منحها
 الرب مقداراً من الحركة حفظت فيها بدون زيادة وبدون نقصان ، وبواسطة
 الحركة اتصلت بعض هذه الذرات ببعض الآخر ، فتكونت عن هذا الاتصال
 الأجسام الفلكية المتحركة حول نفسها ، لدوام اتصال ذاتها
 الجسم والنفس

أوجد ديكارت بين الجسم والنفس حداً فاصلاً ، وكون الإنسان منهما ، أما
 الجسم الإنسانى فهو كجسام الحيوانات فى أنها لا تدرك ولا تشعر ، وحياة الجسم
 (أى حركته) ناشئة عن حرارة الحياة الموجودة فى القلب ، وبواسطة هذه
 الحرارة تتكون القوة الغذائية والنمو ، وبواسطتها أيضاً تكون الحياة الروحية
 التى هى عبارة عن مادة سائلة تصعد إلى المخ ثم تفيض ثانية إلى الأعصاب
 فى هذه الآلة الحية تسكن النفس متخذة مقرها فى الغدة الصنوبرية الكائنة
 فى وسط الدماغ للجسم

للجسم مظاهر الحيوية التى ترجع إلى حرارة الحياة بدون تأثير للنفس
 فيها ، غير أنها تدرك تطور هذه الحرارة وتؤثر على الجسم بتغير حركته بدون
 خلق حركة جديدة فيه

أرجع ديكارت الشهوات الإنسانية إلى العلاقة التى بين النفس والجسم
 وهذه الشهوات ترجع إلى الست الآتية :

الحب ، والكراهة ، والسرور ، والحزن ، والاستحسان ، والرغبة ؛ وآراء
 الإنسان المستمدة من العقل يجب أن يتغلب على هذه الشهوة ليكون حراً
 والخلاصة أن ديكارت لم يكن شاكاً للشك ، ولم يكن مذهبه مذهب شك
 ووجود ، وإنما كان جازماً بصدق القضايا العلية والأحكام الثابتة فى الميكانيكا
 والرياضيات ، واتخذها أساساً فى بحثه الفلسفى ، وكان مذهبه مذهب يقين وإيمان
 جمع بين العلم والفلسفة والدين .

على العنالى

پومپی العظیم ^(١) Pompey The Great

تأليف جَن مَسْفِيلْد John Masefield

ترجمته محمد علي مصطفى

الفتن بوزارة المعارف

٢

الفصل الثاني — المنظر الأول

خيمة القواد وأرباب الحرب عند درازو، وفيها منضد
حوله بضعة كراسي يجلس عليها دوميتيس ولينتوس
وثيوفانيس . آثار الحرب ظاهرة في كل شيء .

دوميتيس : هكذا تمر الحوادث ، وتقلب الأيام ، انظروا إلى الخريطة ، تروا
أن مركزنا حرج للغاية ، فلقد خسرنا أسبانيا ، وحاصرتنا قيصر من كل
جهة حتى كأننا قطعان غنم سيقت إلى حظائرها . أليس لبومبي حماسة
وحمية ؟ أو اعتراه السكر حتى لا يفيق ؟

ثيوفانيس : إن « فلا كس » يزحف على خط قيصر في هذا الصباح ، وسيحمل عليه
حملة ناجحة ، ويغير على جنده في ثلاث نقط منصورا إن شاء الله !

دوميتيس : « فلا كس » صبي لم تؤدبه التجارب ، ولم تطل خبرته بالحرب ، ولقد
أضعنا حولاً كاملاً ونصف العاهلية .

(هنا يدخل بومبي مسرعاً فيحيونه)

بومبي : عموماً صباحاً ، لقد دعوتكم لأمر جليل فإن جيشنا الذي كان بأسبانيا تحت

(١) راجع ما نشر من هذه الرواية في العدد الثاني من "سنة الثانية" من صحيفة دار

قيادة « فلا كس » ، قد هزمه العدو شر هزيمة ومزقه إرباً ولقد كانت رسائل « فلا كس » ، تبعث فينا الأمل في الانتصار والفوز المبين ، ولكن الحظ لم يشأ أن يتم لنا ذلك ، ونحن أعلم بالحرب وتقلبها ، وعار علينا أن نعزله ونختار للقيادة غيره فلسنا بالتجار

دوميتيس: لقد نزلنا عن إيطاليا ، وأضعنا أسبانيا ، واحتل العدو إفريقية ، وأخذ ميسيليا ، وتقهقرت جنودنا في كل مكان ، ولقد يحق لنا أن نتساءل عن أسباب الهزيمة ، فانا لم تأت إلى هنا ليحاصرنا جيش قليل العدد والعدة .
 پومي : رحمك الله ياسلا ! فلقد نطقك بالحكمة حين قلت : « إن على أن أحجب إلى الجنود بملاطفة الأفراد والكلام معهم في الفينة بعد الفينة ، وليس في مقدوري أن أحجب القواد في أفكارى مهما أطنبت وأسهب في ذكر الحجب » . انتظروا فستعلمون نبأه بعد حين

ليتولس : پومي ، أنا لأحب الانتقاد ، ولكن الانتظار مدعاة إلى الفشل ، ومجلبة للخراب العاجل ، ولقد فر من حولنا حلفاؤنا ، وهامى قرومة تخرج من أيدينا — رومة التي تنتظر إليك بعين ملؤها الأمل والرجاء في القضاء على هذه الفتنة الشعواء ، ولكنك تركتها تشتعل ويتأجج لهيها ، ولقد رأيت أتباعنا يقتلون ويقطعون ، ومع هذا لم تحرك ساكنا ، واضيعة الأمل !

پومي : مهلا .

دوميتيس: لقد انتظرنا حولا كاملا .

پومي : وماذا عليكم لو صبرتم برهة أخرى ؟

ليتولس : وبينما نحن في انتظار ، إذ يتغلب الرعاع على طبقة الأعيان في جميع بقاع العالم ، حتى لا يتركوا لها من أثر (يقف)

پومي : ليتولس ، اجلس ولا تعجل ، فان الحرب في يدي .

دوميتيس: إنما يفوز بالحرب الجسور (يدفع الباب الصغير جانبا) ألا ترى إلى قمم الجبال بجانب هاتيك الأدغال في تلك البقعة الحمراء الملتببة ؟ هذا هو معسكر

قيصر . وأقسم لقد ذهبت إليه مرارا وقد أقبل الظلام ، وأرخى الليل سدوله ، فكنت أتلس الطريق بين المتالع والربى ، أحيانا بين الصخور وآونة فوقها ، والأنجم الزهر ترشدنى ، حتى إنك لتجدنا على بينة تامة من ذلك المعسكر ، وليس بدعا إذا أخبرتك بأن فى استطاعتى أن أقود جيشا إليه معصوب العينين .

هذه « خريطة » (يفتح « خربطة ») هذه النقط الحمراء هى مواقع الحرس ، ولم أضع واحدة منها فى موضعها إلا بعد أن خاطرت بدم قلبى ، وكثيرا ما كنت أزحف على يدى ، والتصق بالأرض ، وأكتم أنفاسى ، وأرجو القمر أن يتوارى بالحجاب ، مخافة أن يرانى أحد من رجال الحرس الذين سمعتم يخوضون فى أحاديث الشوق والغرام ، وقصص المحبين ، وأشهد لقد رأيت الضابط ذات ليلة يطوف على رجاله ، ويتعهد معسكره ومعه مصباح ، فعمضت عيني خشية أن ينما على .

إن فى مقدرتى الاستيلاء على ذلك المعسكر بفرقتين فحسب فى ليلة خالكة الجلاب غدا فى الإهاب ، لقد قسمت هذه الحرب الشعواء العالم قسمين ، إنك أرسلت « فلا كس » فى عدد من أشداء الرجال لأمر هين ومع هذا لم يتم لهما أراد ، هل لذلك من مبرر ؟ أخبرنى أولا ثم مرنى بالانتظار

يومئذ : « فلا كس » فى الموقعة الفاصلة فى هذه الحرب

لينتولس : هذا لغو الكلام (يقف ثم يذهب)

دوميتيس : الفاصلة ؟ ألا أخبرك بالموقعة الفاصلة ؟ لقد كنت فى واحدة منذ ثلاثة أشهر فى ميليا . وعند نهاية الحصار لم يبق من المدينة الا أطلال بالية ، وباد السكان عن آخرهم ، الا نفرا أصابهم الوباء ، ورجالا لا يتجاوزون الأصابع عددا استولى عليهم الجنون من هول الفزع .

قدفتنا القلاع بالنيران ، والدبابات بالحجارة ، ولكن لم ينثن الجنود عن تخريب المدينة وتدميرها ، فكنت ترى جيوشا جرداء كاهها قطع الليل

يكل دون غايتها الطرف ، تتنافس في سبيل الغارة ؛ هذه هي الموقعة الفاصلة .

دوميتيس : حينما يفكر الانسان في شيء خاص ، وتشتد رغبته في الحصول عليه ، تغره الأمانى الكاذبة ، وتستولى عليه الوسوس ، ويصير شيطانا رجما لاشفقة عنده ولا رحمة ، انك أخبت من الشيطان ، لأنك إن لم تجد أعداء تحاربهم ناجزت أصدقاك العداوة ، فان لم يتيسر ذلك أعلنت الحرب على نفسك ، فاذا هزمتها حاربت الأفكار ، لا لأنك تفهمها ، بل لأنك مجبول على حب القتال ، إنى أخافك يادوميتيس لان أصدقاك الرجل هم الذين يفهمون أفكاره وينشرونها بين الناس ، وأنت صديق قيصر

دوميتيس : (بهيج) لقد قتلت أخى أيام كنت فى ريعان الشباب ، وزهرة العمر ، وأقسمت لآخذن بثأره وأمزق قلبك تمزيقا . ألا تذكر يوم تناولنا الغذاء معاً حينما وضعت يدي على كتفك ؟ ولكن أنى لك أن تذكر ذلك وقد مضى عليه نحو عشرين سنة ، لقد كان يدي الأخرى سكين حاد أستطيع أن أطعنك به طعنة نجلاء تصل إلى سويداء قلبك ، ولكنى آثرتك على أخى حينما علمت أنك أصدق منه ووطنية وأكثر إخلاصاً لبلادك ، وأنتك البطل الذى تحتاج إليه روما (سكوت) (بشدة) إنك تخالف ضميرك اذا دعوتنى صديق قيصر ، مع علمك بأنه يخشى بأسى وترتعد فرائصه عند ذكرى .

نعم انك صديق قيصر ، فضربات قلبك واحدة ، ولست تحقد على الا لآنى لا أسفك الدماء ، ولا ألتطخ يدي بها كما يفعل قيصر ، وبينما أنت تنقم منى إذ يصلى فلا كس الأعداء نارا حامية ، فلا تفكر فى أمر الحرب فقد انتهت

(القواد يجتمعون فى جانب الخيمة ويتكلمون ناجية برهة)
يجب علينا أن نوجه كل عنايتنا إلى رومة ، وأن ندود عنها بكل ما فىنا من

قوة ، هذه هي الثورة السابعة للعامة منذ صباى ؛ سبع ثورات عامة يراد بها الانقلاب ؟ ألا تعلمكم ذلك شيئا ؟ لقد قدمت إلى قيصر إيطالية مفككة الأوصال ، وأسبانيا مملوءة بالاضطراب عديمة النفع ، فقبلهما ، ورميت اليه نصف الكرة الأرضية فأخذه . وساقه طمعه إلى الشرك الذى نصبته له ، إن الخيرات كثيرة عندنا ، ولدينا أساطيلنا تحمى البحار ، وتسيطر على الأمواج ، أما قيصر فإن خناده مملوءة بالوحل ، وجنوده تأكل من جذور النبات ، هل تسمى ذلك حصارا ؟ إنه احتفر خندقا طوله ثلاثون ميلا ، ومع هذا رجاله لا يستطيعون الذود عن ثلثه ، فقد استولى عليهم التعب ، ونال منهم الجوع ، فهو وجنده طوع أمرى ورهن أشارتى ، فليس يقدر على مناجزتنا ، ولا الغارة علينا ، ولا على أن يرتد إلى رومة ، وإن طعنه صغيرة فى قلب جيشه تسوقه إلى الهزيمة والقضاء العاجل .

(يدخل البريد يحمل رسالة ثم يقدمها إلى بومبي)

البريد : من تتس بلشيو

بومبي : حسن

البريد : أهناك أوامر يامولاي ؟

بومبي : لا ، ووصلت

(يخرج البريد محيا)

ثيوفانيس : أمهمة هذه الرسالة ؟

بومبي : اقرأها .

ثيوفانيس : (يقرأ) من بلشيو ضابط الكتبية الخامسة ، الى مركز القيادة العام ، إن الغارة التى دبرها فلا كس لم تنجح ، فقد ردنا العدو على أعقابنا ، بعد أن خسرنا خسارة فادحة فى الأنفس والأموال ، وتقرقرت البقية الباقية إلى الخطوط القديمة فى جنوب النهر ، ولا يزال القتال دائرا بين الطرفين .

أنا زاحف بمن معي من الجند ، لأن العدو في غاية القوة والمنعة ، ومركزنا يدعو الى اليأس

دوميتيس: هؤلاء الشبان الأغرار يحتاجون الى درس . كيف تبرر الآن عملك يا پومي ؟

پومي : انتظر

دوميتيس: كيف ذلك وجناحنا الايمن يطوى طياً ؟

پومي : ان يقصر ليحتاج الى يومين ليحضر فيهما عددا من الجند يسحق بهم الجناح الايمن

دوميتيس: حقا يجب عليك ان تكسر العدو

پومي : ستأكل هذه القوة نفسها ، اذ ليس في استطاعة قيصر أن يريد فيها ولا أن يعوضها ؛ إني احارب ورومة ملء قلبي ، ولن أرجع اليها فوق جثث الموتى وأصلابهم كما فعل سلا

دوميتيس: انك ستسير على جثث هؤلاء الأسرى الذين أخذتهم ليلة أمس فلقد قتلهم

پومي : كيف قتلت هؤلاء الأسرى ؟

دوميتيس: إنهم خرجوا علينا ، فهم عصاة خونة فروا من جندنا

پومي : لا بد أن يحاكم الخائنون وتثبت حياتهم

دوميتيس: لقد فروا من فرقتي وليس لهم جزاء غير القتل .

پومي : لا تتكلم . إنك تجر علينا العار ، وتجلب لنا الفضيحة (سكوت - تغيير في الصوت)

قد يكون لنا النصر أو سبة الأبد ، وسواء أكتب لنا الفوز أم لم يكتب

إن جنودنا ستحارب بشرف ونفوس أيية ، لأنهم يجاهدون في سبيل

الوطن ويدودون عن الحق .

(يدخل ضابط كبير اسمه كوتا أعياء السفر وبانت عليه أمارات التعب)

كوتا : أنعى إليك يا مولاي القائد « فلا كس »

يومى : هل قتل ؟

كوتا : نعم يا مولای .

دومیتیس : هذا ما يحصل فى المعارك الصغيرة ، يقتل فيها العظیم من الرجال ، ومع هذا لا تنبجھ لها .

كوتا : لقد ردنا الأعداء على أعقابنا ولم یفلح هجومنا .

يومى : كيف كان ذلك ؟

كوتا : تسورنا الجدران ، وأخذنا معاقلھم ، وأضررنا النيران فى بعض قلاعھم ، ولكنھم أحاطوا بنا من كل مكان ، وطلعت علينا كتيبتان حتى ظننا أن لا ملجأ من الموت ولا مفر منه .

يومى : وماذا جرى لقائدكم ؟

كوتا : قتل فى حومة الوغى يا مولای ، لأنھم ساقونا سوق الأنعام ، وردونا إلى المعقل ، وكانت نيرانھا تتأجج ، ولھيبھا یستعر ، فعمت المصیبة ، واشتد الأمر ، وأبلى القائد بلاء حسنا ، فلقد رأیتھ مع بعض رجاله وقد انقضت علیھم كتيبة من الفرسان ، فنالوا منهم بالطعن والضرب .

قربت منه وحاولت نجاته ، ولم یمنعنى سوى انفجار النيران ، وتراكم الدخان ، وكثرة العدد . أقبل العدو بخيله ورجله ، ورأیت رجالی یقتلون ویصلبون ، وتبعنى جماعة من حملة الرماح ، فقذفوا بى خلف السور ؛ وعند ذاك رأیت جسم القائد ملتبها یهوى فى الفضاء إلى مكان من النيران ؛ ولم یبق فینا من قوة نكر بها على الأعداء ، لأنھم مزقونا شر ممزق ، تشتت الجنود فى السهول كالوعول ، وقتلوا منا ثمانمائة محارب .

أینتولس : هذه هزيمة شنیعة .

دومیتیس : واضیعتاه ! أرواح بريثه أزهقت ، ودما طاهرة أریقت .

يومى : ماذا حصل بعد ؟

ساقونا إلى الخنادق القديمة بجانب النهر ، ثم إلى حفرة خلف السور

الخارجى (سكوت) هناك اشتد الزحام، وضاق بنا المكان، فكنا كقطعان الغنم سيقت إلى المذابح، ثم اجتمعوا علينا من كل ناحية، وتسلقوا السور ورافات زرافات، وقذفونا بالأحجار، ورشقونا بالنبال، وأحاط بنا الموت من كل جانب، وتراكت جثث القتلى، وتفرقت أصلابهم، واشتد الفزع، وكاد الجزع يستولى على قلوب رجالنا، ولقد زعمت أنهم سيفرون من وجه العدو ويولون الأدبار.

وجدت ثلة في الحائط فتسلقتها، ونظرت فرأيت كتيبة من فرسان قيصر ملأت السهل والوعر، تستحث الجنود وتردد صيحات دونها زئير الأسود، وقد برقت أسننتهم، ولمعت المعاول، أعملوها في الحائط أمامهم فتناثرت، وعلا الغبار، وأظلم الجو، وقصد فريق الباب فحاولوا تحطيمه، واستحضروا شجرة كبيرة، وما زالوا يضربونه بها حتى تطاير منه بعض قطع، ولكن كان وراءه ضابط يحميه ويزيد في تحصينه، ولما استعصى على الغالين كسره، تسوروا الحائط وهم يتغنون بأناشيد الحرب، ورشقوا ذلك الضابط بالسهم، ولكنها لم تصبه، ووقعت حوله حتى تطايرت الحجارة في وجهه، ولم يكن مع ذلك الضابط سوى جندى واحد يؤازره ويعاونه على عمله، وكلما ضرب الأعداء الباب بالشجرة، تحمس هذان وصاحا صيحة سرور؛ ليوهما أنهما في عدد كثير. ومازالا كذلك حتى كتب لهما الفوز.

فان جنودنا لما لم يكن لهم إلا الموت أو التسليم للعدو، تسليما يلحق بهم عار الأبدي، استبسلوا في القتال، واستماتوا في الدفاع عن مراكرهم وبلادهم ودمائهم، وملأت الشجاعة قلوبهم، وآثروا الموت مع الكرامة، وحملوا على الأعداء حملة رجل واحد، فبعثوا الحرب قدما متكافئين، فدارت رحاها، وحى وطيسها، واستعر لظاها؛ وفي تلك الساعة العصية سمعنا المزامير والغناء، وأتت لنصرتنا الفرقة الخامسة على أكمل نظام، وأتم تعبئة، فكنت ترى جيشا كأنه بنيان مرصوص، يموج به رجب

الفضاء ، فزاد حماسنا ، واتقدت الحمية فى قلوبنا . وصدقنا الحملة على رجال
قيصر ، فسقناهم سوق الأنعام ، وضر بناهم ضرب غرائب الابل ، وأحطنا
بهم فى خندق هناك ، وأعملنا فيهم الرماح ، وأشرعنا نحوهم الأسنة ،
ورويانا السيوف من دماهم

فراحوا : فريق فى الأسار ، ومثله قتيل ، ومثل لاذ بالسهل هاربه
وكتب النصر لنا ، ورفرت أعلامه على جيوشنا ، ولقد خسر
قيصر ألف قتيل ، واستولى الفرع على بقية جنده . وخلعت قلوبهم من
صدورهم ، وتفرقوا فى السهول ، وذهبت قوتهم فلا يقدرّون على لقائنا
أو لقاء غيرنا مرة ثانية .

يومى : حسن جدا (تنفخ الأبواق)

كوتا : إنهم يرسلون الآن جسم القائد مع الاحتفال العسكرى يامولاى .

يومى : نعم ، اجمع أسماء القتلى والجرحى من جندك وابعث إلى بها . أرح فرقك
ومر لهم بشار ، وأخبرهم أنى سأحدث إليهم بعد قليل

كوتا : شكراً لك يامولاى .

(يخرج محيا)

دوميتيس : كوتا ، انتظر لحظة

(يخرج وراءه)

تيوفانيس : إنى أسمع بوق قيصر فهل يريد منا السلام ؟

لينتولس : لم يطلب الينا الصلح بعد معركة صغيرة كهذه .

يومى : لقد أصابت قلب جيشه ، ولذا تراه . يتقدم الينا بطلب الصلح ، فان أجبه
كان ذلك مدعاة للحرب مرة ثانية ، وان رفضت استمر الخراب والتدمير

وضاع كثير من الأنفس والأموال

تيوفانيس : هل تأذن لمبعوث قيصر بالدخول عليك ؟

(يدخل دوميتيس)

دوميتيس: لقد تقهقر قيصر وتفرق جنوده في كل ناحية ، وفروا من الخنادق وتركوا الأسوار الجنوبية

پومپي: نذلك خير درس له . يجب عليه أن يدفع اليهم ثمن النفوس الطيبة التي ضحوا بها في سبيله ، ولكن أنى له ذلك وكل ما في جهده أن يخلصهم من مصيبة أوقعهم فيها جنونه ؟

تيوفانيس: في وسعه أن يتقهر

پومپي: كيف ذلك ، والى أى مكان يذهب وأساطيل تحمى البحار ، وفي الشمال قبائل متوحشة ، وفي الجنوب حصون تموج بالجند ، وأنا هنا في الغرب مع جيش ، والى الشرق متيلس مع جيش آخر ، فليس هناك من وسيلة لنجاته ، فهو مضطر الى طلب الصلح .

دوميتيس: هل تقابل مبعوث قيصر ؟

پومپي: نعم ، يجب أن يرفرف علم السلام على روما اذا سلم قيصر وجيشه ...

دوميتيس: لا فائدة في تسليمه .

نيوفانيس: يجب القضاء عليه .

ليتولس: وكيف تدير شئون روما وقيصر على قيد الحياة ؟

پومپي: استمرت الحرب زمنا طويلا حتى ستمها النفوس ، ولم ينجح أحد من

كبار القواد في وضع حد لها ، ولذا لا أرى من مبرر لاتباع طرائقهم ،

ان روما يجب أن تمتع بسلام دائم

دوميتيس: اذا لم تضرب قيصر ضربة قاضية ، وتنكل به أشد تنكيل ، وتذقه العذاب

ألوانا - فانك خائن لوطنك .

پومپي: لقد وضعت لنفسى خطة حرية ، ووطنت العزم على اتباعها وعدم

التزحزح عنها قيد شعرة ، فاذهب إلى مكانك ولا تسمعني شكايك

مرة ثانية

(صوت في الخارج ونفخ أبواق)

الصوت : استعداد ! سلاح ! سلام !

يومى : ليس للحياة قيمة فى ذاتها وانما قيمتها بالأعمال
كوتا : (يدخل) الجثة يامولاي ، وهذا مبعوث قيصر

.....
(هنا يدخل حاملو الجثة . وتنفخ الأبواق احتفاء ، بها ويحيطها الحاضرون .
يدخل ماركس اسيليس مع ضابطين . معصوب العينين . يخرج كوتا
والضابطان وحمل الجثة ثم تزاح العصابة)

اسيليس : يومى قد أحضرت جثة قائدك

يومى : ماذا تحمل إلينا من الأخبار؟

اسيليس : إني موفد من قبل قيصر

يومى : وماذا يطلب؟

اسيليس : يطلب منك أن تضع حدا لهذه الفتن الشعواء ، فان مآل الحرب
الخراب والدمار . إن الآلهة قد أعطتك نصر امتكافئا ، فلكل منكما
الآن نصف المملكة ونصف العالم ، وهذه أحسن فرصة لطلب صلح
عادل ، أما إذا ساعد الحظ أحدا غدا فنتأخذ نشوة النصر ويشتط
فى الطالب ، ويطمع فى امتلاك العالم كله ، حتى لا يبقى للصلح مجال عنده
(سكوت) لهذا يتقدم اليك قيصر بطالب الصلح ، ان كان لك فيه رغبة ،
وانه ليأخذ عهدا أكيدا على نفسه على ملأ من الناس ، أن يجرّد جيشه
من السلاح ويسرحه ، فى مدة لا تتجاوز ثلاثة أيام . هذا هو اقتراحه
يومى : منذ نحو سنة أصدر السناتو أمره إلى قيصر بأن يجرّد جنده ، ولكنه
لم ينفذ ذلك القرار إلى الآن ، فهو خارج على الحكومة ، ولهذا أرى أنه
لا بد أن يخضع للسناتو وينفذ أمره ويكون تحت رحمته .

اسيليس : هذه حرب شخصية بينك وبين قيصر .

يومى : كلا فإنى أمثل السناتو .

اسيليس : إن حزبنا لا يعترف بحزبك ، ولا يرى للسناتو عليه أى سلطة شرعية .

يومى : أصغ إلى ، لقد حارب قيصر الحكم الجمهورى فلم يفلح ، وسأجعل من
شروط المعاهدة أن يعترف بتلك السلطة الجمهورية .

اسيليس : إن قيصر لم ينكر هذه السلطة ، ولا يريد القضاء عليها ، وإن وجودي في هذا المحل ، ومثولي بين يديك لأطلب الصلح إليك ، لا اعتراف صريح منه بها ، ولكنه يحارب أولئك الذين أساءوا استعمالها ، وشوهوا وجهها ، وخطوا من كرامتها ، وأنزلوها منزلة لا تليق بها .

أستودعك الله ، (عند الباب) ستقبل الصلح إذا خضع قيصر ، وركع لك وسجد ، وأتى إليك صاغرا ، هذا حسن — إنه سيفعل ذلك على ملا من الرومان ، وبمراى منهم ومسمع ، وسيكون لهم حق الحكم عليه أولا . إن حقوق رومة — حقوق الوطن المقدس — أولى بالمراعاة من الشرف الشخصي . ألا يكفي ذلك ؟

بومبي : أرى أن لا دخل للشعب في هذا الأمر ، وسأعلمهم الخضوع لحكامهم ، وطاعة أولى الأمر منهم ، وإن قيصر ليس بنجيه مناسوي خضوعه للسناتو .

اسيليس : أما وقد أبيت الا حربا ، فأنت المسئول بين يدي الأمة عن الأرواح الطاهرة ، والدماء البريئة التي تراق في هذا السيل . (يذهب)

بومبي : يكفيني أن يأتى قيصر إلى صاغرا أمام الجيش ، وأن يرى الشعب منه عملا يدل على الخضوع والاستكانة ، حتى لا يزعموا أنه أرغمنا على قبول شروطه ، بعد أن أخذ إيطاليا منا عنة .

اسيليس : هل أخبره أنك ترفض الصلح ، (بصوت منخفض) خوفا من ظن العالم بك ، وسوء رأى الناس فيك ؟

بومبي : أتستهن بذلك وتعدده قليلا ؟ إنما نحارب لتكون لنا السيطرة على الأفكار — لنتملك قلوب الناس وعقولهم . إني لا أود السيادة ، ولولا أنى أعرف ما يتطلع اليه قيصر لما ناجزته العداوة ، إنه يرغب في أن يكون ملكا واسع السلطان ، وأن يحل رأسه بالتاج . حتى لقد استهوى العامة ، واستمال قلوبهم بما نثر عليهم من الدراهم والدنانير .

على قدر عقل المرء وبعد نظره ، يكون فوزه ؛ فيجب علينا أن نحسب حساب المستقبل ، حتى لا تقع في الشر . إني أرى رومة

ملطخة بالدماء ، تن تحت مظالم القياصرة بعده ، وهى تمد إلى يدا للأخذ
بناصرها ، أنا شيخ كبير مارست الحرب وجربتها طول حياتى ، فهى
متنفذة للعباد ، ذهابه بالطارف والتلاد ، وسأقضى عليها قضاء لا تنفس
بعده أبدا . لقد سمعت الشروط (بضر الجرس)

(سكوت — يدخل ضابط)

هل تقبلها أو ترفضها ؟ لاتعجل فى العجلة الندامة .

اسيليس : أرفضها !

يومى : (للضابط) خذ فرقة من الجيش وأغريها على طلائع قيصر ، وأضرم
النار فى معاقله .

(يخرج الضابط)

اسيليس : ليس هناك إذن مجال للصالح ، ولا بد من قطع المفاوضات ، فان لنا نفوسا
تأبى الذل ، وتفضل الموت مع الكرامة ، فلا تقبل تلك الشروط
المهينة ، لقد أدبت الواجب ، فهل لك أن تصنى إلى نصيحة اختصك بها ؟
يومى : نعم . (للقواد) اتركونا برهة

(يخرج القواد)

اختصر ، نغير الكلام ماقل ودل (يخاطب بهذه العبارة اسيليس)

اسيليس : لقد تزوجت والدق منذ زمن بعيد ، على الرغم من والدى ، لأنك
أردت أن تكون عوناً لك على الانتخاب ، ولكنها ماتت كسيرة القلب
حسرة وندامة ، وهى فى فراشك وتحت رعايتك ، وأراك الآن تلجأ إلى
شر الوسائل وهم الأشراف ، لأنهم يريدون القضاء على الديمقراطية
باسمك ، ليتوسلوا بذلك الى التحكم فى رقاب الناس ودمائهم وأموالهم
زمتنا . وحينما يتم لهم ما يريدون وتنتهى الحرب ...

يومى : لا طاقة لى بسماع مثل هذا الكلام (يحاول دق الجرس)

اسيليس : لا يسعك إلا أن تدخل الإصلاح الذى يحارب قيصر فى سبيله .
إنك تريد أن تشل سلطة الأشراف ولكنك ستجد منهم أشد معارضة .

دوميتيس يكرهك . ميتلس يخافك . ليتولس قد ملئ قلبه غيرة منك ،
وهم يدبرون طريقة للخلاص منك الآن (سكوت)
تخلص منهم أنت ، وباعد بينك وبينهم ، واتخذ قيصر صديقا
لك ، وضع حدا لهذه الحرب الضروس .

بومي : وبعد ذلك ؟

أسيليس : تكون رومه أطوع لك من بنائك ،

(بومي يذق الجرس - يدخل القواد)

بومي : ثم ماذا ؟ (سكوت) يخضع حزبك الجزبي ، (يكتب بعض الكلمات)
بلغ هذه لقيصر (يعطيه ما كتب) اسمحوا لهذا الرجل بالمرور آمنا .
أسيليس : إني ذاهب الآن وأظن أني لا أراك مرة ثانية .
(يخرج تيوفانيس)

بومي : (يحول وجهه) ماذا تريد ؟

أسيليس : دَعِ الكبر جانبا . ألا تعتبر بما ترى حولك من آثار الموت ؟ إنك
اليوم عظيم ، يؤدي إليك الجزية ويحمل لك الإتاوة عدد من الملوك ،
وربما صرت غدا جسدا هامدا ، كهذه الجثة (يشير إلى جثة فلا كس)
تثني عليك الحشرات ، ويأكلك الدود .

بومي : لقد ذكرت الموت وقربه ، وقلة أشياء عليّ ، ولكنني أتمتع الآن بالحياة ،
ومع هذا ، مرجبا بالمنون ، (يدخل كوئا والضابط وتيوفانيس ويحيون)
لست أعبا بما يتول إليه أمرى بعد ، فلربما صرت جيفة ، يأكلها
الطير ، وتنال منها السباع ، ولكن مادمت حيا أحمل بين جوانبي مبدأ
طاهرا ، فلا بد من الدفاع عنه بكل ما أوتيت من قوة وسلطان ،
اصحبوا هذا الرجل حتى يمر آمنا على نفسه .

(كوئا والضابط يخرجان الرسول مع صوب العينين - أبواق . ضوضاء .

هـ ف .)

(ينظر القواد إلى بومي وهو يغمى نحو الجثة ليراها) بعيد مدام

مسكين أنتي ! فارقت هذه الحياة ، ورجلت إلى عالم آخر . إنك حينما ولدت التف حولك النساء وقبلنك ، وراقبنك في مهديك ، وقد ملأ النوم أجفانك ، وسألن الله لك السلامة وطول البقاء ، جريا على عادتهن ، ولما تعلت الكلام مدحك ، وابتسمن في وجهك ، وامتلات قلوبهن شفقة ورحمة عليك ، وتظاهرن بالسرور حتى لو كان الألم ملأ أفئدتهم . أما الليلة فإني أراك وحيدا لا أنيس لك ، ولا سبيل إلى محبتك ؛ لا تسمع صوتا ، ولا تجيب داعيا ، ولا تشعر بهم من هموم هذا العالم . وأأسفا لوحدة الموتي ووحشة القبر !

دوميتيس : (يمشي إلى الأمام ثم ينظر إلى الجثة) إن الحزن لا يجدي ، وقد جرى ذلك في علم الله .

يومئذ : أريد أن أصارحك القول . إنني أعترف لك ببعض الفضل فيما فعلت ، لو اتبعت مشورتي لكان خيرا . حقا نتيجة الحرب الخراب ، وهذه آثاره بادية ولكن لا راد لما كان ، ففكر في رومه ، وكيف ترجع إليها ولم تنل النصر المبين ؟

ليتولس : إنهم يقولون جهارا في رومة : إن قيصر هزمنا شر هزيمة تيوفانيس : وغلبنا في كل وقعة

يومئذ : ماهذه الضوضاء (صياح : « النصر » تصفيق . أبواق . نداء : « استعداد » قعقة الرماح ، (يدخل لوسيس في ملابس مدنية)

ليتولس : لوسيس !
 تيوفانيس : لوسيس !
 معا }

(لوسيس ينظر إليهما ساكنا يحكي الجثة ويتقدم ببطء .)

لوسيس : أحبيك يا يومئذ ، لقد أتيت من رومه

يومئذ : ما وراءك من الأخبار ؟

لوسيس : أخبار انتصارك ، فإن جيش قيصر تحت قيادة كيوريوس قد هزم هزيمة شعاء وقتل قائده ورددت إلينا أفريقية بعد اختلالها (يأخذ قوس النصر

ويقدمه له بكل احترام) لقد بعثني إليك الرومانيون بهذا الشعار .
 پومي : (يتناول قوس النصر ويضعه على رأس القائد فلاكس) منذ زمن بعيد
 لعبت معك مرة في كايو بجانب بحيرات السمك الذهبي ، فكانت
 أبصارنا غارقة فيه ، نرقبه في حركاته وسكناته ؛ وفي ذلك اليوم الجميل
 سألتني أن أمنحك عباةتي (يضع العباة على الجثة) في ذمة الله أيها
 الراحل ، نعم هادئا فلك جميع ماتمني الآن : إن الكلمة ربما كانت كنجم
 لامع في السماء ، أو سيف شديد المضاء ، يظهر لي أن هذا يوم الفوز
 والنصر على الأعداء ، (ويسمع صوت الأبواق من بعيد مرة ثانية)
 تيوفانيس : إن الأبواق تنفخ الآن .

پومي : إنها بنعمة محزنة كأنها نعمة الموت .
 دوميتيس : هذا نداء روماني في معسكر قيصر (يوزج يده جزءا من الخيمة جانبا)
 هذا هو ضرب الاستعداد للرحيل ، إن قيصر يتقهقر بجنوده ،
 وقد اشتعلت النيران في خيامه ، وإنى أرى جيشه الآن يعبر المضيق .
 ويكفي لإبادته عدد من الرجال لا يتجاوز الألفين .

پومي : لست أود إبادةهم ، ومع هذا سيهلكون أنفسهم ؛ فإنهم يتيهون في أرض
 موحشة ، لا نبات بها ولا ماء بعد أن ذهب آمالهم ، واستولى عليهم
 الفزع ، وخلعت قلوبهم من صدورهم - وراحته لجيش تردد أبواقه
 نغمات الموت الذي ملأ قلوب الرجال وتمثل فيها ! ستبعضهم . ادع
 لنا رؤساء الضباط

(تيوفانيس يذهب إلى الحارس في الخارج ليلفه الأمر)
 لنا النصر (يذهب إلى الجثة) سنغادر الليلة هذه الأرض القاحلة
 مقتفين أثر قيصر ، ومليين نداء الأبواق تحت سماء زيتتها نجومها ،
 تتغنى في أثناء المسير وقد تزودنا لسفرنا ، فليت شعري ما زادك لبعد
 طريقك ؟ . سأضع حدا لهذه الحرب الطاحنة ، بالقضاء على الثورة
 وأسبابها . لا يقتل هؤلاء الرومانيين .

(يدخل كبار الضباط)

انفخوا الأبواق ، واطووا الخيام ، واستعدوا للسير ، (يخرج ضابط فينادى : احموا هذه الجثة)

الضابط الأول :

عليك سلام من أمير ، وباركت
فمن يجر أو يركب جناحي نعمة
يد الله في ذاك الأديم الممزق
ليدرك ما قدمت بالأمس يسبق

الضابط الثاني :

سأبكيك ما فاضت دموعي فان تفض
كأن لم يمت حتى سواك ولم تقم
فحبك متى ما تكن الجوانح
لقد حسنت من قبل فيك المدائح
لئن حسنت فيك المراثي وذكرها
ولا بسرور بعد موتك فارح
فما أنا من رزء « وإن جل » جازع

الضابط الثالث :

حرام على الأجفان أن ترد الكرى
هو الدهر يرمينا بأسهم صرفه
أجل ، ماله إلا التسهد مورد
فلا جمع إلا والزمان مفرق
فيصمى الرمايا حين يرمى ويقصد
جرت عادة الدنيا بكل الذي ترى
ولا شمل إلا بالخطوب مبدد
فصبرا ، وتسليما لكل ملية
وليس لها ترك لما تعود
إذالم يكن يوما على الدهر منجد

الضابط الرابع :

أحسن بالواجد من وجده
ومن أبي في الرزء غير الأسى
صبر يعيد النار في زنده
سلم إلى الله فكل الذي
كان بكاه منتهى جهده
سأك أو سرك من عنده

(يحملون الجثة ثم يخرجون ، ووراءهم يومئ ولا يبقى سوى دو ميتيس وتيوفانيس ولينثولس ولوسيس) .

تنفخ الأبواق ويرن صداها ويذهب بعيداً ، وتردد النغمات في جهات متعددة ؛ حتى يمتلئ الهواء بصداها ورنينها .

تنزل الستارة

المنظر الثاني

في خيمة يومي وقد انفجر الفجر ، وجلس يومي يكتب بعض
المذكرات

(يدخل لوسيس)

لوسيس : أأنت نائما ؟

يومي : لقد تواردت على الأحلام ؛ أحلام الشر . هل كنت تطوف على
على المعسكر وتتفقد حاله ؟

لوسيس : نعم لقد رأيت في أثناء طوافي بالقرب من معسكر قيصر ، نورا ينبعث
في كل الجهات . ويظهر أنهم يحرقون جثث موتاهم ، وقد أخذت كشافتنا
اثنين من فرسان العدو وهما يقولان إن رجال قيصر يموتون جوعا
وإن الحمى منتشرة بينهم .

يومي : إذئ يجب عليه أن يخضع في بضع أيام . أنظهم يضرمون النار في
موتاهم ؟ أأمانا الآن رومة فيجب علينا أن نفكر في شأنها ونقرر
مصيرها ونظمئ أفكار الناس فيها . (سكوت) اعتراني الأرق وأقص
على المضجع وسبح الفكر في ملكوت السموات والأرض ما شاء .
أناشدك الله ماهو الإنسان ؟ وهل تعرف له من غاية ؟

لوسيس : خلق الإنسان من تراب وغايته الموت .

يومي : كلا . إن له روحا لا تفنى وقد استأثر الله بعلها . لقد رأيت رجلا
مجنونا أيام كنت في مصر ، يصوب عينه نحو الشمس ، حتى نال
وهجها من بصره ، ولما دنوت منه سمعته يقول : إن الأفكار تخرج
من الشرق كالجراد ، فتبسط في ممرها على بعض الأمم ، وتنفخ فيها
روح الحياة ، فإذا أخذت البلاد زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم
قادرون عليها ، اذن الله بذهاب تلك الأفكار ، فغادرت مستقرها وهامت
في الصحارى والقفار ؛ حتى يأتيها أجلها ، وتموت وتقر في كهف كان

يأوى إليه الانسان المتوحش. وطالما خطر ببالى أن هذا رجل ألهمه الله الحكمة وأطلعته على بعض أسرارهِ فى خلقه فظاهر بالجنون ، إنى أرى طائفة من الافكار الجديدة قد هبطت رومة فتمخضت عن حياة جديدة وعصر جديد ، لقد زعمت منذ سنة أن رومة كانت تتطلب رجوع الملوك وعودة الحكم الشخصى ، ولكنى أرى الآن انها ترفع الصوت يدوى فى الفضاء وتتلس جبارا طاغية يقضى على الحياة القديمة ؛ حتى لا يتوارى منها شئ .

لقد تغيرت رومة فصارت فى الحقيقة مثلاً للقوة (الديموقراطية) تحاول القضاء على كل القوانين القديمة التى أكل الدهر عليها وشرب ، واتسعت مسافة الخلف بينها وبين الحياة ، أما فى الظاهر فلا تزال كما كانت قبلاً - مدينة لا تكفى سوى نفر قليل من العطاء ، وسوقا يبيع العامة فيها أرواحهم ، رغبة الحصول على قوت يومهم ؛ واجسامهم طمعا فيما قد يصيرون من السلب والنهب والمغانم الكثيرة ، لا بد أن يمنح الشعب سلطة كبيرة .

لوسيس : (بدھشة) لقد سلخت اربعين عاما من عمرى فى القضاء على الديموقراطية ، فلا معنى اذن لمنح الشعب ما يريد من القوة والسيطرة .
بومبي : نجحت فى قمع الثورات ولا بد من إزالة أسبابها الآن وحدوث تغير عظيم وإصلاح كبير .

(يدخل ميتلس ودوميتيس ولتولس)

لوسيس : (يقدم ورقة) هذا هو تقريرى (يحى ثم يذهب ويقف عند الباب قليلا ناظرا إلى الخارج) إنهم يموتون كالذباب ، والجثث لا تزال تحترق (يتخفى)

(يجلس القواد أمام بومبي وجها لوجه)

ميتلس : اختصنى قيصر برسالة يرجونى فيها أن أسألك عن شروط الصلح ، فرددتها إليه من غير تعليق عليها ، انتهت الحرب غير أننا لسنا آمنين

على أنفسنا إلى الآن ؛ لهذا يجب علينا أن نملأ الحصون والثكنات
في كل الجهات برجال نوليهم ثقتنا ونعتمد عليهم في الدفاع عنا ، ولقد
اتفقنا فيما بيننا على من يتولى أمر أسبانيا وبلاد الغال ، ولكن
الوظائف الثانوية لم تتفق فيها على شيء الى الآن انتظارا لمشورتك ،
ولعلك تعنى بأمر تيوديتانس الذي فكرت في إرساله نائبا عني في آسيا
يومي : أذلك هو الرجل الجندى الذي أبلى بلاء حسناً تحت قيادتك ؟
(يخاطب دوميتيس)

دوميتيس : لا . هو ابن أخيه

ميتلس : هو ضابط حدث في أركان الحرب .

يومي : أترأه كفتا لهذا المنصب ؟ وهل تسمح له تربيته وتؤهله لأن
يكون رئيس القضاة ؟

ميتلس : لا ، إذا تكلمنا من الجهة الفنية ، ولكنه كان من أنفع الناس لي في
آسيا ، وهو ذو مقدرة عملية

يومي : كيف نفعل ؟ وبأى وسيلة ؟

ميتلس : في جباية الخراج ، حينما أراد العامة أن يماطلوا ، وان يخرجوا من تحت
أيدينا ، حتى يأتي اليهم قيصر ، ولولا ما اظهر من حسن التصرف
والحزم ، لخلت خزائنا من المال ،

يومي : هذا حسن ، ولكن رئيس القضاة يمثل روما ، ويحمل تبعه كبرى
ويحكم بين الخصمين ، ويسوى بينهما في مجلسه ، ويحافظ على القانون
ويقيم العدل بين الناس ويجب ان يتعلم مهام وظيفته ، ولكن قل لي
ماذا فعل فضلا عن جميع الضرائب حتى تضرب بالقانون عرض
الحائط ، ونعيته رئيس القضاة ؟

ميتلس : إن والده قد ضحى بكثير في سبيلنا ، وهو شاب ذكي الفؤاد ، مملوء
بالإخلاص ، ويجب علينا أن نساعد في أمره ، وإني أوصيك به خيراً

يومي : إن حسن رأيك فيه سيكون خير مساعد له ، هل أظهر كفاية في

الإدارة ، ودهاء في القيادة ، وصبراً جميلاً في ميادين القتال ؟

دوميتيس : كان في فرقة الفرسان مدة من الزمن .

بومي : ولكن أتى لك أن تثق به وتحسن رأيك فيه ؟

ميتلس : لا تبحت في هذا ؛ لأنني أسير على مقتضى القاعدة ، وهي أن أصدقاءنا يجب أن يكافئوا .

بومي : رئيس القضاة عظيم السلطان ، ولا بد أن يتعلم واجبه قبل استحقاق مركزه .

لينتولس : هل لك في أن تراه قبل أن ترده خائباً . ان ميتلس ودوميتيس لا يمدحانه إلا لسبب خطير .

بومي : لا بد من سبب معقول ، وإلا كان عملنا محاباة لا تتفق مع القانون وربما كان من نتائجها حصول حرب وثورة على الحدود . لا يسعني أن أعينه رئيس القضاة .

ميتلس : بومي ، ينبغي أن تذكر أنه أحد الأفراد الذين يحق لهم أن ينتظروا منا الوظائف

بومي : إن السلم سيظهر مقدرتهم وكفايتهم ، وهناك آخرون مع قيصر ؛ يحق لهم كذلك أن يتقلدوا بعض المناصب (ينظر القواد بعضهم إلى بعض ويتنفسون الصعداء)

دوميتيس : هناك شيء آخر ، إنا ذاهبون إلى روما وهي في حالة اضطراب وثورة ويجب أن نأمن على أنفسنا من خطر الأعداء ، ولذلك أسألك محاكمة كل رجل له بين الناس منزلة في روما ولو بقي على الحياد ، لأن الثائرين إن أذنبوا بالخروج عن السلطة ، فإن المحايدين قد أهملوها ولم يعبئوا بها ، وكلا الفريقين يجب أن يناله منا العقاب ، حتى نستأصل جذور الثورة (يعطيه قائمة)

في هذه أسماء أربعائة رجل ممن ساعدوا على إشعال نار الثورة ، وليس هناك مجال لمحاكمتهم ، ومناقشتهم الحساب ، بل يجب أن يقتلوا

يومي : كلا ، إن الحرب تنتهى حينما يخضع قيصر ، ولا أسمح لأحد ما بالانتقام
إن روما يجب أن تكون ساكنة هادئة مطمئنة

لينتولس : هل لك فى أن تبين لنا الخطة التى ستسير عليها فى حكمروما حينما ترجع ؟
ميتلس : (بهدوء) سيكون هناك عفو عام عن جميع الجرائم التى ارتكبت ؟

يومي : نعم

دوميتيس : أتعفو عن هؤلاء الثائرين ؟

يومي : إذا خضعوا

لينتولس : هل تسمح لهم ؟ ساعدتنا فى الإصلاح ؟

يومي : إن السلطة محصورة فى عدد قليل من الأيدى ، ويجب أن يحدث تغيير
فى روما وطرائق حكمها ، وإنى أؤثر أن يكون هؤلاء الأربعمئة ،
الذين تسميهم عصاة ثائرين - من أعضاء السناتو حتى يساعدونا على
إدخال الإصلاح مع الحزم والحكمة .

دوميتيس : هناك طريق واحد لا غير فى جعل روما هادئة مطمئنة ، ذلك بأن يقبض
الإنسان عليها بيد من حديد .

لينتولس : إن العفو عن هؤلاء العصاة سيحلنا محلنا الأول الذى كنا فيه قبل
الحرب ، وسيغضنا العامة ويسخرون منا ، ونكون فى خطر منهم ،
وعرضة لضياح أملا كنا ، وفقد امتيازاتنا تدريجاً ، وإنى أقدم اليك
أن تفكر فى هذه الاقتراحات ، وتنظر فيها بعين الحكمة والحزم ،
وترى أثرها ونتائجها فى حزب الأشراف ومستقبل البلاد

يومي : أى مستقبل تنتظر بعد مذبحه كهذه ، ثورة عامة فى جميع الجهات

سأرجع إلى روما وعلم السلام يبدى ، يرفرف على كل رجل من أعدائنا
وأصدقائنا على السواء .

لينتولس : قبل أن ترجع بسلام يجب أن تضع حداً للحرب ، وقد وصل إلى
رسائل من روما وصوت الشعب هناك ينادى جبهة بأن الحرب قد
طالت مدتها ، وإنا نخاف قيصر وجنوده ، ونخشى الغلب إذا عجلنا

بالموقعة، وهذه روح خطرة فى مدينة تتولى حكمها بعد قليل . هذه الروح لا يذهبها إلا نجاحنا نجاحاً باهراً فى هذه الحرب، يجب أن نرجع منصورين، ولهذا أتقدم إليك بأن تأمر بموقعة يكون فيها لنا النصر .

ميتلس : لقد سألتنا ذلك من قبل فلم نلق منك آذاناً صاغية، ولكننا نكرر السؤال ونعيده عليك الآن . إن جميع ما فى خزانتنا من المال قد قرب أن ينفد، وليس هناك من طريق للحصول على الذهب والفضة، فالبلاد فى فقر مدقع، وحالة الناس تستدعى الأسى، وطريقتك السلبية - طريقة الانتظار والتأجيل - أنزلت من قيمتنا لدى العامة . ليس فى استطاعتنا البقاء فى الميدان شهراً آخر، فيجب أن ننادى فى الجند : « الغارة الغارة »

يومى : قيصر لا يستطيع البقاء فى الميدان أسبوعاً .

دوميتيس : سيستمر قيصر يوماً بعد يوم، حتى ينضج القمح الذى بدأ صلاحه وسيحصد بعد أيام قلائل، وعندئذ يجمع رجاله الذخيرة والزاد، ويتمكنون من المقاومة والبقاء فى ميادين الوغى زمناً طويلاً، مع أن فى استطاعتى الآن القضاء على جيوش هذا الخارج بطائفة من الفرسان .

يومى : يمكننى أن أحطم قوته من غير مخاطرة برجل واحد، ولا إلقاء بنفسى إلى تهلكة . أنا لا أبتدىء الحرب، وينبغى أن تشكروا الله على أن هياً لنا أسباب القضاء على هذه الفتنة الشعواء من غير سفك للدماء .

(يقف القواد)

دوميتيس : أنت أكبرنا سناً ياليتولس

ليتولس : ولكنك محبوب لدى العامة، فلم لا تصارحه القول ؟

ميتلس : سأفعل ذلك، وأكفيكما مئونة الكلام، ولى من حسبي وصلتى به خير شفيح .

يومى : فيم تريدون الكلام ؟

ميتلس : إنك مغرم بالسيطرة ، مولع بحب الرياسة ، وليس أدل على ذلك من إهمالك في الحرب ، وعدم وضع حد لها . وها هي ذى قد انتهت وانقضت معها قيادتك ، إنك تحاول الآن أن تكون لك القيادة دائماً ، وأن تحمل السناتو على النزول عند إرادتك ، والخضوع لإشارتك ، ولا شك أن ذلك خطر كبير يهدد الجمهورية ، ولهذا اضطررنا لدعوة السناتو للاجتماع حتى يتناقش الأعضاء فيما ينبغي اتباعه في الظروف الحاضرة ، ولقد وافق على تعيين تيوديتانس وعلى هذا الكشف وأصدر أمره لك بمحاربة قيصر ومناجزته الغارة (يعطيه ورقة . يمشى يومياً قليلاً ثم يقف بجانب منضد ويواجه القواد)

يومياً : ماذا تنتظرون مني أيها الآباء المجددون ؟ أنتظرون أن أرفض هذه الأوامر ؟ إن في استطاعتي ذلك ، ولو كنت قيصر أو واحداً منكم لفعلت ، ولجأت إلى القوة ، وحملت الجند على الانتقام من السناتو ، الذي أهانتني ، ونال من شرفي ، وخط من كرامتي عند الشعب ، ولكن العهود العسكرية التي أخذتها على نفسي تمنع يومياً الكبير من ذلك ؛ إن الموت مع الكرامة أهون لدى من فقدان الذمة ، على أني لو مت فإن روما ستقع فريسة لطائفة من الرجال الذين لا عهد لهم ، ولا يتقيدون بقانون ، ولا يثبتون على مبدأ . لم يبق لروما من أمل في ذلك المستقبل الذي كانت تنشده وتطلع إليه . لقد انتهت عظمتها ، وستوالى عليها المصائب .

وما منعكم عن أن تنزلوا منزل الذلة والخضوع والاستكانة يباب قيصر إلا يومياً هذا ، الذي خرجتم عليه ، وكدتم له في الخفاء ، بعد أن خلص روما ، ونجهاها من قيصر وجنوده ، وها هي ذى تمد إليكم يداً للأخذ بناصرها ، وانتشالها من مخالب الخراب العاجل ، الذي دفعتم بها إليه ، وجعتموني وسيلة له ، وما أولاكم بأن تحاربوا في

سبيلها أولا ، وتخطروا بحياتكم عسى أن تحتفى ذنوبكم وتلبسوا ثوبا
من الكرامة لدى العامة (يدق الجرس)
(يدخل ، ياوره ، الخاص)
أعط الأمر بالتحفز للموقعة
(يخرج)

الآن تم لكم ماتريدون ، وعمّا قليل تنتهى الحرب ، ولكن هل دار
بخلدكم أنكم بعملكم هذا تخربون روما ، مع ما اشتملت عليه من آثار
الآباء والأجداد ، روما مهبط الحضارة ، ومستقر العدل .

إن روما لا تزن عندكم جناح بعوضة ؛ فقد عميت قلوبكم ، وعلت
الغشاوة أبصاركم ، واستسلمتم لما اشتملت عليه نفوسكم من العداوة
والبغضاء والطمع والكبرياء .

كانت روما منذ زمن قليل سوقا تجارية ، يحكمها نفر من الزارعين
ولكن أوروبا الآن تدين لها وتخضع لحكمها .

استمرت الحرب الأهلية أربعين عاما ، وعم القلق ، وساد
الاضطراب ، وجاهد الشعب فى سبيل الحرية

(ضوضاء فى الخارج وأصوات الضباط يلقون الأوامر على فرقهم
بالاستعداد للمسير ، ومناجزة قصر الحرب . تنفخ الأبواق)
منذ خمس دقائق كان مستقبل روما فى يدي . أصوره كيف شئت
وكنت عقدت العزيمة على خلاصها من يد كل جبار عنيد .

هذا هو وقت خلاصها ، فاربوا فى سبيلها وفكوا أغلالها ،
وحلوا قيودها ، واجعلوا لها بين السما كين منزلة ، حتى ينسى الناس
ذكر أثينا ، وما شاده اليونان قبلكم ،

أنكم تفضون عليها بذلك ، وستتبعون شهواتكم ومطامعكم ،
وترجعون بها القهقرى ، وتؤخرونها ثلاثمائة سنة

استمروا فى أعمالكم وخربوها أو تموتوا ، وسواء عليكم أغلبتم أم

نال منكم عدوكم ، إن روما قد انتهت ، سكوت ،
« أوامر عسكرية تلقى في الخارج . وقع أقدام الجند في سيرهم »

دوميتيس : هل عندك أوامر أخرى ؟

پومي : طالما تميتم لو حاربتم هذه الموقعة ، وهما هي ذى الحرب قد جدت بكم
فجدوا ، وأحرقوا بنارها هذه الحيوانات الضارية - لقد كان في
استطاعتي أن أقتلهم جوعا كما تموت الوحوش .

(يخرج القواد بهدوء أما پومي فيقف بجانب المنضدة ويدخل فيلب
فلا ينظر إليه . تسمع نغمت المزامير أمام الجند تشجعهم على المسير)

فيلب : هل من حاجة يا مولاي ؟

پومي : (يلتفت) هل تغني يا فيلب ؟

فيلب : أغني يا مولاي ؟

پومي : بنعم . ألا تذكر تلك الأغنية التي غنيتها ذات ليلة في الحروب الآسيوية

حينما تم لنا النصر ؟ لقد كانت تدور حول الفناء ، ونهاية جميع الأشياء

فيلب : (شاكا) لست أدري إن كنت أستطيع ذلك يا مولاي ؟

پومي : غن يا فيلب

فيلب : سمعا وطاعة يا مولاي

ينشد

يا ليل قد نام الشجي ولم ينم جنح الدجنة نجمها المسهار
إن كانت الخضراء روضا ناضرا فلفل زهر نجومها أزهار
والناس مثل النبت يظهره الحيا ويكون أول هلكة الأظهار
والجهل أغلب غير علم أننا نفنى ويبقى الواحد القهار
« تنزل الستارة »

شكسبير وقس بن ساعدة الايادى

بقلم طه عبر الفناح

المدرس الأول للغة العربية بينها الثانوية

كنت أجيل النظر فى كتاب « الكنز الذهبى » ، Golden Treasury ، وهو كتاب إنجليزى ، جامع لطائفة كبيرة من المختارات الشعرية الانجليزية ، التى انتخبت من كلام فطاحل الشعراء فى عصور الأدب المختلفة ؛ فعثرت على قصيدة من قصائد شكسبير ، وقف عندها النظر ، لا وقفة الاستحسان والاعجاب بها ؛ فإن ذلك الاستحسان كان موجوداً ، ولكن لم يكن هو الذى أوقف نظرى . بل الذى أوقف نظرى أنى شعرت كأنى فى سوق عكاظ أصغى إلى قس بن ساعدة الايادى وهو على بعيره الأوزق ينشد القوم آياته المشهورة ، التى أنشأها فى ختام خطبته المعروفة ، تلك الخطبة التى نظرفها إلى مشاهد الكون نظرة اعتبار وموعظة . أذكرتنى قصيدة شكسبير آيات الايادى ، لأنه نهج طريق أسلوبه ، وإن اختلف اللسانان . فأحببت أن أترجم للسادة الكرام القارئى قصيدة شكسبير ، وأن أنظم الترجمة شعراً ؛ وآثرت أن أصوغها فى البحر والقافية اللذين آثرهما الايادى ؛ لأزيد التشابه بين الشعرين قوة وجلال .

وسأعرض قصيدة شكسبير مترجمة ، بعد عرض آيات قس ؛ ثم أتبع ذلك بقليل من الموازنة بين الكلامين والشاعرين .

قطعة قس بن ساعدة

فى الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد اللوت ليس لها مصادر
ورأيت قوى نحوها تمضى : الأكابر والأصاغر

لا يرجع الماضي إلـى ولا من الباقيـن غابر^(١)
أيقنت أنى لا محالة حيث صار القوم صائر^(٢)
قصيدة شكسبير
الدهر والحب^(٣)

— ١ —

لما رأيت الدهر طاح بما بنى العُصُرُ الغَوَايرُ
يَدٌ مُدْمِرَةٌ لما قد شيدته من المفاخرِ
دكَّ البروج الشاخنا ت فأصبحت ديمناً دوائرِ
وأهاب بالعادي من شبه قلبى وهو صاغر^(٤)

ورأيت جيش اللج يفتك بالجدالة وهو ثائر^(١)
يتر من جنباتها غنماً ويسط حكم ظافر
والأرض دائبة لها فى صولها جهد المشاير
تسطو على اللجى خـرزة لريح منه واغر
إن يفتنم تغرم، وإن تصب المكاسب فهو خاسر

(١) بمعنى باق. وقد أتى بمعنى ماض

(٢) العنوان بالإنجليزية : Zime Ans Love وكلمة love تطلق على الحب بضم
الحاء وهو المحبة والعشق ، وعلى الحب بكسر الحاء وهو المحبوب ، وسياق القصيدة
صالح لإرادة أى معنى منهما .

(٣) الشبه والشبهان : النحاس الأصفر ، والظاهر أن التمثيل به دون سائر المعادن
لأن بعض الغابرين استعمله فيما خلف من آثار ، لطول تحمله وبقائه .

(٤) الجدالة الأرض

ورأيت زهرة دولة ترنو لبهجتها النواظر
لبشت تداول بين ذى حظّ وذى نحس مغادر
ولربما وهنت فدا رت باليلى فيها الدوائر

ألقى الدمار علىّ در ساء أن أفكر فى المصاير
وعلمت أن سيمدّ جا رحة تروع من تبادر^(١)
فتبزق حنى وذا ماصرت من دهرى أحاذر
وعلمت أن يد البلى كالموت يخطف من يساور
لا يتبقى أحداً فيجتاح الأكابر والأصاغر

- ٢ -

دانت له صمّ الصفا وعنا له يئس^(٢) وزاخر^(٢)
وأطاعه الشبهان لينس على توقيه بقادر
أنى يقاومه الجمال إذا فتعدوه المخاطر
والحسن ليس بفاضل فى بأسه غصّ الأزاهر؟

أنى لمسول النسيم وقد سرى حلول المناشر
أن يتغنى سبل السلامة والزمان له محاصر
حقته بالهلكات آية ام مدمرة قواير
أعيت جليد الصخر وهو كعهده صلب المكابر
وسمت على القولاذ فهو إزاءها فى البأس خائر؟

(١) الجارحة اليد

(٢) صم الصفا : الحجارة الصلبة . عنا : خضع . زاخر : بحر

وَيَلْنِي ! فَلَكَ هَوَاجِسُ تَسْرَى فَرْتَاعِ الْخَوَاطِرُ
 آه ! فَأَيْنَ عَنِ الزَّمَانِ وَكَنْزُهُ بِالذَّرِّ عَامِرُ
 تَكْتَنُ لَوْلُوهُ يَرَا هَا عِنْدَهُ أَسْنَى الذَّخَائِرُ؟
 بَلْ مَنْ لَهْ فِي النَّاسِ كَفَّ فَتَبَاسُهَا فِي الْقَبْضِ قَاهِرُ
 تَعْتَاقُ رَجُلَ الدَّهْرِ وَهْ وَبَهَا إِلَى التَّدْمِيرِ بَاكِرُ؟
 بَلْ مَنْ يَصُونُ الْحَسَنَ عَنْ فَتَكَاتِ أَيْدِيهِ الْجَوَائِرُ؟

يَا حَسْرَتَا ! مَا فِي الْوَرَى أَحَدٌ لَصَرَفِ الدَّهْرِ حَاطِرُ
 لَوْ كَانَ فِي الْمَعْقُولِ أَوْ فِي مُكْنَةِ الْأَمْرِ الْمَيَاسِرُ
 أَنْ يَسْتَمِرَّ الْحُبُّ يُشْرِقُ وَهُوَ بِالْأَنْوَارِ زَاهِرُ
 فِي حِينٍ يَغْمُرُهُ مِنَ الْفَسَادِ نَفْسٌ يَلْتَنَجِجُ غَايِرُ (١)
 لَعَدَدَتْ فِي إِمْكَانِنَا أَنْ تَنْقَى شَرُّ الْأَدَاهِرُ

أليس ذلك عجبا؟ وكيف لا يعجب من يرى الضدين يجتمعان فيأتلفان؟
 رجلان امتزج شعورهما، وعقلهما، ومنطقهما؛ حتى كأنهما نفس واحدة،
 ذات شعور واحد، وعقل واحد، وتفكير واحد؛ على الرغم من سعة البون،
 وتشعب وجوه الاختلاف بينهما. أما قس فهو سامي الجنس. عربي الشعب،
 من القاطنين بالأصقاع الحارة الصحراوية، ذات الجو اللافتح، والشمس
 المشرقة المحرقة، والسما الصافية، كان يعيش في القرن السادس الميلادي؛ في بلاد
 بدوية، يسيطر عليها نظام القبيلة، ولا أثر فيها للحضارة والمدنية، ولا لدراسة
 العلوم وبث الثقافة، فلم تكن له مدرسة يلقي فيها عليه إلا حوادث الدهر تصقل
 قلبه، ومشاهد الكون تبهر له، بما زانها به الباري المصور، من جمال فائق،
 ونظام رائع، وحكمة مبصرة.

(١) النفس اليلنجوجي: الحبر الأسود.

وأما شكسبير فهو آرى انجليزى من القاطنين بالجهات التى يغلب عليها البرد القارس ، وتعلوها السماء الكدرة المكسوة بالغمام ، كان يعيش فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وقد تمتع بما لم يتمتع بمثله قس من الحياة فى ظل حضارة نامية ، وثقافة واسعة ، ودولة قوية منتظمة .

ولكن ذلك ليس بعجيب ، إذا نظرنا إلى أن الطبيعة البشرية لا يختلف الناس فى جوهرها ، وإن اختلفوا فيما يصطبغ به ذلك الجوهر من ألوان تصطنعها المؤثرات الخارجية المتباينة . فللنفوس الإنسانية صفات تشترك فيها ، كما تشترك الأجسام فى كثير من صفاتها الجسمية ، فالشعور المطلق مشترك ، والمنطق العقلى مشترك وأسلوب التعبير عن ذلك المنطق مشترك ، فإذا سلبت النفوس من العلل التى تؤثر فى تلك الصفات رأيت مظاهرها متشاكلة متشابهة .

فاتفاق هذين الشاعرين فى شعورهما وتفكيرهما وأسلوبهما إن هو إلا مظهر من مظاهر تلك الفطرة الإنسانية الجوهرية المشتركة التى صار بها الإنسان إنسانا مميزا مما عداه .

أحب قس أن يعرف مصير حياته التى يحرص عليها ، ويشغف بها ، وأحب شكسبير أن يعرف مصير محبوبه ، ومآل ما أولع به فؤاده ، وما ملك لبه من الحياة والجمال ، فكان ذلك مظهر التشابه فى الأحساس .

وكما اتفق الشاعران فى الإحساس اتفقا فى التفكير وطريقته ؛ فقد سار كل منهما من المحس المشاهد إلى النتيجة التى استنبطها ؛ سالكا فى ذلك سبيل التبع والاستقراء .

واتفقا فى تلك النتيجة ، وحكم كل منهما بأن مصير من تعلق به وحرص عليه الفناء .

واتفقا فى أسلوب التعبير عند ما أرادا أن يبرزوا ماعرفا من الحكم ومقدماته فى صورة من الكلام . فإذا أغفلت البيت الأول من كلمة قس رأيت هذه القطعة لا تزيد على جملة شرطية بدأها الشاعر بأداة الشرط (لَمَّا) ، وعطف على فعل الشرط ما أراد إلى أن انتهى دور الاستقراء فأنهى العطف بذكر الجواب . وكذلك

سار شكسير في النبذ الأول من قصيدته ، كأنما كان ينظر إلى مارسم قس ويحاكيه في الأسلوب محاكاة دقيقة .

ويعتاز قس بالسبق إلى الفكرة وإلباسها هذا اللباس المنطقي ، في صورة شعرية رائعة ، تلتصق بشعور كل إنسان ، وتتصل بمواطن التفكير فيه . وهنا تعرض للعقل فكرة لا يمكنه مقاومتها سواء أكانت صائبة أم طائشة . فمن ذا الذي يحول بين العقل وبين أن يقول : إن شكسير متأخر في الزمن عن اليايادي ، فربما وصل إليه شيء من الأدب العربي مترجما إلى الانجليزية : إما عن العربية بوساطة من أخذ العلم والأدب عن عرب الأندلس من الانجليز ، وإما عن لغات أخرى كالإيطالية وغيرها من اللغات الأوربية التي رحل أبناؤها إلى الأندلس أيام ازدهار دولة العرب بها . قد يكون ذلك الخاطر صادقا فيضاف بذلك إلى قس فضل جديد : وهو فضل أستاذه لشكسير . وقد يكون وهما محضا ، فيخص قس بفضل السبق ، وتكون مشاركة شكسير له في الفكرة وتصويرها صورة عجبية من صور توارد الخواطر .

ويجمل أن نشير إلى مبلغ تأثير البيئات المختلفة في كلام الشعارين ، متوخين في ذلك سبيل الإيجاز والاختصار ، والاكتفاء بالمثل القليلة .

حين نقرأ في قطعة اليايادي : المصادر ، الموارد ، قومي . يسرع إلى أذهاننا كثير من صفات الخصائص البدوية الصحراوية ، كورود الابل الى الآبار ، وصدورها عنها بعد الشرب ، وكنظام القبيلة الذي يقسم الأمة الواحدة الى أقوام تنسى الأفراد صلتهم العامة بأمتهم ، وتقوى في نفوسهم ذكر الصلة الخاصة بالقوم ، حتى إن قسالم يكذب يتجاوز استقراؤه أبناء قومه .

أما شكسير فترى في دقة معانيه ، وفي ترتيب فكره ، وتنسيق خياله ، صورة ناطقة للحصافة العقلية التي كانت من جهة مظهر العبقرية الخاصة ، ومن جهة أخرى ثمرة الثقافة القويمة المنتجة .

وترى في ذكر البروج وعفائها ، وسبائك الشبه ودثورها ، آية التأثير بما في البلاد المدنية التي تحوى من وسائل القوة والذكرى ما لا يراه اليايادي في بلاده البدوية .

وتشاهد في ذلك وفي حديثه عن العصر الخوالى ما يدل على تأثره بدراسة التاريخ، كما ترى في تصوير التنازع بين البحر والبر أثر ما تعلم من علم الجغرافية الطبيعية. أما تأثره بالحياة السياسية فيبدو جليا واضحا عندما عرض لذكر الدولة وتعاقب الحاكمين عليها، وأنها قد يسطو عليها الضعف فيسرع إليها الانحلال والفناء. ثم انظر إليه لا يقف عند ما وقف عنده الإيادى من معرفة المصير الذى يصير إليه، بل يتجاوز ذلك إلى الحكم بأن هذا المصير هو الغاية الحتمية لكل مخلوق. وبعد أن رسخ ذلك الحكم في نفسه رسوخا لا مرية فيه أخذ يتحدث عن مبلغ تأثر المخلوقات المختلفة بعيب الدهر؛ جاعلا نواة ذلك البحث محبوبه الذى أغرم به غراما شديدا، ولعل محبوب شكسبير فى القصيدة لم يكن سوى الجمال؛ فإن شكسبير لم يعين محبوبه فى القصيدة تعيينا واضحا، بل جعل الكلام صالحا للانطباق على كل ما يسمى محبوبا، وذلك شأن العبقريين من الحكماء الذين تنزع عقولهم إلى الكليات العامة. ذكر شكسبير الجمال، وأن مقاومته للدهر الذى يتغلب على الأحجار والمعادن والبر والبحر لا بد أن تكون ضعيفة لا تزيد على مقاومة الزهرة الناضرة، وذكر النسيم العليل، وأن مقاومته لما تحاصره به الأيام من تحطيم وتدمير لا تكاد تذكر إذا كانت الصخور على قوتها والقولاذ على متانته تخضع لسطوة الأيام فتدمرها تدميرا.

ثم يشكو شكسبير نزوع نفسه إلى ذلك التفكير المؤلم، ثم يسأل عن القوى التى تستطيع مدافعة الدهر ورد صولته، ثم يجيب عما سأل فيقول: إن ذلك ليس فى وسع مخلوق، وإن اتقاء فتكات الزمان لا يمكن ولا يصح فى حكم العقول إلا إذا صح أن يظل حبه وهو فى المداد الأسحم الحالك مضيئا مشرقا كما كان مشرقا مضيئا من قبل.

إن جل ذلك ما كان ليرى بخاطر قس الایادی، لأن ظروف حياته البدوية لم تكن لتعينه على ذلك، ولو كان قد قسم له أن يحيا مثل حياة شكسبير لربما جراه فى المضمار، وربما حاز قصب السبق.

من الأدب العربي

الشاعر المحتضر

للأمارتين شاعر الحب والجمال

تقدمة :

الفونس لامارتين شاعر فرنسي عاش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وقد عرف في حياته بالرأى الجمهوري فكتب كثيرا في نقد النظم الاجتماعية وأساليب الحكم مما أدى الى الأخذ برأيه فقامت في فرنسا الحكومة المؤقتة عقب انهيار امبراطورية نابليون الثالث وكان هو عضوا فيها فأدى لفرنسا أجل الخدمات .

ويعدده الفرنسيون سياسيا مخنكا ، وشاعرا عظيما عرف بالتحليل النفسى العميق الذى ضمنه مؤلفاته العدة شعرا وثورا ، وكان مشغوقا بتتبع التاريخ فى انجلترا حتى اعتقد أنه مدرسة لأعداد كبار الساسة فى العالم . كما كان متصلا بتاريخ الأدب فيها فنقد الطريقة الكلاسيكية ، التى عنيت بالطبقة الظاهرة من الانسان ولم تعد هيئته الشكلية ، وأوجد الطريقة الرومانتيكية ، التى بحثت فى الانسان وحللت غرائزه وميوله ، وصورت نزعاته النفسية ، ودرست مواهبه فى صور فلسفية دقيقة .

وفى قصيدته « الشاعر المحتضر » التى نشرت طرفا منها فى هذا العدد ، يرى القارىء فيها تجمع الشاعر على نفسه وتصوير حساسيته نحو مظاهر الكون فى لحظاته الأخيرة ، وللأستاذ الجليل أحمد حسن الزيات الفضل فى ترجمتها ، هذا الفضل ساعد الشاعر على الانتفاع بها كقصيدة شعرية جديدة بالدراسة والتأمل !

الشاعر المحتضر (١)

للأمارتين شاعر الحب والجمال

بقلم فابر العمروسي

حَظَمَ الدهرُ كأسَ عمرى سريعا وهى ملأى بأمنيات الشباب
فحياى تضرمت زفرات بين يأس وحسرة واكتاب
دَقَّ ناقوسُ ساعتى فى بكاء بجناح الفناء يغنى طلابى
ليت شعرى، أأضطلى فى نواحى أم أغنى، ولست أدري مآبى

سَأَغْنِي إِذَا الْأَنَامِلُ ظَلَّتْ بخايا القيثار تشدو بلحنى
إِنَّ رَبَّ الْمُنُونِ يُلْهِمُ نَفْسِي أغنيات وهبها سرّ فنى ؟
أَغْنِيَاتُ هِيَ التَّوَانِي الْبَوَاقِ فى حياى، وهن آخر لحنى
أَغْنِيَاتُ كَبَجَجَةٍ، الْجَوْ تَرْمِي فتوالى أُنَيْنَهَا فى تَأَنٍ
وَإِذَا النَّفْسُ لَمْ تَكُنْ غَيْرَ حُبِّ وَعَذَابٍ تَنَالُ يُمْنَاهُ مَنِي
فَجَدِيرُ بِهَا كَرِيمٌ وَدَاعٍ قُدْسِي يَزِفُ لَحْنَ التَّغْنِي

حِينَ يَعْرِوُ الْقَيْثَارُ أَصْدَاءَ كَسْرِ يبعث اللّحن فى جميل الغناء
أَوْ خَبَا فِي الصَّبَاحِ لَمَعُ شُعَاعٍ يرسلُ النور فى بهى الضياء
وَإِذَا الطَّيْرُ شَيَّعَ الرُّوحَ قَصْرًا أرسلَ الطرف فى فضاء السماء
غَيْرَ أَنَّ الْإِنْسَانَ حِينَ يُوْفَى نزهة العمر فى ظلال الرخاء
يَرْجِعُ الطَّرْفَ بِأَكْيَا مَا تَقْضَى من نعيم ، وما مضى من رجاء

أى شيء نرومه من حياة شغلنا في يقظة ومنام
تشرق الشمس ساعة ثم يطوى ذلك الضوء تحت ستر القتام
لحظة تنقضى وأخرى توافى وهى مثل التى مَضَتْ في المقام
صور تجتلى ، فذاك جهاد سوف يُتلى براحة وسلام
بينما نحن في عذاب أليم فاذا نحن في مُنى الأحلام
ذاك يوم الحياة يظهر حيناً ثم يطويه ليله في الظلام

يا حياة ييك من كان يهفو لك حرصاً وللحطام حيناً
ثم ضاعت آماله وتولى لم يصادف من الأمان نصيباً
لست أبكى على الحياة إذا ما راعى الموت فاحتوانى غريباً
إننى أترك الحياة رضاء وسروراً ، منعماً وطروباً
إن جذرى في التراب منها ضعيف كجذور النبات رخواً رطياً
كلما هبَّ نحوها ريح ليل قلعنها وصيرتها هبوباً

يشبه الشاعرُ الطيورَ الهوائى لا تقسمُ الأعشاشُ فوق الغُصون
أو تروّد البحارَ حول ضفافٍ وهى ملأى بناظرات العيون
حظّها في الوجود ان تهادى في فسيح الفضاء فوق الحُزون
تنشد اللحن من بعيد فيسرى في نواحي الآفاق حلّو الرنين
ليس يدرى الأنام ما تحتويه غير سجع من لحنها المحزون

لم تدرب يدى في عزف لحنى يدُ مخلوقٍ تحتوى لحنَ نفسى
إن هذى الألحان من فيض ربى كيف أرسلتها بصنعة إنسى
فجارى الحياة تجرى سراعاً في مهادر التراب من غير لمس
وطيور الفضاء لم تتعلم أن تشق الهواء صباحاً وأمس
وكذا النحل لم يعلمه علم كيف يحنى الشفاء من روض أنسى

ورنينُ الناقوس في يومٍ بُشِرَى كرينِ الناقوس في يومٍ حزنٍ
فتراه ينوح أنا ، وأنا يرسلُ الشدو في غناءٍ ولحنٍ
أنا ذاك الناقوس شدوا ولحناً أنا منه في لحنه وهو مني
طهرتني الآلام حتى كَأني كُنْتُ إذ براه لَفَحُ التَّشَنَّى
وتهيجُ الأوتارُ أوتارَ قلبي فأغنى بلحنها ، وأغنى
كل حُرٍّ له غناءٌ بنفسِي آهة الحزن غيرُ لحنِ التجنِّي

أنا قيثارة تبيتُ تغني في دُجى الليل تحت عزف النسيم
تمزج اللحن بالحرير فيسرى ذلك اللحنُ في حنانٍ رخيمٍ
شدَّ ما يدهش السميعُ فيرو واقفاً في تحيرٍ ووجومٍ
معجباً في تمايلٍ وانتشاء كانتشاء النهى بينت الكروم
ليس يدري ، أذلك الصوتُ لحن أم نواح من الفؤاد الكلم

ذاك لحنِي قد أخضلته دموعي ودموع الجفون للبرء صعب
ان دمع الجفون للقلب طهر كدموع السحاب للأرض خصب
ما رأينا القلوب تحنو فتسمو حيث ماء العيون قفر وجذبُ
فعصير الكروم في الكأس يسرى ان دهم الكأس من صدى الكسر عطب
ونبات الريحان ان جفَّ وجهها وعراه من الكآبة خطب
فشذاه يفوح ان وطئته قدم السارى في الثرى ويهبُ

خلت نفسي نعمة من لبيب عجباً للاقدار تأتى عجيباً
من يرمها ليتقى في حماها أحرقته وصيرته لهيباً
انا أحببت مسرفاً في غرامى ولذا مت من غرامى طروباً

لها بقية

فايد العمروسى

نشيد قومي

مصرنا مصرنا

مهد المعارف والحكم
شعبنا شعبنا شعب الساحة والكرم
مجدنا مجدنا مجد قديم في الأمم
جيشنا جيشنا نحر الغزاة الفاتحين

أرضنا أرضنا أرض النقايس والذهب
وكنوزها فيها العجب
من صنع خوفو والعرب
أوحت لنا السحر المين

هذا تراث جدودنا
يبقى لنا بجهودنا
ومن انتصار جنودنا
بين الجنود الغالين
... ..

مصرنا مصرنا

فالحمد التامى

في الجزيرة

قف بالجزيرة ساعة بين المزارع والحقول
والشمس تبدو للعيون كأنها ذهب صقيل
والروض زاه ضاحك والماء عذب سلسيل
كم منظر مستعذب يشقى من المرض العليل
ولكم شهدت ملاعباً ورأيت ثمة من فصول
الله ما أزهى بنصر روضة حفت بنيل

المرآة

كشافة العيوب للنّاظر اللبيب
لكنكم جلوت نفسي في نورها المشبوب
وكم رأيت منها نصح الأخ الأريب
وكم لها من فضل في حسنى المجلوب
وكم نصحت وجهي أمامها بالطيب
وكم فرحت فيها بشروني القشيب

عيناى تبصرانى من جسمى المكذوب
فأهتدى لعيني وأبتغى تمهيدى
حيت يامرأتى يا حبة القلوب

حمام الزاجل

أنا حمام الزاجل وبهجة المنازل
وطائر رحالة أبلغ الرسالة
ولا أخاف بأسا ولو قتلت النفسا
فعلت في الحروب فعل الفتى اللبيب
وباختراع الطائرة دارت على الدائرة
لكن لي في المجد والرشد أقصى حد

العلم

حي العلم ، حي العلم وابغ الحياة ولا تنم
في كل مصر راية عنوان مجد للأمم
وإذا العدو تقدما وبغى الجلاذ وصمما
ورفعت رايات الحى لم تلق إلا ضعما
أعلامنا بك نختمى مثل المقام وزمزم
ونرود غايات العلا ونقل عزم الأنجم
قم يا قى أذك الهمم وأصعد بمصر إلى القمم
قل إن رأيت بنودها فوق السها : عاش العلم

محمد عبد المنعم سالم

مدرسة سعيد الأول الابتدائية بالاسكندرية

النهر

رأيت النهر يجري وسط الوادي الخصيب
 ورأيت الفلك فيه في شمال وجنوب
 نحمل الأثقال فيها من متاع وجوب
 نزهة في النهر عصرا حينما يدنو الغروب
 ويهب الريح ^(١) رخوا ويفنى العبدليب
 تكسب الجسم نشاطا وتبجي من كرب
 أنت يا نهر جميل وغذاء للقلوب

أحمد أبو النجا

المدرس بالمعلمين بالاسكندرية

(١) الريح مؤنثة ، وقد تذكر على معنى الهواء

كتاب الفن الإسلامى فى مصر

للدكتور زكى محمد حسن

ظهر فى عالم المطبوعات الجزء الأول من كتاب الفن الإسلامى فى مصر للدكتور زكى حسن، الأمين العلى بدار الآثار العربية والمشتدب لتدريس الآداب بالجامعة المصرية . ويعتبر هذا الكتاب باكورة الكتب العربية فى نوعه . فإن من كتب عن الآثار العربية لم يعد تعدادها وتاريخ إنشائها ومساحتها وذكر منشئها والدافع لهم إلى إنشائها، إلى غير ذلك من الأشياء التى لا نسب بينها وبين الفن فى ذاته . ولكن هذا الكتاب تناول مناحى الفن الإسلامى فبحث فى أصولها وما طرأ عليها من تغيير أو ابتكار، وتكلم عن حظ مصر من هذا الفن، وعلاقة ما بها بما فى سواها من الأقطار الإسلامية، وبين أثر أذواق كل قطر فيما سرى لديه من فنون وما ابتكر أو حسنت أوضاعه .

وإذا ذكر أثرأ بعينه جعل ذلك كتطبيق للأصول الفنية السائدة فى عصره، بل لا نبالغ إن قلنا إن الدرس العام الذى يحويه عن الفنون الإسلامية يساعدك إذا رأيت أثرأ أو نقشاً على جدار أو خزف أو آنية على أن ترجعه إلى عصره . والدكتور زكى مثل فذ للشباب النابه علماً وعقلاً، فما كاد يتم دراسته فى نواحى أوربا حتى عكف على الدرس المستقل والانتاج المتواصل، فقد أخرج من قبل كتاباً عن الفنون باللغة الفرنسية، وكتاباً هذا الذى نتحدث عنه، وسيطالعنا منه قريباً إن شاء الله سفر طريف عن التصوير لدى الفرس، بارك الله فى همته وفى صحته، فهى مطية الجهاد العلى، ووفق شبابنا المتعلم إلى الاقتداء به فى الدرس والنفع .

الطغى صمزة

بنيابة الاستاذ

سلسلة

القصص المدرسية

بقلم

سعيد العربيه أمين رويدار محمود زهران

خريجي دار العلوم

إننا نريد التليذ على القراءة إرادة ، و نرغمه إرغاماً ، و ندفعه إليها دفعاً ، لأن الرغبة عنده منقطعة ، و الرضى غير متصل ، لأن موضوع ما يقرؤه جاف ليس فيه ما يعاق به القلب و تهفو إليه النفس .

مساكين أبنائنا و تلاميذنا ، ينصرفون من مدارسهم ولن تحدث واحدا منهم نفسه بأن يمد يده إلى كتاب ، أو يحاول أن يفهم موضوعا من الموضوعات تبعاً لهواه و طواعية لرغبته ، لأن لغتنا على غناها فقيرة من هذا النوع القصصى الشائق الذى يفن فى الحوادث الخيالية أو الحقيقية فيصورها تصويراً دقيقاً و يخالج عليها ثوباً من الرواء يتنقل بين الحوادث المختلفة و كل حادثة تتصل بالآخرى اتصالاً وثيقاً عن قرب أو بعد فتفرغ النفس لها و تتشوف إلى غايتها فيمعن القارىء فى القراءة ويستمر فيها ويستمر استرسالاً لا يصرف نفسه عنها حديث ، ولا رغبة فى لعب ، ولا ميل إلى طعام . و لقد حز فى نفسى أنى شاهدت بعض تلاميذ مصريين بمدرسة فرنسية فى يوم راحتهم ، منكبين على القراءة انكباباً ، ذاهبين فى الاسترسال فيها إلى حد بعيد ، فوقع هذا الميل منهم عندى موقعا قد يكون غريباً إلى حد ما ، فأنا أعلم انصراف تلاميذنا عن القراءة وإعراضهم عنها ، و لقد تبذت من محادثتهم أن مدرستهم تعيرهم يوم الراحة قصصاً يقرؤونها راغبين لاراهبين ، راضين لا مرغمين ، فتمنيت - و كنت أظن بعدما تمت - أن نتاح لتلاميذنا - وبخاصة صغارهم - قصص باللغة العربية السهلة

لا بالمبتذلة الساقطة ، ولا بالجيدة العالية . تبل أو امهم وتنقع غلتهم ، وتجبر نقصا طالما تحدثنا فيه وروينا في القضاء عليه ، حتى طلعت علينا القصص المدرسية فكانت الأمانى . ظهر من هذه السلسلة إلى الآن خمس قصص عرض منشئوها في كل قصة إلى ناحية من نواحي حياتنا المصرية بنهج حللها تحليلا دقيقاً ، وتابع استقصاءها ؛ وتأثر علما وأسبابها ، وجلى في الكشف عن أدوائها ، ينث في ثناياها الحكمة الغالية ويبدث في تضاعيفها الرجولة الحققة ، والوطنية الصادقة ؛ والمثل الصالحة لكرم الأخلاق ، وجميل الخصال ، كل ذلك بعبارة سهلة رقيقة وأسلوب قصصى ممتع ، قد روعى فيه مقتضى الحال كما يقول البلاغيون ، فهم يكتبون للطفل ، وللطفل المصرى الذى أخذ أخلاقه ولغته من يئته المصرية فتعمدوا ألا يغربوا وألا يختاروا الألفاظ الجزلة التى يتهالك الكتاب فى استعمالها والتى يغترف من بحرها أيضا منشئو هذه القصص فى حينها .

وإنما تعمدوا أن تكون قصصهم للأطفال ، وأن تكون بلغة الأطفال ، ولغة الأطفال العامية . ولا سبيل إليها فى تأليف يخرج للناس وتداوله الأيدي . وإنه لمن الصعب على الكاتب البليغ الذى نشأ فى دار العلوم أن يتدلى إلى عقلية الطفل فى تأليفه ، ويتدلى إليه فى لغته وأسلوبه ، ولكن الطبيعة الخصبية ، لمؤلفي القصص ، والسجية اللينة ، والنحيظة السهلة ، قد جعلت منهم على الرغم من تنشئتهم فى بيئات عربية خالصة عميقة ، قصصا أطفال فأتوا بالعجب العاجب الذى تقف عنده نية كل راغب . فكتبوا للأطفال بلغتهم ولكنهم ما تنزلوا إلى نث العامية ؛ ولا ارتفعوا إلى صفوة الفصحى ، بل أخذوا ما صح لفظه وخف جرسه . أخذوا ما يتناوله الطفل فى حديثه . فى لعبه . فى بيته . فى حواراته ولكن ما استعملوه حتى تبنوا صحته ، وتعرفوا عريته . ولقد استقصيت كثيرا من الألفاظ فى المعاجم فما وجدت كلمة واحدة غير صحيحة ، ومع ذلك لم يحرم الطفل من متخير الألفاظ ومتنخل الأساليب وإنه ليتناول القصة فيقرؤها من غير مثونة ولا كد ذهن ، ولا جهد فكر ولا إعانات روية ولا إرهاق خاطر فأشكر الله لهم على هذا التوفيق .

ولقد حاول كثير من غير أبناء دار العلوم أن يحاكوا الغرب في القصة فترجموا وألقوا ولكن ما بلغت قصصهم من نفس الطفل ما بلغت قصصنا ولولا الخروج عن الموضوع لما يئلتها مائلة وعقدت بينهما موازنة .

وهنا يصح أن أعلن في ثقة أنه عمل إلى الآن منقطع النظير ، ولينا كذلك أيها القارئ أنى لا أقول ذلك مجاملة لزميل أو محابة لصديق فاسمع ما أقصه عليك :

١ - هذا نادى دار العلوم مفتوح الأبواب ، مضاء الثريات وبعض أعضائه في الردهة جلوس وإذا قادم يستأذن للدخول وإذا به يقدم نفسه بأنه أحد الدليل للسياج وإذا به يطلب الأذن لسائح مستشرق لزيارة النادى ، فنهضنا واستوينا وقوفاً ، واستقبلنا وأحسننا الاستقبال ، ورحبنا وأحسننا الترحيب ، وجاملنا لطف مجاملة وكنا على عادة المصريين كرماء لضيوفنا فإذا بالسائح يتندر السؤال عن مؤلفي القصص المدرسية ويعلن في إعجاب وتقدير أنها الأولى من نوعها الجديد في اللغة العربية ، وكان حديث مع أحد المؤلفين انتهى بأن قدمها له هدية ووعدته بمتابعة إرسالها إليه فشكره وانصرف .

٢ - وهذا تلميذ في السنة الأولى الابتدائية يدخل غلى والده غاضباً حانقاً مكفهر الوجه مقطب الجبين يعلن في شدة وغضب شكواه المرة من تعدى التاجر (كبريان) على عاطف (الزعيم الصغير) في القصة الخامسة ويستعدي والده على (كبريان) انتصاراً لعاطف ، وأخذ بعد ذلك يرى في كل أجنبي (كبريان) ، وأصبح يشتري خلواه ولعبه من المصريين .

٣ - وتلك فتاة تقرأ وتعجب وتستطيب القصص فتنبئ المؤلفين بإعجابها وتقديرها إلا أنها تعتب عليهم إغفال الفتيات فشكروا لها مدحها كما شكروا لها عتبها وكانت عروس البغاء القصة الثالثة

٤ - ثم هؤلاء مدرسون مصريون للغة الانجليزية في مدرسة ابتدائية يبدون إعجابهم ويراسلون المؤلفين طالين السماح لهم بترجمتها إلى اللغة الانجليزية ليتيسر لهم الاتفاغ بها في مادتهم .

فليس بعد ما قدمت زيادة لمستزيد فقد حفل بها الفتى والفتاة ، والطفل والشيخ ، والأجنبي والمصرى .

القصة الأولى

دار فيها الحديث على تلميذين صديقين أحدهما ابن موظف والثاني ابن تاجر وقصد في تصرف الحياة بهما إلى تمكين الميل إلى الأعمال الحرة، وقطع الرغبة في الوظائف، فقد صور ابن الموظف وقد تنكرت له الأيام بفقد أبيه الذي كان لا يدخر من مرتبه شيئاً، فانتقطع عن المدرسة وأصبح خلق الثياب، زرى الهيئة مغضن الوجه، يلح في طاب عمل، ويعم في طرق الأبواب؛ عله يجد ما يقوم بأوده ومعوته إخوته فيلقى شر ما يلقاه طالب، ويتعرض لأشدها يتعرض إليه محروم، وبعد لأي يجد العمل فيفرغ له نفسه وجهده. ويمنحه إخلاصه واستقامته فيقطع عليه الدس الطريق فيشعر بالضيق والحرج فيحدث عن نفسه في القصة. وشعرت أن الوظيفة ذل، وأن الموظف عبد ذليل، عليه أن يطيع كل أمر فإذا خالف طرد من وظيفته؛ وأدركت أنني كنت مخطئاً حين فرحت بالوظيفة وأتيت بعث حريتي بهذه الجنيئات التي أقبضها في كل شهر؛ فاستقلت من وظيفتي من غير أن أفكر في مستقبلي، (ص ٤١) وفي لباقة هيأت له القصة عملاً حراً مثيراً.

هذا إلى الحكم المثورة في ثناياها وإليك منها (ص ٣٠). وكان سعد مشتاقاً إلى الفول من زمان، لكنه كان يعرف القواعد الصحية فلم يلبط بطنه، وأيضاً حيث يقول (ص ٣١) «فرد سعد؛ وإن ذلك يسرنى أكثر، فهل تسمح أن تقابل يوم الأحد؟ فأجاب الشاب: بل يوم الجمعة - إن سمحت - فهو اليوم الذي اخترته لراحتي» ولقد ساروا في جميعها على هذا الدرب فعرضوا في الثانية للصحراء والسودان والآثار مما تنقطع معرفته عند كبارنا بله صغارنا.

وأما الثالثة (عروس البيداء) فقد ضربوا فيها مثلاً درساً قاسياً لفتاة العصر الحاضر المغرورة، فلا هي بربة منزل نافعة، ولا هي بمتعلمة ناهضة، وقد صوروا الأب حاذقاً والزوج حازماً فأتيا بأطيب الثمرات.

أما القصة الرابعة (النهر الذهبي) فقد صورت أثر اقتصاد التليذ في حياته لمستقبله فاتتهى تليذ التبذير إلى أشنع ما ينتهى إليه مبذر، واتتهى تليذ الإقتصاد

إلى أحسن ما ينتهى إليه مقصد . أما الخامسة (الزعيم الصغير) فقد تحدثت عن مركز الأجانب بيننا وابتزازهم لأموالنا في غير هواة ولا رحمة ؛ حتى أصبحنا كما يقولون (غرباء في بلادنا) ثم جردت من عاطف زعيماً قوياً ، وخطيباً وطنياً وكان على يديه أن دالت دولة (كبريان)

هذا وقد لحظت أن القوال استأذن من ربان الباخرة أياما للاستراحة في لندن فأذن له ، فكان عليه حين وفق إلى عمل آخر أن يخطر ويستأذن في إخلاته جزاء وفاقاً على ما قدم له من معونة ومساعدة ، حتى يظهر طفل قصتنا بمظهر اللباقة والكياسة .

وفي (الصياد النائه) رسمت صورة الوحش وليس برجليه الجميزة التي تحدثت عنها القصة بأنها تلتقت برجليه حين هوى إلى الحضيض .

وإن لى رغبة في أن يكون في ثناياها نكات وحوادث مضحكة متداخل بعضها في بعض ؛ ترويحاً للنفس وأن تشمل حوادث تحتاج إلى فتق الفكر وإعمال الروية في استنباط حيل للتخلص من بعض مآزق حرجة ، فتكون بعض الحوادث بعيدة الغور ، وتظهر فيها قوة الحيلة ولباقة التصرف وحدة الذهن ؛ وبعد فإني أهني المؤلفين ، راجياً من الله لهم اطراد التوفيق وحسن المستقبل .

محمود الطنبجي

المدرس بمدرسة الأميرة فوزية الثانوية

استدراك

في حفلة تكريم الأستاذ صالح هاشم عطية

فاتنا في العدد السابق ونحن نصف حفلة تكريم الأستاذ صالح هاشم عطية بمناسبة اختياره مرياً لحضرة صاحب السمو الملكي أمير الصعيد وسفره في حاشيته أن نذكر أن من بين البرقيات التي وصلت إلى لجنة الاحتفال وتليت برقية رقيقة من حضرة الأستاذ مصطفى حسن فهمي مفتش منطقة الاسكندرية يشارك فيها هو وحضرات المفتشين الذين في منطقته اللجنة في تكريم الزميل الفاضل .

صحيفة دار العلوم

فهرس الجزء الثالث من السنة الثانية

الكتاب	الموضوع	صفحة
	من مكتب التحرير	٥
	في الأدب واللغة	
محمود البشيشي المدرس بدار العلوم	اتجاهات الأدب وأهم حواضره	٧
	في العصر العباسي (٣)	
السباعي يوى . . .	حول إعجاز القرآن (٣)	٢١
	دقة الألفاظ وانسجامها	
عبد اللطيف المغربي بمعهد التربية للبنات	أثر الجوارى في الأدب (٢)	٣٠
أحمد الشايب . . . بكتبة الآداب	في النقد الأدبي: الأدب، ماهو؟ (١)	٣٧
غلي التجدي ناضف مفتش المعارف بملوى	المتنبى عند سيف الدولة	٤٨
شاعر الريف محمود حسن استماعيل	تحت زواق الليل (قصيدة)	٦٠
	صفحات مطوية عبد الرحمن زغلول	٦٣
عيسى محمود ناصر المدرس بمدرسة الفيوم	الشيخ عبد المطلب: وصلة حسنة	٦٩
الابتدائية	بين الجديد والقديم (٢)	
مهدي خليل المفتش بوزارة المعارف	طرائف لغوية (٢)	٨١
سابقا		
محمد شفيق معروف المدرس بالمدرسة	فوائد لغوية (٣)	٨٦
السعيدية		
علي الجارم المفتش بوزارة المعارف	درة الشعر: في افتتاح الدورة	٨٩
وعضو مجمع اللغة العربية الملكية	الثالثة لمجمع اللغة العربية الملكية	
المتولى قاسم المدرس بمدرسة محمد علي	عشرات الأقلام (٢)	٩٤
الملكية للبنات		
محمد يوسف المحبوب المدرس بمدرسة	وفيت (قصيدة)	١٠٣
محمد علي الملكية للبنات		
حسن علوان المدرس بالمدرسة الخديوية	ابن ميادة (٢) مدائح وغزله وفنه	١٠٥

الكاتب	الموضوع	صفحة
عبد الحق شرف الدين المدرس بمدرسة المنصورة الثانوية	(قصيدة)	١١٧ ابتى
عبد العزيز سيد الأهل المدرس بمدرسة محمد على الابتدائية	(قصيدة)	١١٩ وأذن في الناس بالحج
عبد الرحمن الكيالى الطالب بدارالعلوم	(قصيدة)	١٢١ المتنبي بعد ألف عام
فرحات عبد الخالق المدرس بمدرسة كوم حمادة	(قصيدة)	١٢٤ الكرامة
على شرف الدين المدرس بمدرسة دمياط الابتدائية للبنين	(قصيدة)	١٢٦ المدياع
عبد الستار سلام المدرس بمدرسة الأميرة فوزية	(قصيدة)	١٢٧ المعلم
	في الفلسفة	
محمد مهدي علام المفتش بوزارة المعارف وعضو المكتب الفني بها	نظرية الوسط في الفضيلة : بين فلاسفة اليونان وفلاسفة المسلمين	١٣٠
الدكتور على العناني الأستاذ بدارالعلوم محمد على مصطفى المفتش بوزارة المعارف	فلسفة ديكرت	١٥٢
طه عبد الفتاح المدرس الأول للغة العربية بمدرسة بنها الثانوية	يومى العظم (٢)	١٦١
	شكسبير وقس بن ساعدة الإيادى	١٨٧
فايد العمروسى	الشاعر المحتضر للامرتين (قصيدة)	١٩٤
	ديوانه للأطفال	
خالد الشامى ناظر مدرسة المعلمين بأسىوط	نشيد قومى	١٩٨
محمد عبد المنعم سالم المدرس بمدرسة سعيد الأول الابتدائية بالاسكندرية	١٩٩ في الجزيرة المرأة	١٩٩
احمد ابو النجا المدرس بمدرسة المعلمين	٢٠٠ خمم الزاجل العلم	٢٠٠
	٢٠١ النهر	٢٠١
	المكتبة العربية	
لطفي حمزة بناية الاستئناف بالقاهرة	٢٠٢ كتاب الفن الإسلامى فى مصر	٢٠٢
محمود الطنخى المدرس بمدرسة الاميرة فوزية	٢٠٣ القصص المدرسية	٢٠٣

الشاعر المطبوع

أبو عبادة البحرى

تفصيل حياته ، دراسة شاعريته ، تحليل أقواله
للسنة الرابعة الثانوية وفق المنهج الجديد

تأليف الأستاذ محمود مصطفى
أستاذ الأدب بكلية اللغة العربية

ترجمة مصورة دقيقة ، فى أسلوب أدبى رائع ، تكشف عن عبقرية
الشاعر الفذ على طريقة من العلم تغنى الباحث المدقق ، و طراز من البيان يروق
المنشئ والأديب ؛ إلى ما فيها من مختارات بديعة ، وتحقيقات دقيقة ، ولفحات
تشويق وترويق . وفيها غناء للتلميذ ، وعون للمدرس .

الثنى خمسة وعشرون مليماً

يطلب من .

المطبعة الرحمانية بالخرنفس رقم ٢٥

القصص المدرسية

يصدرها

سيد العريان أمين دويار محمد زهران
خير مجود دار العلوم

فن طريف في أدب الطفولة ،
واتجاه جديد في تعليم العربية ،
وتسليّة لذينة تشوق الأطفال ،
ورجولة عالية تساق إلى التليذ
في أسلوب التليذ ...

مدمس اكفور ، الصياد النائه ، عروس البغاه ،
النهر الذهبي ، الزعيم الصغير ، وغيرها ...

تمن القصة في الجملة خمسة ملهات

العنوان

طنطا : أمين دويار ، بمدرسة القامد الابتدائية
مصر : نادي دار العلوم ١١٤ شارع عماد الدين

أول كتاب أخرجته

بجامعة دار العلوم

عجم الأعلام

تأليف

محمود مصطفى

أستاذ الأدب العربي

بكلية اللغة العربية

تمن مخفض لأعضاء جامعة دار العلوم

مطبوعات

جَمَاعَةُ دَارِ الْعِلْمِ

فلسفة الكذب

تأليف

محمد مهدي عبادي

المفتي بوزارة المعارف

وعضو المكتبة الفقهية

تمن مخفض لأعضاء جماعة دار العلوم

توكلوا على الله
وولوا ووجهكم شطر المسجد الحرام فقد كفلت لكم

زمزم

أحدى بوآخر شركة مصر

للملاحة البحرية

أسباب الرامة والطمانينة

آخر موعد لقبول طلبات الحج ١٥ فبراير الجارى

الرحلة الثانية للباخرة زمزم بالفوج الثانى

من الحجاج يوم الاثنين

١٠ فبراير الحالى